

أَخْبَارُ الْخَوَارِجِ

مِنْ كِتَابِ

الْكَمَلِ

فِي الْلُغَةِ وَالْأَدَبِ وَالنَّحْوِ وَالتَّصْرِيفِ

تَأَلَّفَ

الإمام أبي العباس المبرّد

دار الفكر

أهداء 2005

أ.د. عباس محمد الحميد

جامعة الإسكندرية

أَخْبَارُ الْخَوَارِجِ

مِنْ كِتَابِ

الْكَامِلُ

فِي اللُّغَةِ وَالْأَدَبِ وَالنَّحْوِ وَالتَّصْرِيفِ

تَأَلَّفَ

الْإِمَامُ أَبِي الْعَبَّاسِ الْمُبَرِّقُ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكامل

حدثنا أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز قال : حدثنا أبو عثمان سعيد بن جابر قال : حدثنا أبو الحسن علي بن سليمان الأخفش قراءةً عليه قال : قرئ لي هذا الكتاب على أبي العباس محمد بن يزيد المبرد :

الحمد لله حمداً كثيراً يبلغُ رضاه ، ويوجبُ مزيدَه ، ويجبرُ من سخطه ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين ، ورسول رب العالمين ، صلاة تامة زاكية ، تؤدِّي حقَه ، وتُزَلِّفه عند ربه .

قال أبو العباس : هذا كتاب ألفناه يجمع ضروباً من الآداب ، ما بين كلام منشور ، وشعر مرصوف ، ومثل سائر ، وموعظة بالغة ، واختيار من خطبة شريفة ، ورسالة بليغة .

والنية أن تُفسَّر كل ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب ، أو معنى مُستغلق ، وأن تُشرح ما يعرضُ فيه من الإغراب شرحاً شافياً ، حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفياً ، وعن أن يُرجع إلى أحد في تفسيره مستغنياً ، وبالله التوفيق والجول والقوة ، وإليه مفزعنا في درك كل طلبة ، والتوفيق لما فيه صلاح أمورنا من عمل بطاعته ، وعقد رضاه ، وقول صادق يرفعه عمل صالح ، إنه على كل شيء قدير .

أخبار الخوارج

قال أبو العباس : ذكر أهل العلم من الصفرية أن الخوارج لما عزموا على البيعة لعبد الله بن وهب الراسي من الأزد تكرة ذلك ، فأبوا من سواه ، ولم يريدوا غيره . فلما رأى ذلك منهم قال : يا قوم ! استئيثوا الرأي . أي دعوهُ يَغْبُ . وكان يقول : نعوذ بالله من الرأي الدبري .

قوله : استئيثوا الرأي ، يقول : دعوا رأيكم تأت عليه لئلا تم تعقبوه ، يقال : بئت فلان كذا وكذا ، إذا فعله لئلا . وفي القرآن : (إذ يبيئون مالا يرضى من القول) أي أداروا ذلك لئلا بينهم . وأنشد أبو عبيدة :

أتوفي فلم أرض ما يئثوا وكانوا أتوني بأمرٍ نكثوا
لأنكح أئمتهم منذرا وهل ينكح العبد حرًا حرًا

والرأي الدبري : الذي يعرض من بعد وقوع الشيء ، كما قال جرير :

ولا يعرفون الشر حتى يصيبهم ولا يعرفون الأمر إلا تدبرًا
وكان عبد الله بن وهب ذا رأي وقهم ، ولسان وشجاعة ، وإنما لجؤوا إليه وخلصوا معدن الإيادي لقول معدن :

سلام على من بايع الله شارباً وليس على الحزب المقيم سلام
فبرئت منه الصفرية ، وقالوا : خالفت ، لأنك برئت من القعد .
قال أبو العباس : والخوارج في جميع أصنافها تبرأ من الكاذب ، ومن ذي المعصية الظاهرة .

وَحَدَّثَتْ : أَنْ وَأَصِلَ بْنَ عَطَاءٍ أَبَا حَذِيفَةَ أَقْبَلَ فِي رُفْقَةٍ ، فَاحْسُوا
 الْحَوَارِجَ ، فَقَالَ وَاصِلٌ لِأَهْلِ الرُّفْقَةِ : إِنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِكُمْ ، فَاعْتَرَلُوا
 وَدَعَوْنِي وَلِيَّائِي ، وَكَانُوا قَدْ أَشْرَفُوا عَلَى الْعُطْبِ ، فَقَالُوا لَهُ : شَأْنُكَ ،
 فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ ، فَقَالُوا : مَا أَنْتَ وَأَصْعَابُكَ ؟ قَالَ : مُشْرِكُونَ مُسْتَجِيرُونَ ،
 لِيَسْمَعُوا كَلَامَ اللَّهِ ، وَيَعْرِفُوا حُدُودَهُ ، فَقَالُوا : قَدْ أَجَرْنَاكَ ! قَالَ :
 فَعَلِمْنَا ، فَبَعَلُوا يَعْلَمُونَهُ أَحْكَامَهُمْ ، وَجَعَلَ يَقُولُ : قَدْ قَبِلْتُ أَنَا وَمَنْ مَعِيَ ،
 قَالُوا : فَاْمُضُوا مُصَاحِبِينَ ، فَإِنَّكُمْ إِخْوَانُنَا ! قَالَ : لَيْسَ ذَلِكَ لَكُمْ ، قَالَ اللَّهُ
 تَبَارَكَ وَتَعَالَى : (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ
 كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ) فَأَبْلَغُونَا مَأْمَنَنَا ، فَظَنَرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ،
 ثُمَّ قَالُوا : ذَاكَ لَكُمْ ، فَسَارُوا بِأَجْمَعِهِمْ حَتَّى بَلَغُوهُمُ الْمَأْمَنَ .

وَذَكَرَ أَهْلُ الْعِلْمِ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ : أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ لَمَّا وَجَّهَ
 إِلَيْهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ لِنَيْظَرَهُمْ ، قَالَ لَهُمْ : مَا الَّذِي
 نَقِمْتُمْ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالُوا : قَدْ كَانَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَمِيرًا ، فَلَمَّا حَكَّمَهُ
 فِي دِينِ اللَّهِ خَرَجَ مِنَ الْإِيمَانِ ، فَلْتَيْبُ بَعْدَ إِقْرَارِهِ بِالْكَفْرِ نَعْدُ لَهُ !
 فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ لَا يَنْبَغِي لِمُؤْمِنٍ لَمْ يَشُبْ إِيمَانُهُ شَكٌّ أَنْ يَقِرَّ عَلَى نَفْسِهِ
 بِالْكَفْرِ . قَالُوا : إِنَّهُ قَدْ حَكَّمَهُ ، قَالَ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَمَرَنَا بِالتَّحْكِيمِ
 فِي قَتْلِ صَيْدٍ ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : (يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ)
 فَكَيْفَ فِي إِمَامَةٍ قَدْ أَشْكَلَتْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ؟ فَقَالُوا : إِنَّهُ قَدْ حَكَّمَ عَلَيْهِ فَلَمْ
 يَرْضَ . فَقَالَ : إِنَّ الْحُكْمَةَ كَالْإِمَامَةِ ، وَمَتَى فَسَقَ الْإِمَامُ وَجَبَتْ
 مَعْصِيَتُهُ ، وَكَذَلِكَ الْحُكْمَانِ ، لَمَّا خَالَفَا تَبَيَّنَتْ أَفَاوِيلُهُمَا . فَقَالَ بَعْضُهُمْ
 لِبَعْضٍ : لَا تَجْعَلُوا احْتِجَاجَ قَرِيشٍ حُجَّةً عَلَيْكُمْ ! فَإِنَّ هَذَا مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ
 قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِمْ : (بَلْ نَحْمُ قَوْمٌ خَاصِمُونَ) وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ :
 (وَتَنْذِرُ بِهِ قَوْمًا لَذًا) .

وَالشَّيْءُ يُذَكِّرُ بِالشَّيْءِ ، وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ : أَنَّ رَجُلًا أَعْرَابِيًّا أَتَى عَمْرُ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ : إِنِّي أَصَبْتُ طَبِيًّا وَأَنَا مُحْرَمٌ ؟ فَالْتَفَتَ عَمْرُ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ، فَقَالَ : قُلْ ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : يُهْدِي شَاةً ، فَقَالَ عَمْرُ : أَهْدِي شَاةً ، فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ : وَاللَّهِ مَا دَرَيْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا فِيهَا حَتَّى اسْتَفْتَيْتُ غَيْرَهُ ! فَخَفَّفَهُ عَمْرُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِالذَّرَّةِ ، وَقَالَ : أَتَقْتُلُ فِي الْحَرَمِ وَتَخْصِمُ الْقَتِيلَا ؟ ! إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ : (يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ) فَأَنَا عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، وَهَذَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ .

قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ : وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ مُصْرُوبٌ مِنَ الْفَقْهِ : مِنْهَا مَا ذَكَرُوا أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ قَالَ أَوَّلًا ، لِيَكُونَ قَوْلُ الْإِمَامِ حُكْمًا قَاطِعًا . وَمِنْهَا أَنَّهُ رَأَى أَنَّ الشَاةَ مِثْلُ الظَّيَّةِ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : (فَجَزَاءُ مِثْلُ مَا قَتَلْتُمْ مِنْ النَّعَمِ) . وَأَنَّهُ لَمْ يَسْأَلْهُ : أَخْطَأَ قَتْلَهُ أَمْ عَمْدًا ؟ وَجَعَلَ الْأَرَبِينَ وَاحِدًا . وَمِنْهَا أَنَّهُ لَمْ يَسْأَلْهُ : أَقَتَلْتُمْ صَيْدًا قَبْلَهُ وَأَنْتَ مُحْرَمٌ ؟ لِأَنَّ قَوْمًا يَقُولُونَ : إِذَا أَصَابَ ثَانِيَةً لَمْ يَحْكَمْ عَلَيْهِ ، وَلَكِنَّا نَقُولُ لَهُ : انْهَبْ فَاتَّقِ اللَّهَ ، لِقَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : (وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ) .

قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ : مِنْ طَرِيفِ أَخْبَارِ الْخَوَارِجِ قَوْلُ قَطْرِ بْنِ الْفُجَاءَةِ الْمَازِنِيِّ لِأَبِي خَالِدٍ الْقَنَافِيِّ ، وَكَانَ مِنْ قَعْدَةِ الْخَوَارِجِ :

أَبَا خَالِدٍ يَا نَفِيرَ فَلَسْتَ بِخَالِدٍ وَمَا جَعَلَ الرَّحْمَنُ عَذْرًا لِقَاعِدٍ
أَتَوْعُمُ أَنَّ الْخَارِجِيَّ عَلَى الْهَدْيِ وَأَنْتَ مُقِيمٌ بَيْنَ لِصٍّ وَجَاحِدٍ

فَكُتِبَ إِلَيْهِ أَبُو خَالِدٍ :

لَقَدْ زَادَ الْحَيَاةُ إِلَيَّ حُبًّا بَنَانِي ، إِنَّمَنْ مِنَ الضَّعَافِ
أَحَافِظُ أَنْ يَرَيْنَ الْفَقْرَ بَعْدِي وَأَنْ يَشْرَبْنَ رَنَقًا بَعْدَ صَافٍ
وَأَنْ يَعْرِينَ إِنْ كَسَى الْجَوَارِي فَتَنْبُو الْعَيْنُ عَنْ كَرَمٍ عِجَافٍ
وَلَوْلَا ذَاكَ قَدْ سَوَّمْتُ مُهْرِي وَفِي الرَّحْمَنِ لِلضَّعْفَاءِ كَافٍ
أَبَا مَنْ لَنَا إِنْ غَيَبَ عَنَّا وَصَارَ الْحَيُّ بَعْدَكَ فِي اخْتِلَافٍ

وهذا خلاف ما قال عمران بن حطان ، أحد بني عمرو بن شيان بن ذهل
بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل ، وقد كان
رأس القعد من الصغرة وخطيم وشاعرهم ، قال لما قتل أبو بلال ، وهو مرداس
بن أدبة ، وهي جدته ، وأبوه حذير ، وهو أحد بني ربيعة بن حنظلة
بن مالك بن زيد مناة بن تميم ، قال عمران بن حطان :

لقد زاد الحياة إليّ بغضاً	وحباً للخروج أبو بلال
أحاذرُ أن أموت على فراشي	وأرجو الموت تحت ذرى العوالي
ولو أنني علمت بأنّ حنفي	كحنف أبي بلال لم أبال
فمن يك ممّة الدنيا فإنني	لها والله رب البيت قالي

وفيه يقول :

باعتني بكفي لمرداس ومصرعه	يارب مرداس اجعلي كمرداس
تركنتي هائفاً أبكي لمرزنتي	في منزل موحش من بعد إناس
أنكرت بعدك من قد كنت أعرفه	ما الناس بعدك يا مرداس بالناس
إما شربت بكأس دار أولها	على القرون فذاقوا جرعة الكاس
فكل من لم يذقها شارب عجل	منها بأنفاس وود بعد أنفاس

★ ★ ★

قال أبو العباس : وكان من حديث عمران بن حطان فيما حدثني العباس
ابن الفرج الرياشي عن محمد بن سلام : أنه لما أطرده الحجاج كان ينتقل
في القبائل ، فكان إذا نزل في حي انتسب نسباً يقرّب منه ، ففي ذلك يقول :

نزلنا في بني سعد بن زيد	وفي عك وعامر عوثان
وفي لحم وفي أد بن عمرو	وفي بكر وحسبني الغدان

ثم خرج حتى نزل عند روج بن زنباع الجذامي ، وكان روح
يقري الأضياف ، وكان مامراً لعبد الملك بن مروان أن يراعه ، فانتسب

له من الأزد . وفي غير هذا الحديث : أن عبد الملك ذكر روحاً فقال :
 مَنْ أَعْطِيَهُ مِثْلَ مَا أَعْطِيَ أَبُو زُرْعَةَ؟ أَعْطِيَهُ أَهْلَ الْحَبَاذَةِ، وَدَهَاءَ أَهْلِ الْعِرَاقِ ،
 وَطَاعَةَ أَهْلِ الشَّامِ . وَجَعُ الْحَدِيثِ : وَكَانَ رُوحُ بْنُ زُبَاعٍ لَا يَسْمَعُ
 شِعْراً قَاطِراً وَلَا حَدِيثاً غَرِيباً عِنْدَ عَبْدِ الْمَلِكِ فَيَسْأَلُهُ عَنْهُ عِمْرَانُ بْنُ حِطَّانَ
 إِلَّا عَرَفَهُ وَزَادَ فِيهِ ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِعَبْدِ الْمَلِكِ ، فَقَالَ إِنَّ لِي جِلاًءاً مِنَ الْأَزْدِ
 مَا أَسْمَعُ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ خَبِيراً وَلَا شِعْراً إِلَّا عَرَفَهُ وَزَادَ فِيهِ ، فَقَالَ :
 خَبِّرْنِي بِبَعْضِ أَخْبَارِهِ ، فَخَبَّرَهُ وَأَنْشَدَهُ ، فَقَالَ : إِنَّ الْفَقْرَ عَذَابَانِي ،
 وَإِنِّي لِأَحْسِبُهُ عِمْرَانَ بْنَ حِطَّانَ ، حَتَّى تَذَاكُرُوا لِيْلَةَ قَوْلِ عِمْرَانَ بْنِ حِطَّانَ
 يَدْحُ ابْنِ مُلْجَمٍ لَعَنَهُ اللَّهُ :

بِاضْرِبَةٍ مِنْ تَقِيٍّ مَا أَرَادَ بِهَا إِلَّا لِيَبْلُغَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ رِضْوَاناً
 إِنِّي لِأَذْكُرُهُ حِيناً فَأَحْسِبُهُ أَوْفَى الْبَرِيَّةِ عِنْدَ اللَّهِ مِيزَاناً
 قَلْبَهُ الْفَقِيرُ الطَّبْرِيُّ قَالَ :

بِاضْرِبَةٍ مِنْ تَقِيٍّ مَا أَرَادَ بِهَا إِلَّا لِيَهْدِمَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ بِنْيَاناً
 إِنِّي لِأَذْكُرُهُ يَوْماً فَالْعَنَهُ لَهَا وَالْعَنَ عِمْرَانَ بْنَ حِطَّاناً
 قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ الطَّبْطَبِيِّ يَرُدُّ عَلَى عِمْرَانَ بْنِ حِطَّانَ :

بِاضْرِبَةٍ مِنْ غَدَوٍ صَارَ ضَارِبُهَا أَشَقَى الْبَرِيَّةِ عِنْدَ اللَّهِ إِنْسَاناً
 إِذَا تَفَكَّرْتُ فِيهِ ظَلْتُ أَلْعَنُهُ وَالْعَنُ الْكَلْبَ عِمْرَانَ بْنَ حِطَّاناً

فَلَمْ يَدْرِ عَبْدُ الْمَلِكِ لِمَنْ هُوَ ، فَجَعَلَ رُوحٌ إِلَى عِمْرَانَ بْنِ حِطَّانَ ، فَسَأَلَهُ
 عَنْهُ ، فَقَالَ عِمْرَانُ : هَذَا يَقُولُهُ عِمْرَانُ بْنُ حِطَّانَ يَدْحُ بِهِ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ
 مُلْجَمٍ قَاتَلَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ، فَجَعَلَ رُوحٌ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ فَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ
 لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ : ضَيْفُكَ عِمْرَانُ بْنُ حِطَّانَ ، أَذْهَبُ فَجِئْتُ بِهِ ، فَجَعَلَ إِلَيْهِ ،
 فَقَالَ : إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ أَحَبَّ أَنْ يَرَاكَ ، قَالَ لَهُ عِمْرَانُ : قَدْ أَرَدْتُ أَنْ
 أَسْأَلَكَ ذَلِكَ فَاسْتَمِيتُ مِنْكَ ، فَأَمَضَ فَإِنِّي بِالْأَثَرِ ! فَجَعَلَ رُوحٌ إِلَى عَبْدِ

الملك فأخبره ، فقال له عبدُ الملك : أما إنك ستُرجعُ فلا تجدُه ! فرجع وقد ارتحل عمرانُ ، وخلفَ رُقعةَ فيها :

يا رُوحُ كم من أخِي مَوتَى تَزلُ به
 حتى إذا خَفَتُهُ فَلَوقْتُ مَنْزِلَهُ
 قد كُنتُ جَارَكَ حَوْلًا مَاتُوا عَنِي
 حتى أَرَدْتُ بِي العَظُمَى فَأَدْرَكَنِي
 فَأَعْدَرْتُ أَخَاكَ ابْنَ زَنْبَاعٍ فَإِنَّ لَهُ
 يَوْمًا يَمَانٍ إِذَا لَاقَيْتُ ذَا بَيْنِ
 لَوْ كُنتُ مُسْتَغْفِرًا يَوْمًا لَطَافِيَةٍ
 لَكِنُّ أَبْتُ بِي آيَاتٍ مُطَهَّرَةٍ
 قد ظَنُّ ظَنُّكَ مِنْ لَحْمٍ وَغَسَانٍ
 مِنْ بَعْدِ مَا قَبِلَ عِمْرَانُ بْنُ حِطَّانٍ
 فِيهِ رَوَائِعٌ مِنْ إِنْسٍ وَمِنْ جَانٍ
 مَا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ خَوْفِ ابْنِ مِرْوَانَ
 فِي التَّنَابُاتِ مُخْطُوبًا ذَاتَ أَلْوَانٍ
 وَإِنَّ لَقَيْتُ مَعْدِيًّا فَعَدَّتَانِي
 كُنتَ الْمُتَعَدِّمُ فِي مَرِيٍّ وَإِعْلَانِي
 عِنْدَ الْوَلَايَةِ فِي طَهٍ وَعِمْرَانَ

ثم ارتحل حتى تزل بؤفر بن الحرث الكلبي ، أحد بني عمرو بن كلاب ، فانتسب له أوزاعياً ، وكان عمرانُ يُطيلُ الصلاة ، وكان غلمانُ من بني عامرٍ يضحكون منه ، فأتاه رجلٌ يوماً بمن رآه عند روح بن زنباع فلم عليه ، فدعاه زُفْرُ فقال : من هذا ! فقال : رجلٌ من الازد رأيتُه ضيفاً لروح بن زنباع ، فقال له زُفْرُ : يا هذا ؟ أأزدياً مرةً وأوزاعياً مرةً ؟ ! إن كنت خائفاً آمنأك ، وإن كنت فقيراً جبرناك ، فلما أتمى هرب وخلف في منزله رُقعةَ فيها :

إن التي أصبحتُ يعني بها زُفْرُ أَعْيَتْ عِيَاءَ عَلَى رُوحِ بْنِ زَنْبَاعٍ
 قال أبو العباس : أنشدني الرياشي . أعيا عياها على رُوحِ بْنِ زَنْبَاعٍ ،
 وأنكره كما أنكرته ، لأنه قصر الممدود ، وذلك في الشعر جائرٌ ، ولا يجوز مدُّ المقصور .

ما زال يسألني حولاً لأخبره والناسُ من بين مخدوعٍ وخداعٍ
 حتى إذا انقطعتُ عني وسائلُهُ كَفَّ السُّؤَالَ وَلَمْ يُبْلَعْ بِإِهْلَاعِي

فاكفّف كما كفّ عنيّ لاني رجلٌ
واكفّف لسانك عن لومي ومسااتي
أما الصلاة فإني غيرُ فاركها
أكرمُ بروح بن زئباج وأمرته
جاورتهم سنة فيا أمرُ به
فاعمل فإنك منعيّ بواحدة
لما صميمٌ ولما فقة القاع
ماذا تريدُ إلى شيخ لأوزاع
كلُّ امرئٍ للذي يُعنى به ساعي
قومٌ دعا أولهم للعلّي داعي
عرضي صحيحٌ ونومي غيرُ نهجاع
حسبُ اليب هذا الشيب من ناعي
ثم ارتحل حتى أتى ممان ، فوجدهم يُعظّمون أمر أبي بلال ويُظهرونه ،
فاظهر أمره فيهم ، فبلغ ذلك الجعاج ، فكتب إلى أهل ممان ، فارتحل
عمرانُ هارباً ، حتى أتى قوماً من الأزد فلم يزل فيهم حتى مات . وفي نزول
بهم يقول :

نزلنا بحمد الله في خير منزل
نزلنا بقوم يجمعُ الله شملهم
من الأزد إن الأزد أكرمُ أمرة
فأصبحتُ فيهم أمناً لا كمعشر
أم الحميّ قطانٍ ؟ فتلكمُ سفلة
وما منها إلا يُسرُ بنسبة
فتحنُ بنو الإسلام والله واحد
نُسرُ بما فيه من الأئس والحفر
وليس لهم مُعدٌ سوى المجد يُعصر
جانيةً طلبوا إذا مُنّب البشرُ
أتوني فقالوا من ربيعة أو حضرم
كما قال لي روحٌ وصاحبُ زفر
تكرّبتني منه وإن كان ذا قر
وأولى عباد الله بالله من شكر

قوله « ياروحُ كم من أخي منوى نزلتُ به » قد مر تفسيره ، يقالُ « هذا
أبو منوي » وللتاني « هذه أم منوي » ومنزلُ الضيافة وما أشبهها « المتوى »
وكذلك قال المنسرون في قول الله عز وجل (أكرمي منواه) أي إضافته
ويقالُ من هذا « نوى يتوي منواً » كقولك « مضى يخضي مضياً » ، ويقالُ
« نواة » و « مضاء » كما قال الشاهج :

طال النواة على رسم يميؤود أودى وكلُّ جديد مرة مودي

وقوله « فيه روائعٌ من إنس ومن جان » الواحدة « رائعة » يقال « راعني يروعي روعاً » أي : أفرعني . قال الله تعالى ذكره : (فلما ذهب عن إبراهيم (الروح) ويكونُ « الرائعُ » الجميل يقال : جمالٌ رائعٌ ، يكونُ ذلك في الرجل والفرس وغيرهما ، وأحسبُ الأصل فيها واحداً : أنه يُفرطُ حتى يروع ، كما قال الله جل ثناؤه : (يكادُ سنابقيه ينهبُ بالابصار) للأفراط في ضيائه ، و « الرائعُ » ميموزٌ ، وكذلك كل فعلٍ من الثلاثة بما عينه واو أو ياء إذا كانت معتلة ساكنة ، تقولُ « قال يقول » و « باع يبيع » و « خاف يخاف » و « هاب يهاب » يعتلُ اسمُ الفاعل فيهمزُ موضع العين نحو « قاتل » و « باع » و « خائف » و « هائب » . فإن صحت العين في الفعل صحت في اسم الفاعل ، نحو « عورَ الرجلُ فهو عاورٌ » و « صيدٌ فهو صايدٌ » و « الصيدُ » داءٌ يأخذُ في الرأس والعين والشؤون وإنما صحت في « عور » و « حول » و « صيد » لأنه منقولٌ من « احول » و « اعور » . وقد أحكمنا تفسير هذا في الكتاب المقتضب .

وقوله :

« يوماً يمان إذا لاقيتُ ذا عينٍ وإن لقيتُ معدباً فعدتاني »
يُريد : أنا يوماً يمان ، ولولا أن الشعر لا يصلحُ بالنصب لكان النصبُ جائزاً ، على معنى أتقل يوماً كذا ويوماً كذا ، والرفع حسنٌ جميلٌ . وهذا الشعرُ يُشددُ نصاً .

أفي السلم أعياراً جفاءً وغلظةً وفي الحرب أمثال النساءِ العواركُ
« العواركُ » هُن الحواضُ . وكذلك قوله :
أفي الولائم أولاداً لواندةٍ وفي المحافل أولاداً لعلات
قال « العلاتُ » سميت لأن الواحدة « مُعلٌ » بعد صاحبها ، وهو من « العلل » وهو الشربُ الثاني ، أي يختلفون ويتحولون في هذه الحالات . ومن

كلام العرب: أجميًّا مرةً وقبيًّا أخرى؟ وكذلك إن لم تستفهم وأخبرت قلت
جميًّا مرةً علم الله وقبيًّا أخرى . أي : نتقل . ومن ثم قال له زُفر بن
الحُرث : أزدبًا مرةً وأوزاعيًّا أخرى؟ والرفع على « أنت ، جيدٌ بالغٌ » .

وقوله : « لو كنتُ مستغفراً يوماً لطاغيةً ، يكون على وجهين : لنفس
طاغيةً ، والآخرُ للمذكر ، وزاد الماء للتوكيد والمبالغة ، كما يقالُ : رجل
راويةٌ وعلامةٌ ونسابةٌ ، وكلاهما وجهٌ . ويقالُ : جاءت طاغيةُ الرُّوم ، برادُ
الجماعةِ الطاغيةُ ، كما قال رسولُ الله ﷺ : « تقتلك الفئةُ الباغيةُ » .

وقوله « عند الولاية » إذا قُتعت فهو مصدرٌ « الولي » وفي القرآن
المجيد : (ما لَكُمْ من ولايتهم من شيءٍ) . والولايةُ مَكسورةٌ نحو السياسة
والرياسة والإيالة ، وهي الولايةُ ، وأصله من الإصلاح ، يقال « آله يؤوله »
أولاً ، إذا أصلحه . قال عمرُ بن الخطاب : قد أئنا وإيل علينا . تأويل ذلك
قد ولينا وولي علينا . وهذه كلمةٌ جامعةٌ ، يقول : قد ولينا فعلنا ما يصلحُ
الوالي ، ووئي علينا فعلنا ما يصلحُ الرعيةَ .

وقوله « حتى إذا ما انتقضتْ مني وسائله » « الوسائلُ » واحدها « وسيلةٌ »
وهي : الذريعةُ والسببُ . يقال : قد توسَّلتُ إلى فلانٍ ، قال رؤبةٌ بن
العجاج :

والناسُ إنْ فصلتْهم فصالاً كلُّ إلينا يتبغي الوسائلا

وقوله : « ولم يولعْ بإعلامي » أي : بإفراعي وترويعي . والملعُ من
الجبْن عند ملاقة الأقران ، يقال : نعوذ بالله من الملح . ويقال : رجلٌ هلوغٌ
إذا كان لا يصبر على خيرٍ ولا شرٍّ ، حتى يفعل في كل واحدٍ منها غير الحقِّ ،
قال الله وهو أصدق القائلين : (إنَّ الإنسانَ خلقٌ هلوغاً . إذا سئهُ التَّشَرُّ
جزوعاً . وإذا سئهُ الخيرُ سنوعاً) . وقال الشاعرُ :

ولي قلبٌ سقيمٌ ليس يصحو ونفسٌ ما تفيقُ من الملاح

وقوله . « إِنَّا صِمْ » وإِنَّا فقعة القاع ، « الصِّمِّمُ » الخالص من كل شيء ، يقال : فلان من صميم قومه ، أي : من خالصهم . وقال جرير لهشام ابن عبد الملك :

وتنزل من أية حيث تلقى شؤون الرأس مجتمع الصِّمِّمِ
وقوله « وإِنَّا فقعة القاع » يقال لمن لا أصل له : هو فقعة بقاع ،
وذلك لأن الفقعة لا عروق لها ولا أغصان ، والفقعة الكمأة البيضاء ، ويقال :
حام فقيح : لياضه . ومن ذا قول الشاعر :
قومٌ إذا نسبوا يكون أبومُ عند المناسب فقعة في قرقر
وقال بعض القرشين :

إذا ما كنت ستخذاً خليلاً فلا تجمل خليلك من نعيم
بلوت صميمهم والعبد منهم فما أدنى العبد من الصِّمِّمِ
وقوله « نسرٌ بما فيه من الأنس والحقر » فأصل « الحقر » شدة الجفاء
يقال « امرأة خفرة » إذا كانت مستورة لاستحيائها ، قال ابن عمير الثقفي :
تضوعُ سكاً بطن نعان أن مثني به زينب في نسوة خفريات
وقوله « إن الأزد أكرم أسرة » يقول : عصابة وقيلة ، ويقال للرجل :
من أي أسرة أنت ؟ وأصل هذا من الاجتماع ، يقال للقب « مأسور » وقد
مضى تفسيره .

وينشد « يمانية قرَّبوا إذا نسب البشر » يريد « قرَّبوا » . وهذا جائز
في كل شيء مضموم أو مكسور إذا لم يكن من حركات الإعراب ، تقول
في الأسماء في « فخذ » ، وفي « عضد » ، « عضد » . وتقول في
الأفعال « كرم عبد الله » أي كرم ، و « قد علم الله » أي علم الله .
قال الأخطل :

فإن أمه يضر كما خجر بازل من الإبل صيرت صفحاته وكلاه

وقال آخر :

عبثت لمولود وليس له أبٌ وذي ولدٍ لم يلدته أبوات

ولا يجوزُ في « ضرب » ولا في « جل » أن يسكن ، لحة الفتحة .

وقوله « أتوني فقالوا من ربيعة أو مضر » يقول : أمن ربيعة أم من مضر ؟ ويجوزُ في الشعر حذفُ ألف الاستفهام ، لأن « أم » التي جاءت بعدها تدلُّ عليها . قال ابنُ أبي ربيعة :

لعمرك ما أذري وإن كنتُ دارياً بسبع ومن الجمر أم بنات
يريد : أبسعر ؟ وقال التميمي :

لعمرك ما أذري وإن كنتُ دارياً شعثُ بن سهم أم شعثُ بن منقر

الروايةُ على وجهين : أحدهما « من ربيعة أم مضر أم الحمي قطان » يريدُ : إذا أم ذا ؟ والأصلحُ في الرواية « من ربيعة أو مضر » أم الحمي قطان ، لأن ربيعة آخرُ مضر ، فأراد من أحد هذين أم الحمي قطان ، لأنه إذا قال : أزيدُ عندك أم عمرو ؟ فاجوابُ : نعم ، أو لا ، لأن أحد هذين عندك ، ومعنى الأول : أيها عندك ؟ وهروى - وحدثنه للزبي - : أن صفية بنت عبد المطلب أظها رجلاً ، فقال لها : ابن الزبير ؟ قالت : وما تريدُ إليه ؟ قال : أريد أن أباطشه ! فقالت : ها هو ذاك ، فصار إلى الزبير فباطشه . فغلبه الزبير ، فرَّ بها مفلولاً ، فقالت صفية :

كيف رأيت زيرا . ألقطاً أو تمراً . أم قرشياً صقراً

لم تشكك بين الأقط والشمر فتقول أيها هو ؟ ولكنها أرادت : رأيتُ طعاماً أم قرشياً صقراً ؟ أي أحد هذين رأيتُ أم صقراً ؟ ولو قالت : ألقطاً أم تمراً : كان محالاً على هذا الوجه .

وقوله : « وما منها إلا يسرٌ بنسبة » معناه : وما منها واحدٌ ، فحذف لعلم المخاطب . قال الله جلَّ اسمه : (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به

قبل موته (أي : وإن أحدٌ . ومعنى « إن » معنى « ما » قال الشاعر :
وما الدهرُ إلا ثلثاتٌ فمنها أموتُ وأخرى أبقي العيش أكدهُ
يريدُ : فمنها تارة .

وقوله :

« فحنُّ بنو الإسلامِ واللهُ واحدٌ وأولى عباد الله بالله من شكر »
يقول : انقطعت الولاية إلا ولاية الاسلام ، لأن ولاية الاسلام قد قاربت
بين الغرباء . وقال الله عز وجل : (إنا المؤمنون إخوة) . وقال عز وجل
فباعد به بين القرابة : (إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح) وقال
نهارُ بن توسة الشكْرِيُّ :

دعيَّ القومَ ينصرُ مدعيه ليُلحقهُ بندي الحسب الصمم
أي الاسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقبس أو تمم

* * *

ويقالُ فيما يُروى من الأخبار : إن أول من حكم عروة بن أدية ، وأدية
جدة له جاهلية ، وهو عروة بن مُخير ، أحد بني ربيعة بن حنظلة . وقال
قومٌ : بل أول من حكم رجل يقال له سعيد من بني محارب بن خصفة بن
قيس بن عيلان بن مُضر ولم يختلفوا في إجماعهم على عبد الله بن وهب الراسبي ،
وإنه امتنع عليهم ، وأوما إلى غيره ، فلم يقتلوا إلا به ، فكان إمام القوم ،
وكان يُوصفُ بالرأي .

قال أبو العباس : فأما أولُ سيفٍ سلَّ من سيوف الخوارج فيفء عروة
ابن أدية ، وذلك : أنه أقبل على الأشعث فقال : ما هذه اللانيئة يا أشعث ؟
وما هذا التحكيم : أشرط أوتق من شرط الله عز وجل ؟ ! ثم شرب عليه
السيف والأشعث مولٍ ، فضرب به عجز البقرة ، فشبت البقرة فنفرت البانية ،
وكانوا جل أصحاب علي صلوات الله عليه ، فلما رأى ذلك الأحنف قصد

هو وجارية بن قدامة ومسعود بن فديك بن أعبد وشيث بن ربيع الرياحي ،
إلى الأشعث ، فسالوه الصّبح ، ففعل .

وكان عروة بن أدية نجاً من حرب التّهران ، فلم يزلّ باقياً مدةً من
خلافة معاوية ، ثم أتى به زنادٌ ومعه مولى له ، فساله عن أبي بكر وعمر ،
فقال خيراً ، ثم ساله فقال : ما تقول في أمير المؤمنين عثمان بن عفان وأبي
تواب علي بن أبي طالب ؟ فتولى عثمان ست سنين من خلافة ، ثم شهد عليه
بالكفر ! وفعل في أمر عليّ مثل ذلك إلى أن حكم ، ثم شهد عليه بالكفر !
ثم ساله عن معاوية ؟ فنبه سباً قبيحاً ! ثم ساله عن نفسه ؟ فقال : أولئك
لؤنية وآخرك لدعوة ، وأنت بعدُ عاصٍ لربك ! ثم أمر به فضربت عنقه ،
ثم دعا مولاه فقال : صف لي أموره ؟ فقال : أأطنبُ أم أختصرُ ؟ فقال :
بل أختصر ، فقال : ما أتيتُ بطعامٍ بنهارٍ قطُّ ، ولا فرشتُ له فراشاً
بليلٍ قطُّ .

وكان سببُ تسميتهم الحرورية : أن عليّاً لما ناظرهم بعد مناظرة ابن
عباس رحمه الله لإمام ، فكان بما قال لهم : ألا تعلمون أن هؤلاء القوم لمّا
رفعوا المصاحف قلتُ لكم أن هذه مكيدةٌ ووهنٌ ، وأنهم لو قصدوا إلى
حكم المصاحف لم يأتوني ثم سألتني التحكيم ، أفعلتمُ أنه كان منكم أحدٌ أكره
لذلك مني ؟ قالوا : اللهم نعم . قال : فهل علمتمُ أنكم استكروهموني على
ذلك حتى أجبتمكم إليه ، فاشتدّت أن حكمها نافذة ما حكمها بحكم الله عزّ
وجلّ ، فإن خالفناه فانا واتم من ذلك برآء ، أو أنتم تعلمون أن حكم الله
لا يعدوني ؟ قالوا : اللهم نعم - وفيهم في ذلك الوقت ابنُ الكواء ، وهذا
من قبل أن يذبحوا عبد الله بن جباب ، فلما ذبحوه بكسر في الفرقة الثالثة -
فقالوا : حكمت في دين الله برأينا ، ونحن مقرون بأننا قد كفرنا ، ونحن
ثابون ! فافقر بئس ما أقررت به وتب ، تنهض معك إلى الشام !! فقال :
أما تعلمون أن الله جل ثناؤه قد أمر بالتحكيم في شقاي بين رجلٍ وامرأة ، فقال تبارك
وتعالى : (فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها) وفي صيدٍ أصيب في الحرم ،

كَأَرْبِ يَسَاوِي رُبْعَ دِينَارٍ ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ (بِحِكْمٍ) بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ)
 فَقَالُوا : إِنْ عَمَرْنَا لِمَا أَبِي عَلَيْكَ أَنْ تَقُولَ فِي كِتَابِكَ « هَذَا مَا كَتَبَهُ عَبْدُ اللَّهِ
 عَلِيُّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ » مَحَوْتَ اسْمَكَ مِنَ الْخَلِيقَةِ ، وَكَتَبْتَ « عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ »
 فَقَالَ لَهُمُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَسُوءُ ، حَيْثُ أَبِي عَلَيْهِ سَهْلٌ بْنُ
 عَمْرٍو أَنْ يَكْتُبَ « هَذَا كِتَابُ كَتَبَهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَسَهْلٌ بْنُ عَمْرٍو » فَقَالَ :
 لَوْ أَقْرَرْنَا بِأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا خَالَفْنَاكَ ، وَلَكِنِّي أَقْدَمْتُكَ لِفَضْلِكَ ، ثُمَّ قَالَ :
 اكْتُبْ « مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ » فَقَالَ لِي : يَا عَلِيُّ ، امْحُ « رَسُولُ اللَّهِ »
 فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَا تَسْخَرْ نَفْسِي بِمِثْرِ اسْمِكَ مِنَ النَّبُوَّةِ ، فَقَالَ عَلَيْهِ
 السَّلَامُ : قَفْنِي عَلَيْهِ ، فَحَاهُ يَدُهُ ﷺ ، ثُمَّ قَالَ اكْتُبْ « مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ »
 ثُمَّ تَبَسُّمَ إِلَيَّ فَقَالَ ، يَا عَلِيُّ : أَمَا لَأَنَّكَ سَتَامٌ مِثْلَهَا فَتَعْطِي فَرَجَعَ مَعَهُ مِنْهُمْ
 أَلْفَانِ مِنْ حُرُورَاءَ ، وَقَدْ كَانُوا تَجَمَّعُوا بِهَا ، فَقَالَ لَهُمُ عَلِيُّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ :
 مَا نَسَمِكُمْ ؟ ثُمَّ قَالَ : أَنْتُمْ الْحُرُورِيَّةُ ، لِاجْتِمَاعِكُمْ بِحُرُورَاءَ .

وَالنَّسَبُ إِلَى مِثْلِ « حُرُورَاءَ » « حُرُورَاوِيٌّ » فَاعْلَمْ ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا كَانَ
 فِي آخِرِهِ أَلْفُ التَّائِيَةِ الْمُدَوْدَةِ ، وَلَكِنَّهُ نَسَبَ إِلَى الْبَلَدِ بِجَذْفِ الزَّوَانِدِ ، فَقِيلَ
 « الْحُرُورِيُّ » .

★ ★ ★

وَقَالَ الصَّنَانُ الْعَبْدِيُّ فِي كَلِمَةٍ لَهُ :

أَرَى أُمَّةً شَهَرَتْ سِيقَهَا	وَقَدْ زِيدَ فِي سَوَاطِهَا الْأَصْبَحِي
بِنَجْدِيَّةٍ وَحُرُورِيَّةٍ	وَأَزْرَقَ يَدْعُو إِلَى الْأَزْرَقِي
فَلْتَنَا أَنْتَا الْمَسْلُوتِ	عَلَى دِينِ صَدِيقِنَا وَالنَّبِيِّ

وَفِي هَذَا الشَّعْرِ بِمَا يَتَحَسَّنُ قَوْلُهُ :

أَشَابَ الصَّغِيرَ وَأَفْنَى الْكَبِيرِ	مُرُورُ اللَّيَالِي وَكُرُّ الْعَشِيِّ
إِذَا لَيْلَةٌ هَرَمَتْ يَوْمَهَا	أَتَى بَعْدَ ذَلِكَ يَوْمٌ فَنِي

نروحُ ونغدو حاجاتنا وحاجةُ من عاش لانتضي
تموتُ مع المرأة حاجاته وتبقى له حاجة ما بقي

قوله « وقد زيد في سوطها الأصبي » ، فإنه تسمى هذه السباط التي يعاقبُ بها السلطانُ « الأصبيَّة » وتنسبُ إلى ذي أصبح الحميري ، وكان ملكاً من ملوك حمير ، وهو أولُ من اتخذها ، وهو جدُّ مالك بن أنس الفقيه رضي الله عنه .

« والتجديَّة » تنسبُ إلى نجدة بن عويمر ، وهو عامرُ الحنفي ، وكان رأساً ذا مقالةٍ منفردةٍ من مقالات الحوارج ، وقد بقي من أهلها قومٌ كثيرٌ . وكان نجدةٌ يصلي بمكة بمجذاء عبد الله بن الزبير في جمعه في كل جمعة ، وبعد الله يطلبُ الخلافة ، فيمساك عن القتال من أجل الحرم . قال الراعي مخاطباً عبد الملك :

إني حلفتُ على يمينٍ برة لا أكذبُ اليوم الخليفة قِلا
ما إن أتيتُ أباحيبَ وافداً يوماً أريد بيدي تديلا
ولا أتيتُ نجدة بن عويمر أبغي الهدى فيزيدي تضليلا
من نعمة الرحمن لا من حياتي إني أعدُّ له عليّ فضولا

وفي هذه القصيدة :

أخذوا العريف فقطعوا حيزومه بالاصبيَّة قائماً مغلولا

قوله « وأزرق يدعو إلى أزرق » يريدُ من كان من أصحاب نافع بن الأزرق الحنفي ، وكان نافعٌ شجاعاً مقدِّماً في فقه الحوارج ، وله ولعبد الله بن عباس مسائل كثيرة ، وسندكرهة منها في هذا الكتاب إن شاء الله .

وقوله « علي بن صديقنا والتي » فالعربُ تفعلُّ هذا ، وهو في الروايات جائرٌ ، أن تبدأ بالشيء ، وغيره المقدم . قال الله عز اسمه : (هو الذي خلقكم فمنكم كافرٌ ومنكم مؤمنٌ) وقال : (يامعشر الجن والإنس) وقال : (واسجدوا واركعوا مع الراكعين) وقال حسان بن ثابت :

بالحينُ منهم جعفرٌ وابنُ أمه عليٌّ ومنهم أحمدُ التخيّرُ

يعنى : بنى هاتم . ومن كلام العرب ربيعة ومضر وقيس وخندف وسلم وعامر . وأصحاب نافع بن الأزرق هم ذوو الحَدِّ والجدِّ ، وهم الذين أحاطوا بالبصرة حتى ترحل أكثر أهلها منها ، وكان الباقون على الترحل ، فقلد المهلب حُرَّهم ، فزهمهم إلى الفرات ، ثم هزمهم إلى الأهواز ، ثم أخرجهم عنها إلى فارس ، ثم أخرجهم إلى كرمان . وفي ذلك يقول شاعرٌ منهم في هذه الحرب التي صاحبها صاحبُ الزنج بالبصرة ، يوتي البلد ، ويذكر المنقة التي كانت لهم . قال الأخفش : أنشدني يزيدُ المهلبُ لنفسه :

سقى الله مصرًا خف أهله من مصر	وماذا الذي يبقى على عُقب الدهر
ولو كنت فيه إذ أبيح حريمه	لثُ كريباً أو صدرت على عنبر
أبيح فلم أملك له غير عجرة	تُهب بها أن حاربت لوعة الصدر
ونحن رددنا أهلها إذ ترحلوا	وقد مُنظمت خيل الأزارق بالجر
ومن يَحش أطراف المنايا فإنا	لبنا لمن السباغات من الصبر
فإن كربه الموت عذبٌ مذاقه	إذا ما مزجناه بطيب من الذكر
وما رزق الانسان مثل منية	أراحت من الدنيا ولم تحز في القبر

وفي هذا الشعر يقول :

ليشكر بنو العباس نعمى تجددت	فقد وعد الله المزيد على الشكر
لقد جنتكم أسرةٌ حددتكم	فلت على الإسلام سيفاً من الكفر
وقد نغصتكم جولة بعد جولة	يبيتون فيها المسلمين على ذعر

وقال عبد الله بن قيس الرقيات :

ألا طرقت من أهل تيبة طارقة	على أنها معشوقة الدل عاشقة
تيت وأرض السوس بيني وبينها	وسولاف رُستاق حمة الأزارقة
إذا نحنُ شفتنا صادقنا عصابة	حرورية أضحت من الدين مارة

وكان مقدارُ من أصاب عليَّ صلوات الله عليه منهم بالتهروان ألفين وثمان مائة ، في أصح الأقاويل ، وكان عددهم ستة آلاف ، وكان منهم بالكوفة

زهاء ألفين من مُيسرٍ أمره ولم يشهر الحرب ، فخرج منهم رجلٌ بعد أن قال عليٌّ رضوان الله عليه : ارجعوا وادفعوا إلينا قاتل عبد الله بن خُثَّابٍ ، فقالوا : كلُّنا قتلهُ وشريك في دمه ! ثم حل منهم رجلٌ على صفِّ عليٍّ ، وقد قال عليٌّ : لا تبذروهم بقتالٍ ، فقتل من أصحاب عليٍّ ثلاثة وهو يقول : اقتلهم ولا أرى عليًّا ولو بدا أو جرئتُه الخطيًّا

فخرج إليه عليٌّ صلوات الله عليه فقتله ، فلما خالطه السيفُ قال : حبنا الروححةُ إلى الجنة ، فقال عبد الله بنٌ وهبٍ : ما أذري إلى الجنة أم إلى النار ؟ فقال رجلٌ من بني سعدٍ : إنما حضرتُ اغتراراً بهذا ، وأراه قد شك!! فانخزل بجماعة من أصحابه ، ومال ألفٌ إلى ناحية أبي أيوب الأنصاري ، وكان رحمة الله على ميمنة عليٍّ ، وجعل الناسُ يتسلَّون، وقد قال عليٌّ ، وقيل له : إنهم يريدون الجسر ، فقال : لن يبلغوا النطفة ، وجعل الناسُ يقولون له في ذلك ، حتى كادوا يشكُّون ، ثم قالوا : قد رجعوا بأمر المؤمنين ، فقال : والله ما كذبتُ ولا كذبتُ ، ثم خرج إليهم في أصحابه ، وقد قال لهم : إنه والله ما يُقتلُ منكم عشرةٌ ، ولا يُفقتُ منهم عشرةٌ ، فقتل من أصحابه تسعة ، وأفلت منهم ثمانية .

قال أبو العباس: وقيل: أولُ من حكم ولفظ بالحكومة ولم يُشدَّ بها رجلٌ من بني سعد بن زيد مناة بن تميم بن مُرَّةٍ ، من بني صريمٍ ، يقال له الحجاج بن عبد الله ، ويُعرفُ بالبرك ، وهو الذي ضرب معاوية على أليته ، فإنه لما سمع بذكر الحكمين قال : أيحكمُ في دين الله ؟ لاحكم الله ! فسمعه سامعٌ فقال : طعن والله فأقتله .

وأولُ من حكم بين الصفتين رجلٌ من بني يشكر بن بكر بن وائلٍ ، فإنه كان في أصحاب عليٍّ ، فحمل على رجلٍ منهم فقتله غيلةً ، ثم مرق بين

الصفين فكم ، وحمل على أصحاب معاوية ، فكتروه ، فرجع الى ناحية عليّ صلوات الله عليه ، فحمل على رجل منهم ، فخرج إليه رجل من همدان فقتله ، فقال شاعرٌ همداني :

ما كان أغنى اليشكري عن التي تصلى بها جبراً من النار حايا
غداة يُنادي والرماحُ تنوشه خلعتُ علياً بادياً ومعاويا
وجاء في الحديث ، ان علياً رضي الله عنه تليّ بحضرته : (قل هل
منبئكم بالأخسرين أعمالاً ، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون
أنهم محسنون صنعا) فقال عليّ : أهل حروراة منهم

وروي عن عليّ صلوات الله عليه : انه خرج في غداة يُوقظُ الناس للصلاة
في المسجد ، فرأى جماعة يتحدثون ، ، فلمّ وسلموا عليه ، فقال وقبض على
لحيته : ظننتُ أن فيكم أسقلعا ، الذي يُخضبُ هذه من هذه . وأوماً بيده إلى
هامته ولحيته .

ومن شعر عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين الذي لا اختلاف فيه أنه قاله ،
وأنه كان يُردّده : أنهم لما ساموه أن يُقر بالكفر ويتوب حتى يسيروا معه إلى
الشام ، فقال : أبعدُ صحبة رسول الله ﷺ والتفقه في الدين أرجع كافراً ؟!
بشاهد الله عليّ فاشهد أني على دين النبي أحمد
من شك في الله فإنني مهتدي

ويروى : أتني توليت وليّ أحمد

ويروى : « أن رجلاً أسود شديد بياض الثياب وقف على رسول الله ﷺ
وهو يقسم غنائم خيبر ، ولم تكن إلا لمن شهد الحديبية فأقبل ذلك الأسود على
رسول الله ﷺ ، فقال : ما عدت منذُ اليوم أفضب رسول الله ﷺ حتى
روّي الغضب في وجهه . فقال عمر بن الخطاب : ألا أقتله يا رسول الله ؟ فقال
رسول الله : إنه سيكون لهذا ولأصحابه نأ » .

وفي حديث آخر : « أن رسول الله ﷺ قال له ويحك ! فمن يعدل إذا لم أعدل ؟ » ثم قال لأبي بكر : اقله ، فضى ثم رجع ، فقال : يا رسول الله ! رأيته راكعاً ، ثم قال لعمر : اقله ، فضى ثم رجع ، فقال يا رسول الله ! رأيته ساجداً ، ثم قال لعلي : اقله ، فضى ثم رجع ، فقال : يا رسول الله ! لم أرده ، فقال رسول الله : لو قتل هذا ما اختلف اثنان في دين الله .

قال أبو العباس : وحدثني إبراهيم بن محمد التيمي قاضي البصرة في إسناده ذكره : « أن علياً رضي الله عنه وجهه إلى رسول الله ﷺ بنهجه من اليمن ، فقسما أرباعاً ، فأعطى ربعاً للأقرع بن حابس المجاشعي ، وربعاً لزيد الحنظلي الطائي ، وربعاً لعينة بن حصن الفزاري ، وربعاً لعلقمة بن علاثة الكلبي فقام إليه رجل مضطرب الخلق ، غائر العينين ، فائق الجبهة ، فقال له : لقد رأيت قسمة ما أريد بها وجه الله !! فغضب رسول الله ﷺ حتى تورد خدها ، ثم قال : أيا مني الله عز وجل على أهل الأرض ولا تأمنوني ؟ فقام إليه عمر فقال : ألا أقتله يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : انه سيكون من ضئضئ هذا قوم يرقون من الدين كما يرق السهم من الرمية ، تنظر في النصل فلا ترى شيئاً ، وتنظر في الرصاص فلا ترى شيئاً ، وتبأرى في الفوق . »

قوله ﷺ « من ضئضئ هذا » أي : من جنس هذا . يقال : فلان من ضئضئ صدقي ، ومن متحد صدقي ، وفي مركب صدقي . وقال جرير للحكم بن أيوب بن الحكم بن أبي عقيل ، وهو ابن عم الحجاج ، وكان عامه على البصرة :

أقبلن من ثلجان أو وادي خيم على قلاص مثل خيطات السلم
إذا قطعن علماً بدا علم حتى أختلعا إلى باب الحكم
خليفة الحجاج غير المتهم في ضئضئ المجد ومجروح الكرم

ويقال « مرق السهم من الرمية » إذا نفذ منها وأكثر ما يكون ذلك ان

لا يعلق به من دمها شيء ، وأقطع ما يكون السيف إذا سبق الدم . قال امرؤ
القيس بن عابس الكندي :

وقد أختلس الضرب ة لا يدمي لها نصلي

فأما ما وضعه الأصمعي في كتاب الاختيار فعلى غلطٍ وضع . وذكر
الأصمعي أن الشعر لإسحق بن سويد الفقيه ، وهو لأعرابي لا يعرف المقالات
التي عيل إليها أهل الأهواء ، أنشد الأصمعي :

برئت من الخوارج لست منهم من الغزّال منهم وابن باب
ومن قومٍ إذا ذكروا علياً يردّون السلام على السحاب
ولكني أحبُّ بكلّ قلبي وأعلم أن ذاك من الصواب
رسول الله والصدّيق حبّاً به أرجو غداً حسن الثواب

فإنّ قوله « من الغزّال منهم » يعني واصل بن عطاء ، وكان يكنى أبا حذيفة ،
وكان معتزلاً ، ولم يكن غزّالاً ، ولكنه كان يلقّب بذلك ، لأنّه كان يلزم
الغزّالين ، ليعرف المتعقّبات من النساء ، فيجعل صدقته لمنّ ، وكان طويل
العنق . ويروى عن عمر بن عبيد ، أنه نظر إليه من قبل أن يكلمه ، فقال :
لا يفلح هذا ما دامت عليه هذه العنق !

وقال بشار بن بردٍ يهجو واصل بن عطاء :

ماذا منيت بغزّالٍ له عنقٌ كتبتك الدوْءُ إن ولي وإن مثلاً
عنق الزرافة ما بالي وبالكم تكفّرون رجلاً أكفروا رجلاً
ويروى ، لا بلّ كأنه لا يشكّ فيه : إن بشاراً كان يتعصّب لئنار على
الأرض ، ويصوّب رأي إبليس - لعنه الله - في امتاعه من السجود لآدم عليه
السلام ، ويروى له :

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

فهذا ما يرويه المتكلمون .

وقته أمير المؤمنين المهدي على الإلحاد . وقد روى قوم أن كنبه فقتل فلم يصب فيها شيء مما كان يرمى به ، وأصيب له كتاب فيه : إني أردت هجاء آل سليمان بن علي ، فذكرت قربانهم من رسول الله ﷺ فأمسكت منهم إلا اتي قلت :

دينار آل سليمان ودرهمهم
لا يرجيان ولا يرجي نوالهما
كما سمعت جلهوت وماروت
كبابلين حفا بالعقاروت

وحدثني المازني قال : قال رجل لبشار : أأكل اللحم وهو مبين لديانتك ؟ يذهب به إلى أنه ثوي ! قال : فقال بشار : ليسوا يدرون أن هذا اللحم يدفع عني شر هذه الظلمة .

وكان واصل بن عطاء أحد الأعاجيب ، وذلك أنه كان ألغ قبيح اللغفة في الراء ، فكان يخلص كلامه من الراء ، ولا يفتن بذلك ، لا قدره وسهولة ألفاظه . ففي ذلك يقول شاعر من المعتزلة ، يمدحه بإطالته الخطب واجتبابه الراء ، على كثرة ترددها في الكلام ، حتى كأنها ليست فيه :

علم يبادل الحروف وقامع
لكل خطيب يغلب الحق باطله
وقال آخر :

ويجعل البر قعاً في تصرفه
وخالف الراء حتى احتال للشعر
ولم يطق مطراً والقول يعجله
فعاذ بالغيث إشفاقاً من المطر

وما يحكى عنه قوله ، وذكر بشاراً : أما لهذا الأعمى المكتني بأبي معاذ من يقاتله ؟! أما والله لولا أن الغيلة خلق من أخلاق الغالية لبعث إليه من يبعث بطنه على مضجعه ، ثم لا يكون إلا سدوساً أو عقلياً .

فقال « هذا الأعمى » ولم يقل بشاراً ، ولا ابن برز ، ولا الضرير وقال « من أخلاق الغالية » ولم يقل المغيرة ، ولا المنصورية . وقال « لبعثنا إليه » ولم يقل لأرسلت إليه . وقال « على مضجعه » ولم يقل على فراشه

ولا مرقده . وقال « يعج » ولم يقل يعقر . وذكر « بني عجل » لأن
 بشراً كان يتوالى إليهم . وذكر « بني سدوس » لأنه كان نازلاً فيهم .
 واجتنب الحرف شديد .

قال : ولما سقطت ثيابا عبد الملك بن مروان في الطست قال : والله لولا
 الحطبة والنساء ما حلفت بها .

قال : وخطب الجمعي ، وكان متزوع إحدى الثنيتين ، وكلف يصر
 إذا تكلم ، فأجاد الحطبة ، وكانت لتكسر ، فرد عليه زيد بن علي بن الحسين
 كلاماً جيداً ، إلا أنه فضله بتمكن الحروف وحسن مخارج الكلام ، فقال عبد
 الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر يذكر ذلك .

صعّت مخارجها وتم حروفها فله بذلك مزية لا تتكرر
 « المزية » القضية .

وأما قوله « وابن باب » فإنه ، عمرو بن عبيد بن باب ، وكان موثق
 بني العدوية ، من بني مالك بن حنظلة ، فهذان معتزليان ، وليسا من الخوارج ،
 ولكن قصد إسحق بن سويد إلى أهل البدع والأهواء ، إلا تراه ذكر الرافضة
 معها ، فقال :

ومن قوم إذا ذكروا علياً أشاروا بالسلام على السحاب
 ويروى : يركعون السلام على السحاب

★ ★ ★

ثم نرجع إلى ذكر الخوارج .

قال أبو العباس : فلما قتل علي بن أبي طالب أهل النهران ، وكان بالكوفة
 زهاء ألفين من الخوارج ، ممن لم يخرج مع عبد الله بن وهب ، وقوم ممن
 استأنى إلى أبي أيوب الأنصاري : فجمعوا وأمرُوا عليهم رجلاً من طيوس ،

فوجهٌ لإنهم عليٌّ حلوات الله عليه رجلاً ، وهم بالثنية ، فدعاهم ووقف بهم ، فأبوا ، فعادهم فأبوا ، فقتلوا جميعاً . فخرجت طائفةٌ منهم نحو مكة ، فوجهٌ معاويةٌ من يقيم للناس حجّهم ، فتناوشه هؤلاء الخوارجُ ، فبلغ ذلك معاويةَ فوجهه بسر بن أرطاة ، أحد بني عامر بن لؤي ، فتوافقوا وتراضوا بعد الحرب بأن يصلي بالناس رجلٌ من بني شيبه ، ثلاثاً يفوت الناس الحج ، فلما انقضى نظرت الخوارجُ في أمرها ، فقالوا : إن علينا ومعاويةَ قد أفسدا أمر هذه الأمة ، غرقتناهم لعاد الأمر إلى حقه ! وقال رجلٌ من أشجع : والله ما عمرو دونها وإنه لأصلُ هذا الفساد . فقال عبدُ الرحمن بن ملجم المرامي لعنه الله عليه : أنا أقتلُ علياً ، فقالوا : وكيف لك به ؟ قال : أغتاله ، قال الجعاج بن عبد الله الصريمي ، وهو البرك : وأنا أقتلُ معاويةَ . وقال زاذويه مولى بني العنبر بن عمرو بن عيمر : وأنا أقتلُ عمراً . فأجمع رأيهم على أن يكون قتلهم في ليلةٍ واحدةٍ ، فبعثوا تلك الليلةَ ليه إحدى وعشرين من شهر رمضان ، فخرج كلُّ واحدٍ منهم إلى ناحيةٍ ، فأتى ابن ملجم الكوفةَ ، فأخفى نفسه وتزوج امرأةً يقالُ لها قطام بنتُ علقمة من تيم الرّباب ، وكلّمت ترى رأي الخوارج ، والأحاديثُ تختلفُ ، وإنما يؤثّرُ صحيحها ، ويروى في بعض الأحاديث أنها قالت : لا أقتعُ منك إلا بصدقي أسبغ لك ، وهو ثلاثةُ آلاف درهمٍ ، وعبدٌ وأمةٌ ، وإن تقتل علياً ! فقال لها : لك ما سألت ، فكيف لي به ؟ قالت : تروم ذلك غيلةً ، فإنّ سببت أرحمت الناس من شرّ ، وأمت مع أهلك ، وإنّ أصبت سرت إلى الجنة ونعيم لا يزول ! فأنعم لها بذلك . وفي ذلك يقول :

ثلاثةُ آلافٍ وعبدٌ وقينةٌ وضرب عليّ بالحسام المصم

فلا سهر أغلّ من عليٍّ وإن غلا ولا تترك إلادون قتلك ابن ملجم

قال أبو العباس : وقد ذكروا أن القاصد إلى معاوية يزيد بن ملجم والقاصد إلى عمرو وآخر من بني ملجم ، وأن أباهم نهم ، فلما عصوه قال : استعدوا للموت ، وأن أهمهم حشيتهم على ذلك . والخبر الصحيح ما ذكرت لك أول مرة .

فأقام ابن ملجم ، فيقال : أن امرأته قطام لامته ، وقالت : ألا تخفي لما قصدت له ؟ لقد ما أحيت أمك ! قال : إني قد وعدت صاحبي وقتاً بعينه . وكلف هنالك رجلاً من أشجع ، يقال له شيب ، فواطأه عبد الرحمن .

ويروى : أن الأشعث نظر إلى عبد الرحمن متقلداً سيفاً في بني كندة ، فقال : يا عبد الرحمن ، أرتي سيفك ، فأراه إياه ، فرأى سيفاً حديداً ، فقال : ما تقلدك هذا السيف وليس بأوان حرب ؟ فقال : إني أردت أن أغر به جزور القرية ! فركب الأشعث بغلته وأتى علياً صلوات الله عليه فغبره ، وقال له : قد عرفت بسالة ابن ملجم وقتكه فقال علي : ماقتني بعد !!

ويروى : أن علياً رضوان الله عليه كان يخطب مرةً ويذكر أصحابه ، وابن ملجم تلقاه المنبر ، فسمع وهو يقول : والله لأرجمنكم منك ! فلما انصرف علي صلوات الله عليه إلى بيته أتى به ملباً ، فأشرف عليهم ، فقال : ما تريدون ؟ فغبروه بما سمعوا ، فقال : ماقتني بعد . فظفروا عنه

ويروى : أن علياً كان يتمثل إذا رآه بيت عمرو بن معدي كرب في قيس بن مكشوح المرادي ، والمكشوح هيرة ، وإنما سمي بذلك لأن ضرب على كسحه :

أريد جباه ويريد قتلي عنبرك من خيلك من مراد فينتني من ذلك ، حتى أكثر عليه ، فقال له المرادي : إن قضى شيء كان . فقيل لعلي : كأنك قد عرقت وعرفت ما يريد بك ، أفلا تقتله ؟ فقال : كيف أقتل قاتلي ؟ !

فلما كان ليلة إحدى وعشرين من شهر رمضان ، خرج ابن ملجم وشيب الأشجعي ، فاعتبرا الباب الذي يدخل منه علي رضي الله عنه ، وكلف علي يخرج مغلاً ، ويوقظ الناس للصلاة ، فخرج كما كلف يفعل ، فغبره شيب

فخطاه ، وأصاب سيفه الباب ، وضربه ابن ملجم على صلته ، فقال علي :
 قرئت ورب الكعبة ، شأنكم بالرجل . فبرئ عن بعض من كان بالمسجد من
 الأنصار قال : سمعت كلمة علي ، ورأيت برق السيف . فأما ابن ملجم
 فحمل على الناس بسيفه فأفروا له ، وتلقاه المغيرة بن نوفل بن الحرث بن عبد
 المطلب بقطيعة ، فرمى بها عليه ، واحتمله فضرب به الأرض ، وكان المغيرة
 أبداً ، فقعده على صدره . وأما شبيب فانتزع السيف منه وجل من حرموت ،
 وصرعه وقعد على صدره . وكثر الناس ، ففعلوا يصيحون : عليكم صاحب
 السيف ، فخاف الحضرمي أن يكتبوا عليه ولا يسموا عذره ، فرمى بالسيف ،
 وانسل شبيب بين الناس . فدخيل ابن ملجم على علي رضي الله عنه ، فأومر
 فيه ، فاختلف الناس في جوابه ، فقال علي : إن أغش فالأمر لي ، وإن
 أصب فالأمر لكم ، فإن أتتكم أن تقتصوا ضربة بضربة ، وأن تعفوا أقرب
 فتعفو . وقال قوم : بل قال : وإن أصبت فاضربوه ضربة في قتله .
 فأقام علي يومين ، فسمع ابن ملجم الرنة من الدار ، فقال له من حضره .
 أي عدو الله : إنه لا بأس على أمير المؤمنين ، فقال : أعلى من تبكي أم كلثوم ؟
 أعلي ؟ أما والله لقد اشتريت سيفي بألف درهم ، وما زلت أعرضه ، فما بيعه
 أحداً إلا أصلحت ذلك العيب ، ولقد أسقته السم حتى لفظه ، ولقد ضربته
 ضربة لو قسمت على من بالشرق لأنت عليهم . ومات علي صلوات الله ورضوانه
 عليه ورحمته في آخر اليوم الثالث ، فدعا به الحسن رضي الله عنه ، فقال : إن
 لك عندي سرّاً ! فقال الحسن رضي الله عنه : أتدرون ما يريد ؟ يريد أن
 يقرب من وجهي فيعض أدنى فيقطعها ، فقال : أما والله لو أمكنتني منها
 لاقتلته من أصلها ! فقال الحسن : كلا والله ، لأضربنك ضربة تؤدبك إلى
 النار ، فقال : لو علمت أن هذا في يديك ما اتخذت إلهاً غيرك ، فقال عبد الله
 ابن جعفر : يا أبا محمد ، ادفعه إلي أسف نفسي منه . فاختلفوا في قتله ، فقال
 قوم : أحس له ميلين وكلمه بها ، ففعل يقول : إنك يا ابن أخي لتكحل
 عمك ببلولين مضاضين ، وقال قوم : بل قطع يديه ورجليه ، وهو في ذلك

يذكر الله عز وجل ، ثم حمد إلى لسانه ، فشق ذلك عليه ، فقيل له : لم تجزع من قطع يدك ورجليك ونراك قد جزعت من قطع لسانك ؟ فقال : نعم ، أحببت أن لا يزال في يدي بذكر الله رطباً ، ثم قتله .

ويروى : أن علياً رضي الله عنه أتى بآن ملجئ وقيل له إننا قد سمعنا من هذا كلاماً فلا نأمن قتله لك ؟ فقال : ما أصنع به ؟ ثم قال عليّ رضوان الله عليه :

اشدّ حيازيمك للموت فإن الموت لا ييك
ولا تجزع من الموت إذا حل بواديك
والشعر لما يصح بأن تحذف و اشدّ ، فتقول :
حيازيمك للموت فإن الموت لا ييك

ولكن الفصحاء من العرب يزيدون ما عليه المعنى ، ولا يعتدون به في الوزن ، ويحذفون من الوزن ، علماً بأن المخاطب يعلم ما يزيدونه ، فهو إذا قال « حيازيمك للموت » فقد أضمر « اشدّ » فأظهره ، ولم يعتد به . وقال : وحدثني أبو عثمان المازني قال : فصحاء العرب ينشدون كثيراً :

لسعد بن الضباب إذا غدا أحب إلينا منك فافرس حرّاً
ولما الشعر : لعمرى لسعد بن الضباب إذا غدا

• • •

وأما الجعاج بن عبد الله الصريمي - وهو البرك - ، فإنه ضرب معاوية مصلاً فأصاب ما كتبه ، وكان معاوية عظيم الأوزار ، فقطع منه عرقاً يقال أنه عرق النكاح ، فلم يولد لمعاوية بعد ذلك ولد ، فلما أخذ قال : الأمان والبشارة ، قتل عليّ في هذه الصيحة ، فاستؤني به حتى جاء الخبر ، فقطع معاوية يده ورجله ، فأقام بالبصرة ، فبلغ زبداً أنه قد ولد له ، فقال : أيرلد له وأمير المؤمنين لا يولد له ، فقتله . هذا أحد الخبرين .

ويروى : أن معاوية قطع يديه ورجليه ، وأمر باتخاذ المقصورة ، فقيل لابن عباس بعد ذلك : ما تأويل المقصورة ؟ فقال : يخافون أن يهظم الناس .

وأما زاذويه : فإنه أُرصد لعمره ، واشتكى عمره بطنه ، فلم يخرج للصلاة ،
 وخرج إلى الصلاة خارجة ، وهو رجلٌ من بني سَهْم بن عمرو بن هِصْنِصِر ،
 رَهط عمرو بن العاص ، فضربه زاذويه فقتله ، فلما دخل به على عمرو فرأهم
 يخاطبونه بالإمرة قال : أو ما قُلتَ عمرًا ؟ قيل : لا ، إنما قُلتَ خارجة ،
 فقال : أردتَ عمرًا واثه أراد خارجة .

* * *

وقال أبو زيد الطائي يروي علي بن أبي طالب صلوات الله عليه :
 إن الكرام على ما كان من خلق رَهط أسرى خارَه للدين يختار
 طبٌ بصيرٌ بأضغان الرجال ولم يعدلٌ بحبر رسول الله أخبار
 وقطرة قطرت إذ حان موعدا وكل شيء له وقتٌ ومقدار
 حتى تصلها في مسجدٍ طهر على إمام هدى إن معشرٌ جاروا
 حمتٌ ليدخل جنات أبو حسن وأوجبته بعده للقاتل النار
 قوله « خارَه » إنما هو : اختاره ، وهو « فعله » و « اختاره » « افتعله »
 كما تقول : قدر عليه واقتدر عليه .

وقوله « بصيرٌ بأضغان الرجال » ، فهي أسرارها ومخباتها . قال الله تعالى :
 (فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم) . و « الحبر » العالم . ويروى ابن علياً
 رضوان الله عليه مر يهودي يسأل مسلماً عن شيء من أمر الدين ، فقال له علي :
 اسألني ودع الرجل ، فقال له : يا أمير المؤمنين ! أنت حبرٌ ، أي : عالمٌ ،
 قال علي : أن تسأل عالماً أجدى لك .

وقوله « حتى تصلها » يريد : استخرجها .

وقوله « حمت » معناه قدرت .

قال الكمي :

والومي الذي أمال للتجرب يُّ به عرش أمةٍ لانهدام

قتلوا يوم ذاك إذا قتلوه حكما لا كغلو الحكماء
الإمام الزكي والفارس المعز لم تحت المعجاج غير الكهام
راعياً كان منجاً ففقدنا وفقد السيم هلك السوام

قوله « الوصي » فهذا شيء كانوا يقولونه ويكثرون فيه . قال ابن
قيس الرقيات :

نحن منا النبي أحمد والصديق ق منا التقي والحكماء
وعلي وجعفر ذو الجناح ن هناك الوصي والشهداء

وقال كثير لما حبس عبد الله بن الزبير محمد بن الحنفية في خة عشر
رجلاً من أهل في سجن عارم :

متحير من لاقيت أنك عائد بل المائد المحبوس في سجن عارم
وصي النبي المصطفى وابن عمه وفكأك أعناق وقاضي مغارم
أراد : ابن وصي النبي ، والعرب تقيم المضاف إليه في هذا الباب مقام
المضاف ، كما قال الآخر :

صحن من كاطمة الحص الحرب يحملن عباس بن عبد المطلب
يريد : ابن عباس رضي الله عنه ، وقال الفرزدق لسلطان بن عبد الملك :
ورثم ثياب المجد فهي لبوسكم عن ابن مناف عبد شمس وهاشم
يريد : ابني عبد مناف .

وقال أبو الأسود :

أحب محمدًا حباً شديداً وعباساً وحمزة والوصي
أحبهم لحب الله حتى أجيء إذا بعثت على هوي
هوى أعطيت منذ استدارت رعى الإسلام لم يعدل سوي

« السوي » و« السواء » الذي قد سوى الله خلقه ، لا زمانة به ولا
داء . وفي القرآن : (بشراً سويًا) . وتقول : ساويت ذاك بهذا الأمر ،

أي : جعلك مثلاً له .

يقول الأثرظون بنو قشير طوال الدهر ما تنسى علياً
بنو عسم النبي وأقربوه أحب الناس كلهم إلينا
فإن يك جهم رشداً أحب وليس بخطيء إن كان غياً
ويروى : ولست ، وكان بنو قشير عتائفة ، وكان أبو الأسود نازلاً
فيهم ، فكانوا يرمونه بالليل ، فإذا أصبح شكا ذلك ، فشكاه مرة ، فقالوا
له : ما نحن ترميك ، ولكن الله يرميك ! فقال : كذبتم والله ، لو
كان الله يرميني لما أخطاني .
قال : وكان نقش خاتمه :

يا غالي حسبك من غالب ارحم علي بن أبي طالب
وقوله : غير الكهام ، فالكهام : الكلبل من الرجال والسيوف ، يقال
سيف كهام . وقوله :

« راعياً كان مسيحاً فقدنا » وفقد المسيح هلك السوام ،
فالسيم : الذي يسم إبله أو غنمه ترعى ، وكذلك كل شيء من الماشية ،
فجعل الراعي للناس كصاحب الماشية الذي يسمها ويسوسها ويصلحها ، ومتى لم
يُرجع أمر الناس إلى واحد فلا نظام لهم ، ولا اجتماع لأموالهم . قال ابن
قيس الرقيات :

أما المشهي فناء قريش بيد الله عمرها والفناء
إن نودع من البلاد قريش لا يكن بعدم لمحي بقاء
لو تقفني ويترك الناس كانوا غم الذئب غاب عنها الرعاء
وقال الحميري يعني علياً رضوان الله عليه :

كان المسيم ولم يكن إلا لمن لزم الطريقة واستقام مسياً
ولما سمع علي صلوات الله عليه نداهم « لاحقاً إلا لله » قال : كلمة عادة
يراد بها جور ، إنما يقولون لا إمارة ، ولا بد من إمارة ، برة أو فاجرة .

* * *

وروي أن علياً عليه السلام لما أوصى إلى الحسن في وقف أمواله وأن يحمل فيها ثلاثة من مواله وقف فيها عين أبي نيزر والبغيفة . وهذا غلط ، لأن وقفه لذين الموضعين لستين من خلافة .

قال أبو العباس : حدثنا أبو عليم محمد بن هشام في إسناده ذكره آخره أبو نيزر ، وكان أبو نيزر من أبناء بعض ملوك الأعاجم ، قال : وصح عندي بعد أن أنه من ولد النجاشي ، (يعني أبا نيزر) ، فرغب في الإسلام صغيراً ، فأتى رسول الله ﷺ فأسلم ، وكان معه في بيوته ، فلما توفي رسول الله صار مع فاطمة وولدها عليهم السلام ، قال أبو نيزر : جاءني علي بن أبي طالب ، أمير المؤمنين ، وأنا أقوم بالضيعتين : عين أبي نيزر والبغيفة ، فقال لي : هل عندك من طعام ؟ فقلت : طعام لا أرضاه لأمر المؤمنين ، قرع من قرع الضيعة صنعتها يهاالة نسخة ، فقال : علي به ، فقام إلى الربيع ، وهو جدول ، ففصل يديه ، ثم أصاب من ذلك شيئاً ، ثم رجع إلى الربيع ، ففصل يديه بالرمل حتى أنقاهما ، ثم ضم يديه كل واحدة منها إلى أختها ، وشرب بهما محاً من ماء الربيع ، ثم قال : يا أبا نيزر ! إن الأكف أنظف الآنية ، ثم مسح ندى ذلك الماء على بطنه ، وقال : من أدخله بطنه النار فأبعده الله ، ثم أخذ المعول وانحدر في العين ، فجعل يضرب ، وأبطأ عليه الماء ، فخرج وقد تفضج جبينه عرقاً ، فأتكف العرق عن جبينه ، ثم أخذ المعول وعاد إلى العين ، فأقبل يضرب فيها وجعل يهيمهم فائتالت كأنها عتق جزور ، فخرج مسرعاً ، فقال أشهد الله أنها صدقة ، علي بدواة وصحيفة قال : ففعلت بها إليه ، فكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما تصدق به عبد الله علي أمير المؤمنين ، تصدق بالضيعتين المروقتين بعين أبي نيزر والبغيفة ، على فقراء أهل المدينة وابن السبيل ، ليقى الله بها وجهه حر النار يوم القيامة ، لاتباعاً ولا توباً ، حتى يورثها الله وهو خير الوارثين ، إلا أن يحتاج إليها الحسن أو الحسين فما يطلق لهما ، وليس لأحد غيرهما . قال محمد بن هشام : فركب الحسين رضي الله عنه درين ، فحمل إليه معاوية بعين أبي نيزر مائتي ألف دينار ، فأبى أن يبيع ،

وقال : إنما تصدق بها أبي ليعي الله بها وجهه حرّ النار ، ولست بأثمةا بشيء .
وتحدث الزبيريون : أن معاوية كتب إلى مروان بن الحكم ، وهو والي
المدينة : أما بعد ، فإن أمير المؤمنين أحب أن يرد الألفة ، ويسل السخيمة ،
ويصل الرحم ، فإذا وصل إليك كتابي هذا فاطلب إلى عبد الله بن جعفر ابنته
أم كلثوم على يزيد بن أمير المؤمنين ، ولوغب له في الصداق ، فوجه مروان
إلى عبد الله بن جعفر ، فقرأ عليه كتاب معاوية ، وأعلمه بما في ردّ الألفة من
صلاح ذات البين ، واجتماع الدعة ، فقال عبد الله : إن خالها الحسين ينبغي ،
وليس من يفتات عليه بأمر ، فأنظرني إلى أن يقدم ، وكانت أمها زينب بنت
علي بن أبي طالب صلوات الله عليه ، فلما قدم الحسين ذكر ذلك له عبد الله
ابن جعفر ، فقام من عنده فدخل إلى الجارية ، فقال : يا بني ! إن ابن عمك القاسم
ابن محمد بن جعفر بن أبي طالب أحق بك ، ولعلك ترغين في كثرة الصداق
وقد غفلتك البخيفات ، فلما حضر القوم للإملاك تكلم مروان بن الحكم ،
فذكر معاوية وما قصده من صلة الرحم وجع الكلمة ، فتكلم الحسين فزوجها من
القاسم بن محمد فقال له مروان : أغدراً يا حسين ؟ ! فقال : أنت بدأت ،
خطب أبو محمد الحسن بن علي عليه السلام عائشة بنت عثمان بن عفان ، واجتمعنا
لذلك ، فتكلمت أنت فزوجتها من عبد الله بن الزبير ، فقال مروان : ما كان
ذلك ، فالتفت الحسين إلى محمد بن حاطب فقال : أنشدك الله ، أكان ذاك ؟
قال : اللهم نعم . فلم رزل هذه الضيعة في يدي بني عبد الله بن جعفر ، من
ناحية أم كلثوم ، يتوارثونها ، حتى ملك أمير المؤمنين المأمون ، فذكر ذلك
له ، فقال كلا ، هذا وقف علي بن أبي طالب صلوات الله عليه ، فانتزعها من
أيديهم ، وعرضهم عنها ، وردّها إلى ما كانت عليه .

• • •

قال أبو العباس : وجع الحديث إلى ذكر الحواجز وأمر علي بن
أبي طالب .
قال : وروى أن علياً في أول خروج القوم عليه دعا صمصمة بن صوحان

العبدى ، وقد كان وجهه إليهم ، وزاد بن النضر الحارثي مع عبد الله بن العباس ، فقال لصعصعة : بأي القوم رأيتم أشد إطفاءً ؟ فقال : ييزيد بن قيس الأرحبي ، فركب عليّ إليهم إلى حروراء ، فجعل يتظلمهم ، حتى صار إلى مضرب يزيد بن قيس ، فصلى فيه ركعتين ، ثم خرج فاتكأ على قوسه ، وأقبل على الناس ، ثم قال : هذا مقام من فليج فيه فليج يوم القيامة ، أنشدكم الله ، أعلمكم أحداً منكم كان أكره للحكومة مني ؟ قالوا : اللهم لا ، قال : أفعلتم أنكم أكرهتموني حتى قبلتها ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : فعلام خالفتموني وناذبوني ؟ قالوا : إننا أتينا دنبا عظيماً ، فتبنا إلى الله ، فتب إلى الله منه واستغفره نعد لك ؟ فقال عليّ : إني أستغفر الله من كل ذنب ، فرجعوا معه ، وهم ستة آلاف . فلما استقرؤا بالكوفة أسأعوا أن علياً رجع عن التحكيم ورآه ضلالاً ، وقالوا : إنا ينتظر أمير المؤمنين أن يسن الكراع ويحيى المال فينفض إلى الشام ، فأتى الأشعث بن قيس علياً عليه السلام فقال : يا أمير المؤمنين ! إن الناس قد تحذثوا أنك رأيت الحكومة ضلالاً والإقامة عليها كفرأ !! فخطب عليّ الناس فقال : من زعم أنني رجعت عن الحكومة فقد كذب ، ومن رآها ضلالاً فهو أضل ، فخرجت الحوارج من المسجد ، فحكمت ، فقيل لعليّ : إنهم خارجون عليك ، فقال : لا أقاتلهم حتى يقاتلوني ، وسيفعلون ، فوجه إليهم عبد الله بن العباس ، فلما صار إليهم رجوا به وأكرموه ، فرأى منهم جبلاً قرحة لطول السجود ، وأيدياً كثفنت الإبل ، وعليهم قص مرحضة ، وهم مشمرون ، فقالوا : ما جاء بك يا أبا العباس ؟ فقال : جئتكم من عند صهر رسول الله ﷺ وابن عمه ، وأعلمنا بربه وسنة نبيه ، ومن عند المهاجرين والأنصار ، قالوا : إننا أتينا عظيماً حين حكمتنا الرجال في دين الله ، فإن تاب كما تبنا ونهض لمجاهدة عدونا رجعنا ، فقال ابن عباس : نشدتكم الله إلا ما صدقتم أنفسكم ! أما علمتم أن الله أمر بتحكيم الرجال في أمر رب تساو يربح درهم تصاد في الحرم ، وفي شقاق رجل وامراته ؟ فقالوا : اللهم نعم ، فقال : فأنشدكم الله ، هل علمتم أن رسول الله ﷺ أمسك عن القتال للهدنة بينه وبين أهل الحديبية ؟ قالوا : نعم ،

ولكن علياً حياً نفسه من إمارة المسلمين ، قال ابن عباس : ليس ذلك بزيها عنه ، وقد حيا رسول الله ﷺ اسمه من النبوة ، وقد أخذ علياً على الحكمين أن لا يمورا ، وإن يمورا فعلياً أولى من معاوية وغيره ، قالوا : إن معاوية يدعي مثل دعوى عليٍّ ، قال : فأبئها وأبئموه أولى فولئوه ، قالوا : صدقت ، قال ابن عباس : و متى جار الحكماء فلا طاعة لها ولا قبول لقولها ، قال : فاتبه منهم ألفان وبقي أربعة آلاف ، فصلّى بهم صلواتهم ابن الكواء ، وقال متى كانت حربٌ فريسيكم شئت بن ربيعة الرياحي ، فلم يزالوا على ذلك يومين ، حتى أجمعوا على البيعة لعبد الله بن وهب الراسبي ، قال : ومضى القوم إلى النهروان ، وكانوا أرادوا المضي إلى المدائن . قال الأخفش : كذا كان يقول المبرد « النهروان » بكسر النون والراء ، وإنما هو « النهروان » بالفتح ، وانشد للطرمّاح :

قلّ في خط نهروان اغناضي

• • •

قال أبو العباس : فن طريف أخبارهم : انهم أصابوا مسلماً ونصرائياً ، فقتلوا المسلم وأوصوا بالنصرائي ، فقالوا : احفظوا نعمة نبيكم !! ولقيهم عبد الله بن خبابٍ وفي عنقه مصحفٌ ، ومعه امرأته وهي حاملٌ ، فقالوا له : إن هذا الذي في عنقك ليأمرنا ان نقتلك ! قال : ما أجا القرآن فأحيوه ، وما أماته فأميتوه ، فوثب وجلّ منهم على رُطبةٍ فوضعا في فيه ، فصاحوا به فلفظها تورعاً ، وعرض لرجلٍ منهم خنزيراً فضربه الرجل فقتله ، فقالوا : هذا فساد في الأرض !! فقال عبد الله بن خبابٍ : ما علي منكم بأش ، إني لمسلم ، قالوا له : حدثنا عن أهلك ؟ قال سمعت أبي يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تكون فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه ، يمي مؤمناً ويصبح كافراً ، فكن عبد الله المقتول ، ولا تكن القاتل » . قالوا : فما تقول في أبي بكرٍ وعمر ؟ فأتني خيراً ، فقالوا : فما تقول في عليٍّ أميرٍ

المؤمنين قبل التحكيم ، وفي عتبان ست سنين ؟ فأننى خيراً ، قالوا : فما تقول في الحكومة والتحكيم ؟ قال : أقول : إن علياً أعم بكتاب الله منكم ، وأشدُّ توقفاً على دينه ، وأتقذ بصيرة ، قالوا : إنك لست تتبّع الهدى ، إنما تتبع الرجال على أسمائنا ! ثم قرّبه إلى شاطئ النهر ، فذبحوه ، فامدقروا دمه ، أي : جرى مستطيلاً على دقة . وساموا رجلاً نصرانياً بنخلة له ، فقال : هي لكم ، فقالوا : ما كنا لتأخذها إلا بشئ ! قال ما أعجب هذا ، أنقتلون مثل عبد الله بن خباب ولا تلبون مناجى نخلة ؟

ومن طريق أخبارهم : أن غيلان بن خرشة البصريّ ممرّ ليه عند زيادٍ ومعه جماعة ، فذكر أمر الحوارج ، فأغى عليهم غيلان ، ثم انصرف بعد ليلة إلى منزله ، فلقه أبو بلال مرداس بن أدية فقال له : يا غيلان ! قد بلغني ما كان منك الليلة عند هذا الفاسق ، من ذكر هؤلاء القوم الذين شروا أنفسهم وابتاعوا آخرتهم بدنياهم ، ما يؤمنك أن يلقاك رجلٌ منهم ، أحرص والله على الموت منك على الحياة ، فينفذ حضيّك بروحه ؟ فقال غيلان : لن يبلغك أني ذكرتهم بعد هذه الليلة .

ومرداسٌ تتحلّه جماعة من أهل الأهواء ، لقشفه وبصيرته ، وصحة عبادته ، وظهور ديانته ، وبيانه . تتحلّه المعتزلة ، وتزعم أنه خرج منكراً لجور السلطان ، داعياً إلى الحق . وتحتجّ له بقوله لإزيد حيث قال على المنبر : والله لأخذنّ الحسن منكم بالمسيء ، والحاضر منكم بالغائب ، والصحيح بالسقيم ، والمطيع بالعاصي ، فقام إليه مرداسٌ فقال : قد سمعنا ما قلت أيها الإنسان وما هكذا ذكر الله عزّ وجلّ عن نبيه إبراهيم عليه السلام ، إذ يقول : (وإبراهيم الذي وفى ، ألا تزيروا وزراً أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يُخزاه الجزاء الأوفى) وأنت تزعم أنك تأخذ المطيع بالعاصي ، ثم خرج في عقب هذا اليوم . والشيعي تتحلّه ، وتزعم أنه كتب إلى الحسين ابن عليّ صلوات الله عليه : أما إني لست أرى رأيي الحوارج ، وما أفا إلا على دين أبيك .

وهذا رأي قد استوى جماعة من الأشراف . يُروى : أن المتنزه بن
جلارود كان يرى رأي الحوارج . وكان يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج بن
يوسف يراه . وكان صالح بن عبد الرحمن صاحب ديوان العراق يراه . وكان
عدة من الفقهاء يُنسبون إليه ، منهم عكرمة مولى ابن عباس . وكان يقال
ذلك في مالك بن أنس ، ولعل هذا يكون باطلا . ويروى الزبير بن
أنس مالك بن أنس المدني كان يذكر عثمان وعلياً وطلحة والزبير ، فيقول :
 والله ما اقتلوا إلا على الشريد الأعفر !

فأما أبو سعيد الحسن البصري فإنه كان يُنكرُ الحكومة ، ولا يرى
رأى ، وكان إذا جلس قمتن في مجلسه ذكر عثمان قرحم عليه ثلاثاً ، ولعن
قتله ثلاثاً ، ويقول : لو لم نلعنهم للعث ، ثم يذكر علياً فيقول : لم يزل
أمير المؤمنين علي رحمه الله يتعرفه النصر ، ويساعده الظفر ، حتى حكم ،
 فلم يُحكّم والحق معك ؟ ألا تخزي قداماً لا أبالك وأنت على الحق ؟!

* * *

قال أبو العباس : وهذه كلمة فيها جفاء ، والعرب تستعملها عند الحق على
أخذ الحق والإغراء ، وربما استعملتها الجفأة من الأعراب عند المسألة والطلب ،
 فيقول القائل للأمير والحليفة : انظر في امر ريتك لا أبالك ! وسمع سليمان بن
 عبد الملك رجلاً من الأعراب في سنة جديدة يقول :

ربّ العباد مالنا ومالكنا قد كنت تقينا فما بدا لك

انزل علينا الغيث لا أبالك

فأخرجه سليمان أحسن تحرير ، فقال أشهد أنه لا أبأ له ولا ولد ولا صاحبة ،
 وأشهد أن الحق جميعاً عباده . وقال رجل من بني عامر بن صعصعة أبعد من
 هذه الكلمة لبعض قومه :

أبني عقيل لا أبأ لأبيكم أي وأي بني كلاب أكرم

وقال وجل من طيبه ، أنشده أبو زيد الانصاري :

ياقرط قرط حي لا أبالك	ياقرط إني عليكم خائف حذر
أن روى رقتش وأصطاف أعزّه	من التلاع التي قد جادها المطر
قلتم له اهج بيماء لا أبالك	في كف عبدكم عن ذاكم قصر
فإن بيت تميم ذو سمعت به	فيه تمت وأرست عزها مضر

قوله « ياقرط قرط حي » نصبها معاً أكثر على السنة العرب ، وتأويلها :
أنهم أرادوا « ياقرط حي » ، فأقصموا « قرطاً » ، الثاني توكيداً ، وكذلك لجرير :

ياتيم تيم عدي لا أبالك لا يلقينكم في سؤتي ممر
ومثله لعمر بن بلال :

يازيد زيد اليمعات النبيل تطاول الليل عليك فازل
فإن لم ترد التوكيد والتكرير لم يميز إلا رفع الأول « يازيد زيد اليمعات »
و « ياتيم تيم عدي » كما تقول « يازيد أخا عمرو » ، على النعت . ومثل الأول
في التوكيد « يابؤس العرب » أراد : يابؤس الحرب ، فأقصم اللام توكيداً ؛
لأنها توجب الإضافة . وعلى هذا جاء « لا أبالك » و « لا أبأ زيدا » ، ولولا
الإضافة لم تثبت الألف في الأب ؛ لأنك تقول : رأيت أباك ، فإذا أفردت
قلت : هذا أب صالح . ولما كانت « لا أباك » كما قال الشاعر :

أبللوت الذي لابد أني ملأني لا أباك تخوفني
وقال آخر :

وقد مات شماغ ومات مزود وأي كريم لا أباك مبخد
وقوله : « أن روى رقتش » ، « رقتش » وجل . و « روى » استقى
لأهله ، يقال : فلان راوية أهله : إذا كان يستقي لأهله ، والتي على البعير
والحمار مزادة ، فإذا كبوت وعظمت وكانت من ثلاثة أمه في المثلثة ،
وأصغر منها السطيحة ، وأصغرهن الطبيع .

وقوله « واصطاف أعزّه » يريد : اقتعلت ، من المصيف ، أي : أصابت
البقل فيه .

و « التلعة » : ما ارتفع من الأرض في « مستقر » المسيل إذا تجافى السيل
عن مته ، وجهه « تلاح » .

وقوله : « ذو سمعت به » يريد : الذي ، وكذلك تفعل طيه ، تجعل
« ذو » في معنى « الذي » ، قال زيد الحيل لبني فزارة وذكر عامر بن
الطخيل فقال :

إني أرى في عامر ذو ترون

وقال عارق الطائي :

فإن لم يُغير بعض ما قد فعلتم
لأتجنّ للعظم ذو انا عارقه
يريد : الذي .

ومن ظرفاء المحدثين البانية من يعمل هذا اعتياداً لإيثار لغة قومه ، قال الحسن
ابن هاني الحكمي :

حُب المدامة ذو سمعت به
وقال حبيب بن أوس الطائي :

أنا ذو عرفت فإن عرتك جهالة
فأنا المقيم قيامه العذال
وقال الحسن بن وهب الحراني :

علاني بذكرها علاني
أنا ذو لم يزل يهون على الند
واسقياني أو لا فمن تسقيان
ع بصدق الطعان يوم الطعان
مان إن عز جانب التذمان

* * *

عاد الحديث إلى ذكر الحواج :

قال أبو العباس : وكان في جملة الحواج للذو واحتجاج ، على كثرة

خطبتهم وشعرانهم ، وتقاذ بصيوتهم ، وتوطئن أنفسهم على الموت ، فنهى النبي
 طعن فأنفذ الرمح فجعل يسعى فيه إلى قاتله وهو يقول : (وعجلت إليك
 رب لترضى) .

وهو يروى عن النبي ﷺ أنه لما وصفهم قال : « سيام التحليق ، يقرؤون
 القرآن لا يحاوزون تراقيمهم ، علامتهم رجلٌ مخدج اليد » . وفي حديث عبد الله بن
 عمرو : « رجلٌ يقال له عمرو ذو الخويصرة ، أو الخيصرة » . وروى عن
 النبي ﷺ : « أنه نظر إلى رجلٍ ساجدٍ ، إلى أن صلى النبي عليه السلام ،
 فقال : ألا رجلٌ يقتله ؟ فصرَّ أبو بكر عن ذواعه واتَّخى السيف وصمدَ نحوه ،
 ثم رجع إلى النبي ﷺ فقال : أأقتل رجلاً يقول : لا إله إلا الله ؟ فقال النبي
 عليه السلام : ألا رجلٌ يفعل ؟ ففعل عمر مثل ذلك ، فلما كان في الثالثة قصد
 له علي بن أبي طالب عليه السلام فلم يرَ ، فقال رسول الله ﷺ : لو قُتل لكان
 أولَ قَتْنَةٍ وآخرها » .

ويروى عن أبي مريم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : أنه ذكرَ
 الخدج عند النبي عليه السلام ، فقال أبو مريم : والله إن كان معنا لفي المسجدِ
 وكان فقيراً ، وكان يحضر طعامَ أمير المؤمنين عليٍّ إذا وضعه للمسلمين ، ولقد
 كسوته برنساً لي ، فلما خرج القوم إلى حروراء قلت : والله لأنظرن إلى
 عسكرهم ، فبجعت أنظفهم حتى صرت إلى ابن الكواء وشبث بن ربعي ، ورسَل
 عليٍّ تشادهم ، حتى وثب رجلٌ من الخوارج على رسولِ عليٍّ ، فضرب دابته
 بالسيف ، ففعل الرجلُ سرجه وهو يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم انصرف
 القوم إلى الكوفة ، فبجعت أنظر إلى كثرتهم كلما ينصرفون من عيدٍ ، فرأيت
 الخدج ، وكان مني قريباً ، فقلت : أكنت مع القوم ؟ فقال : أخذت سلاحي
 أريدكم فإذا بجماعةٍ من الصبيان قد عرضوا لي فأخذوا سلاحي وجعلوا يتلاعبون
 بي ! فلما كان يومَ البهر قال عليٌّ أمير المؤمنين : اطلبوا الخدج ، فطلبوه فلم
 يجدوه حتى ساء ذلك علياً ، وحتى قال رجلٌ : لا والله يا أمير المؤمنين ما هو فيهم ،

قال علي : والله ما كذبت ولا كذبت ، فباه رجل فقال : قد أجبناه يا أمير المؤمنين ، فخر علي ساجداً ، وكان إذا أتاه ما يسره به من الفتح سجد ، وقال : لو أعلم شيئاً أفضل منه لفعلته ، ثم قال : سياه أن يده كالثدي ، عليها شعرات كشارب السنور ، أتوني بيده المهدجة ، فأتوه بها ، قصها .

ويروي عن أبي الجلاء : أنه نظر إلى فافع بن الأزرق الحنفي وإلى نظره وتوغلّه وتعمقه ، فقال : إني لأجد لهنم سبعة أبواب ، وإن أشعها حراً للخوارج ، فاحذر أن تكون منهم .

قال : وكان فافع بن الأزرق يتجمع عبد الله بن العباس فيسأله ، فله عنه مسائل من القرآن وغيره ، قد رجع إليه في تفسيرها ، فقبله واتحط ، ثم غلبت عليه الشقوة . ونحن ذاكرون منها صدراً إن شاء الله .

• • •

حدث أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي النساب عن أسامة بن زيد عن عكرمة قال : رأيت عبد الله بن العباس وعنده فافع بن الأزرق وهو يسأله ، ويطلب منه الاحتجاج باللغة ، فسأله عن قول الله جل ثناؤه (والليل وما وسق) فقال ابن عباس : وما جمع ، فقال : أتعرف ذلك العرب ؟ قال ابن عباس : أما سمعت قول الراجز :

إن لنا قلائصاً حقائقاً مستوسقات لو يجدن سائفاً ؟

هذا قول ابن عباس ، وهو الحق الذي لا يقدح فيه قاذح . ويعرض القول فيحتاج المبتدئ إلى أن يزداد في التفسير .

قوله : « حقائقاً » إنما بنى الحلقة من الإبل ، وهي التي قد استعقت أن يحمل عليها ، على « فعية » مثل « حقيقة » ولذلك جمعها على « حقائق » . ويقال : « استوسق » القوم : إذا اجتمعوا .

وروي أبو عبيدة في هذا الإسناد ، وروي ذلك غيره ، وسمعناه من غير وجه : أنه سأله عن قوله عز وجل : « قد جعل ربك تحتك سرياً » فقال ابن عباس : هو الجدول ، فسأله عن الشاهد : فأنشده :

سَلَّمَ تَرَى الدَّالِجَ مِنْهَا أَزُورَا إِذَا يَجِىءُ فِي السَّيْرِ مَرْمَرَا
« السَّلْمُ » : الدَّلْوُ الَّذِي لَهُ عُرُودٌ وَاحِدَةٌ ، وَهُوَ دَلْوُ السَّعَافَيْنِ ، وَهُوَ الَّذِي
ذَكَرَهُ طَرِيقَةُ فَقَالَ :

لَهَا مَرَفَقَانِ أَقْتَلَانِ كَأَنَّهَا أَمْرًا بِسَلْمِي طَلِجٍ مُتَشَدِّدٍ
و « الدَّالِجُ » ، الَّذِي يَمِشِي بِالْأَلْوَيْنِ الْبَثْرِ وَالْحَوْضِ وَأَصْحَابُ الْحَدِيثِ يُنْشِدُونَ :
« تَرَى الدَّالِيَّ مِنْهُ أَزُورَا » وَهَذَا خَطَأٌ لَا وَجْهَ لَهُ .

وَرَوَى أَبُو عِيْدَةَ وَغَيْرُهُ : أَنَّ نَافِعًا سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ قَوْلِهِ (عَتَلَّ
بَعْدَ ذَلِكَ زَنْبِيرٌ) : مَا الزَّيْمُ ؟ قَالَ : هُوَ الدَّيْمُ الْمَزَّقُ ، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ
حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ :

زَيْمٌ تَدَاعَاهُ الرِّجَالُ زِيَادَةً كَازَيْدٍ فِي عَرْضِ الْأَدِيمِ الْأَكْلُوعِ ؟

وَيَزَعُمُ أَهْلُ الْاِفْتَةِ أَنَّ اسْتِثْقَاءَ ذَلِكَ مِنَ الزَّعْفَةِ الَّتِي يَجْتَنِي الشَّاةُ ، كَمَا يَقُولُونَ
لَمَنْ دَخَلَ فِي قَوْمٍ لَيْسَ مِنْهُمْ : زَعْفَةٌ وَلِجَمْعِ « زَعَانِفٌ » ، وَ « الزَّعْفَةُ »
الْجَنَاحُ مِنْ أَجْنَحَةِ السَّمَكِ قَالَ أَبُو الْحَسَنِ الْأَخْفَشُ : كَذَا قَالَ « زَعْفَةُ »
وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ يَقُولُونَ « زَعْفَةُ » بِكسْرِ الزَّاي وَهُوَ الْوَجْهُ .

وَيُرْوَى عَنْ غَيْرِ أَبِي عِيْدَةَ : أَنَّهُ سَأَلَهُ عَنْ قَوْلِهِ جَلَّ اسْمُهُ (وَالتَّقَتِ السَّاقُ
بِالسَّاقِ) ؟ قَالَ الشَّدَّةُ بِالشَّدَةِ ، فَأَلَهُ عَنِ الشَّاهِدِ ؟ فَأَنْشَدَهُ :

أَخُو الْحَرْبِ إِنْ عَضَّتْ بِهِ الْحَرْبُ عَضًّا وَإِنْ شِمَتْ عَنْ سَاقِهَا الْحَرْبُ شِمْرًا

قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ : وَقُرَأَتْ عَلَى عَمَلَةِ بْنِ عَقِيلَ بْنِ بِلَالِ بْنِ جَرِيرٍ قَصِيدَةُ جَرِيرٍ ،
الَّتِي يَجُوزُ فِيهَا آلُ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صَفْوَةَ ، وَيُدْجَى هَلَالُ بْنُ أَحْوَزَ الْمَازَنِيُّ ، وَيَذَكُرُ
الْوَقْعَةَ الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ عَلَيْهِمُ بِالسَّنَدِ فِي سُلْطَانِ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، بِسَبَبِ
خُرُوجِ يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ عَلَيْهِ :

أَقُولُ لَهَا مِنْ لَيْقٍ لَيْسَ طَوْلُهَا كَطُولِ الْبَالِي لَيْتَ صَبْحَكَ نَوْرًا
أَخَافُ عَلَى نَفْسِ ابْنِ أَحْوَزَ إِنَّهُ جَلَّامُحْمَا فَوْقَ الْوُجُوهِ فَاسْفَرَا

قال الشيخ أبو يعقوب : الذي روت في شعر جرير :

حذاراً على نفس ابن أحوز إنه جلا كل وجه من معدٍ فأسفرا

وقوله « عدي » يعنى عدي بن أرطاة الفزاري ، قتله معاوية بن يزيد بن المهلب بواسط ، وكان عامل عمر بن عبد العزيز رحمه الله :

جعلت لقبر للخيار ومالك وقبر عدي في المقابر أقبرا

ويروى « للخيار وواسط » الحيار : موضع بعمان ، فيه قبر الحيار بن سبرة الجاشعي ، وواسط : بها قبر عدي بن أرطاة الفزاري .

وأطفا نيران المزون وأهلها وقد حاولوا فتنة أن تسعرا

« المزون » عمان ، بالقلسية .

فلم تبق منهم راية يعرفونها ولم تبق من آل المهلب عسكرا

الأرب ساسي الطرف من آل مازن إذا شمرت عن ساقها الحرب شمرأ

فهذا نظير ذلك . و « المزون » عمان . قال الكمي : فأكروه أن أسميها المزونا

وقال آخر يعني الحرب :

فإن شمرت لك عن ساقها فويها حذيف ولا تسأم

تقول : « ويها زيد » إذا زجرته عن الشيء فأغريته به . و « واهأله » : إذا تعجبت منه . و « حذيف » يريد حذيفة ، فرأهم .

ويروى عن أبي عبيدة من غير وجه : أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس فقال : أرايت نبي الله سليمان صلى الله عليه وسلم ، مع ما حوَّله الله وأعطاه ، كيف عني بالمدد على قلبه وضوئته ؟ فقال له ابن عباس : إنه احتاج إلى الماء ، والدمع قنأه ، الأرض له كالزجاجة ، يرى باطنها من ظاهرها ، فسأل عنه لذلك . قال ابن الأزرق : قِفْ ياوقاف ! كيف يبصر ما تحت الأرض والفتح يخطى له بمقدار إصبع من تراب فلا يبصره حتى يقع فيه ؟ فقال ابن عباس : ويحك يا ابن الأزرق ! أما علمت أنه إذا جاء القدر عشي البصر ؟ !

وبما سأله عنه (المـ ، ذلك الكتاب) فقال ابن عباس : تأويله :
 هذا القرآن . هكذا جاء ، ولا أحفظُ عليه شاهداً عن ابن عباس ، وأنا أحسبه
 أنه لم يقبله إلا بشاهدي ، وتقديره عند التحرين إذا قال « ذلك الكتاب » : أنهم
 قد كثروا وعدوا كتاباً ، هكذا التفسير ، كما قال جل ثناؤه : (فلما جاءهم
 ما عرفوا كفروا به) يعني بذلك اليهود ، وقال : (يعرفونه كما يعرفون
 أبناءهم) ، فمعناه : هذا الكتاب الذي كنتم تتوقعونه . وبيت خُفاف بن ندبة
 على ذلك يصحُّ معناه . وكان من خبره : أنه غزا مع معاوية بن عمرو أخيه
 خنساء ، مرة وفزارة ، فعمدَ ابناً حرملة دريد وهاشم المزياني عند معاوية ،
 فاستطرد له أحدهما ، فحمل عليه معاوية ، فطعته ، وحمل الآخر على معاوية
 فطعته متمكناً ، وكان صميم الخيل ، فلما تبادوا قتل معاوية :

قال خُفاف بن ندبة ، وهي أمه ، وكانت حبشية ، وأبوه عمير ، وهو أحد
 بني سليم بن منصور : قتلي الله إن رميت حتى أثار به ، فحمل على مالك بن
 حمير ، وهو سيد بني شَمخ بن فزارة ، فطعته فقتله ، فقال خُفاف بن ندبة :

إن تك خيلي قد أصيبَ صميمها فعمداً على عيني تيممت مالكا
 وقتت له علوى وقد خام صُعبتي لأبني مجدأ أو لأثار هالكا
 أقول له والرُمع يَطر منه تأمل خُفافاً إنني أنا ذلِكا

يريد : أنا ذلك الذي سمعت به . هذا تأويل هذا . وقوله « يَطر منه » أي
 يثني . يقال أطرت القوس أطرها أطراً ، وهي مَاطورة . و « علوى » فرسه .
 وبما سأله عنه قوله عز وجل : (لم أجز غير ممنون) فقال ابن عباس :
 غير مقطوع ، فقال : هل تعرف ذلك العرب ؟ فقال : قد عرفه أخو بني
 تَشكر ، حيث يقول :

وترى خلفهن من مرعة الرجز مع منيناً كأنه أهباء
 قال أبو العباس : « منين » يعني الغبار ، وذلك أنها تنقطع قطعاً ورامها ،
 و « المنين » الضعيف المؤذن بانقطاع ، أنشدني التوزي عن أبي زيد :

باريتها إن سلمت يميني . وسلم الساقى الذي يليني . ولم تخشي عقد المتين
 تريد الجبل الضعيف ، فهذا هو المعروف ، ويقال « منين » و « ممنون » ، كقتيل
 ومقول ، وجريح ومجروح ، وذكر التورى في كتاب الأضداد أن « المنين »
 يكون القوي ، يجعله « فعلاً » من « المنة » والمعروف هو الأول .
 وقال غير ابن عباس : (لهم أجر غير ممنون) لا يُمنّ عليهم فيكدر
 عندهم .



ويروى من غير وجه : أن ابن الأزرقي أتى ابن عباس يوماً فجعل يسأله
 حتى أمله ، فعمل ابن عباس يظهر الضجر ، وطلع عمر بن عبد الله بن أبي
 ربيعة على ابن عباس ، وهو يومئذ غلام ، فلم يجلس ، فقال له ابن عباس :
 ألا تلتشدنا شيئاً من شعرك ؟ فأنشده :

أمن آل نعم أنت غاد فبكر	غداة غد أم رانح فهجر
بحاجة نفس لم تقل في جوابها	قُبِّلِغْ عُنُوا والمقالة تعذر
تيم إلى نعم فلا الشل جامع	ولا الحل موصول ولا القلب مقصر
ولا قرب نعم إن دنت لك نافع	ولا نأيا بُلي ولا أنت تصبر
وأخرى أنت من دون نعم ومثلها	هى ذا النهى لو يرعوي أو يفكر
إذا زرت نعماً لم يزل ذو قرابة	لها كلما لاقته يتنمر
عزيز عليه أن أمر يابها	مسر لي الشنأ والبغض مظهر
ألكني إليها بالسلام فإنه	يشهر إليّ بما وينكر
بأية ما قالت غداة لقيتها	يدفع أكتاف هذا المشهر ؟
فقي فانظري بأسم هل تعرفينه ؟	أهذا المغير الذي كان يذكر ؟
أهذا الذي أطربت نعماً فلم أكن	وعيشك أنساه إلى يوم أفر ؟ !
فقلت : نعم ، لا شك غير لونه	مرى الليل يجي نضاً والتهجر
لئن كان إيتاه لقد حال بعدنا	عن العهد والإنسان قد يتغير

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيضى وأما بالعشي فيخسر
 حتى أنها ، وهي غانون بيتاً ، فقال له ابن الأزرق : أنت يا ابن عباس !
 انضرب إليك اكباد الإبل ، نسالك عن الدين ، فتعرض ، وبأتيك غلاماً من
 قريش ، فيشدك سبهاً فتسمعه ؟! فقال : والله ما سمعتُ سبهاً ، فقال ابن
 الأزرق : أما أنشدك :

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيخزي وأما بالعشي فيخسر ؟
 فقال : ما هكذا قال ، إنما قال د فيضى وأما بالعشي فيخسر ، قال :
 أو تحفظ الذي قال ؟ قال : والله ما سمعتها إلا ساعتي هذه ، ولو شئت أن
 أردتها لرددتها ! قال : فاردها ؟ فأنشده إياها كلها .

وروى الزبير بن : أن نافعاً قال له : ما رأيت أروى منك قط ، فقال له
 ابن عباس : ما رأيت أروى من عمر ، ولا أعلم من علي .

وقوله « فيضى » يقول : يظهر للشمس . و « يخسر » يقول : في البرد ،
 فإذا ذكر العشي فقد دل على غيب العشي . قال الله تبارك وتعالى : (وأنت
 لا تعلمها فيها ولا تضي) « والضح » الشمس ، وليس من « ضحيت » ،
 يقال « جاء فلان بالضح والريح » يراد به الكثرة . قال علقمة :

أغرأ أبرزه للضح راقبه مقلد قضب الرياح مغموم
 له « دفعة » أي : رائحة طيبة ، يعني إريقاً فيه شراب . وفي الحديث :
 « أن رسول الله ﷺ لما توجه إلى تبوك جاء أبو خيصة ، وكانت له امرأتان ،
 وقد أعدت كل واحدة منها من طيب تمر بستانه ، ومهدت له في ظلي ،
 فقال : أظلل بمود ، وثمره طيبة ، وماء بارد ، وامرأة حسنة ، ورسول
 الله في الضح والريح ؟! ما هذا بخير ، فركب ناقته ومضى في أثره . وقد
 قيل لرسول الله ﷺ في نفر تخلفوا ، أبو خيصة أحدهم ، فبعل لا يذكركم
 له أحد منهم إلا قال : دعوة فان يرد الله به خيراً يلقه بكم ، فقبل ذات
 يوم : يا رسول الله ! نرى رجلاً يرفعه الآل ، فقال رسول الله ﷺ كن أبا
 خيصة ، فكان هو . »

وإذا انبسطت الشمس فهو « الضحى » مقصور ، فإذا امتدَّ النهار وبينها مقدار ساعة أو نحو ذلك فذلك « الضحاه » ممدود مفتوح الأول .

★ ★ ★

وذكرت الرواة : ان الحجاج أتيَ بامرأة من الحوارج ، وبحضرتها يزيدُ ابن ابي مسلم مولاه ، وكنت يستمرُّ برأي الحوارج ، فكلَّم الحجاجُ المرأة فأعرضت عنه ، فقال لها يزيد بن ابي مسلم : الأميرَ وتلك يكلمك ! فقالت : بل الويل واهلك يا فاسقُ الرَّذِي . « والرَّذِي » عند الحوارج : هو الذي يعلم الحقَّ من قولهم ويكثمه .

وذكروا انَّ عبدَ الملك بن مروان أتيَ برجلٍ منهم فبحثهُ ، فرأى منه ما شاةً فهماً وعلماً ، ثم بحثه ، فرأى ما شاء إرثاً ودعياً ، فرغب فيه واستدعاه إلى الرجوع عن مذهبه ، فرآه مُستبصراً محققاً ، فزاد في الاستدعاء ، فقال له : لتغنيكَ الأولى عن الثانية ، وقد قلتَ فسمعتُ ، فاسمعْ أَقْلُ ، قال له : قلْ ، فجعل يبسطُ له من قول الحوارج ويُزيِّن له من مذهبهم بلسانٍ طليقٍ وألفاظٍ بيّنة ومعاني قريبة ، فقال عبد الملك بعد ذلك على معرفته : لقد كاد يُوقِع في خاطري ان الجنة خلقت لهم ، وأني أولى بالجهادِ منهم ، ثم رجعت إلى مائتة عليٍّ من الحجة وقرَّر في قلبي من الحقِّ ، فقلت له : قد الآخرة والدنيا ، وقد سلطني الله في الدنيا ، ومكنَ لنا فيها ، وأراك لست تحيب بالقول ، والله لأقتلنك إن لم تطيع ، فانا في ذلك إذ دخل عليَّ بابي مروان - قال ابو العباس : كان مروان أخا يزيدَ لأمِّه ، أمُّها عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، وكان أياً عزيزَ النفس ، فدخَلَ به في هذا الوقتِ على عبد الملك - باكياً لضرب المؤدَّبِ إياه ، فشقَّ ذلك على عبد الملك ، فأقبلَ عليه الحارِجي ، فقال له : دَعْنِيكَ ؛ فإنه أرحبُ لِشِدْقِهِ ، وأصحُّ لِدماغِهِ ، وأذهب لَصَوْتِهِ ، وأحرى ان لا تأبى عليه عينهُ إذا حضرته طاعة ربه فاستدعى عبرتها ، فأعجبَ

ذلك من قوله عبد الملك ، فقال له متعباً : أما يشغلك ما أنت فيه وبِعَرَضِهِ
عن هذا ؟ فقال : ما ينبغي أن يشغل المؤمنَ عن قول الحق شيء ، فأمر
عبد الملك مجبسه ، وصُفح عن قلبه ، وقال بعد يعتذر إليه : لولا أن تصد
بألفاظك أكثرَ وعياني ما حبستك ، ثم قال عبد الملك : من شككني ووهمني
حتى مالت في عصمة الله فغير بعيد أن يستهوي من بعدي . وكان عبد الملك
من الرأي والعلم بموضع .

وترجم الرواة : أن رجلاً من أهل الكتاب وفد على معاوية ، وكان موصوفاً
بقراءة الكتب ، فقال له معاوية : انجد نعتي في شيء من كتب الله ؟ قال :
إي والله ، لو كنت في أمةٍ لوضعت يدي عليك من بينهم ! قال : فكيف
تجديني ؟ قال أجدك أول من يحول الخلافة ملكاً ، والحشنة إلينا ، ثم إن
ربك من بعدهما لغفورٌ رحيمٌ ، قال معاوية : فسري عني ، ثم قال : لا تقبل
هذا مني ، ولكن من نفسك ، فاختبر هذا الخبر ! قال : ثم يكون ماذا ؟
قال : ثم يكون منك رجلٌ شرابٌ للخمر ، سفاكٌ للدماء ، يجتبن الأموال ،
ويصطنع الرجال ويحنّب الحول ، ويبيع حرمة الرسول ! قال : ثم ماذا ؟
قال : ثم تكون فتنةٌ تتشعبُ بأقوامٍ حتى يُفضي الأمرُ بها إلى رجلٍ أعرف
نعتي ، يبيع الآخرة الدائمة بحظٍّ من الدنيا محسوسٍ ، فيجتمع عليه ، من
آلِكَ وليس منك ، لا يزال لعدوه قاهراً ، وعلى من نأواه ظاهراً ، ويكون له
قرينٌ ميينٌ لعين ! قال : أفتعرفه إن رأيت ؟ قال : شديداً ، فأراه من بالشام
من بني أمية ، فقال : ما أراه هنا ، فوجه به إلى المدينة مع ثقات من
رؤسها ، فإذا عبد الملك يسعى مؤثراً في يده طائرٌ ، فقال للرسل : ها هو ذا ،
ثم صاح به : إليّ أبو من ؟ قال : أبو الوليد ، قال : يا أبا الوليد ! إن
بشركك ببشارةٍ تسرك ما تجعل لي ؟ قال : وما مقدارها من السرور حتى
نعلم مقدارها من الجحلم ؟ قال : أن تملك الأرض ! قال : ما لي من مالٍ ،
ولكن أرايتك إن تكلفت لك جعلاً أئال ذلك قبل وقته ؟ قال : لا ،

قال : فإن حرمتك أتوخّرهُ عن وقته ؟ قال : لا ، قال : فضمّك ما سمعت !!
فذكروا أن معاوية كان يكرمُ عبدَ الملك ليجعلها يداً عنده يحازيه بها في
مخلّفته في وقته .

وكان عبدُ الملك من أكثر الناس علماً . وأبوهم أدباً ، وأحسنهم في شيبته
ديانةً ، فقتلَ عمرو بن سعيد ، وتسمّى بالحلاقة ، فلمَ عليه بها أوّلَ
تسليمةٍ ، والمنصفُ في حجره ، فاطبّقه وقال : هذا فراقُ بيني وبينك !!

قال أبو العباس : وحدثني ابنُ عائشة عن حماد بن سلمة في إسنادٍ ذكره :
أن عبد الملك كان له صديقٌ ، وكان من أهل الكتاب ، يقال له يوسف ،
فأسلم ، فقال له عبدُ الملك يوماً - وهو في غفوانٍ منكم - وقد مضتْ
جيوشُ يزيد بن معاوية مع مسلم بن عقبة المري ، من مرّة غطفان - يريدُ
المدينة - : ألا ترى خيلَ عدوّ الله قاصدةً لحرم رسول الله ﷺ ؟ ! فقال
له يوسف : جيبك والله إلى حرم رسول أعظم من جيشه ! فنقض عبدُ الملك
ثوبه ، ثم قال : معاذ الله ! قال له يوسف : ما قلتُ ساكناً مُرتباً ، وإني
لأجدُك بجميع أوصافك ، قال له عبدُ الملك : ثم ماذا ؟ قال : ثم يتداولها
ومعك ، قال : إلى متى ؟ قال : إلى أن تخرج الرايات السود من خراسان .

قال : وحدثتُ عن ابن جعدبة ، قال : كنتُ عند أمير المؤمنين
المنصور ، في اليوم الذي أتاه فيه خروجُ محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن ،
قال . فغمّةٌ ذلك ، حتى امتنع من الغداء في وقته ، وطال عليه فُكرُهُ ،
فقلتُ : يا أمير المؤمنين ! أحدثك حديثاً ؟ كنتُ مع مروان بن محمد ، وقد
قصده عبدُ الله بن عليّ ، قال : فإنّا لكذلك إذ نظر إلى الأعلام السود من
بعدي ، فقال : ما هذه البختُ الجليلةُ ؟ قلتُ : هذه أعلامُ القوم ، قال : فمن
تحتها ؟ قلتُ : عبدُ الله بن علي بن عبد الله بن العباس ، قال : وأبهمُ عبدُ
الله ؟ فقلتُ : الفتى المعروفُ الطويلُ ، الخفيفُ العلوخين ، الذي رأيتُ في وليمة
كذا يأكلُ فيجيدُ ، فالتفتي عنه فنسبته لك ، فقلتُ : إن هذا الفتى لتلقامةً ،

قال : قد عرفته ، والله لوددتُ أن عليّ بن أبي طالب مكانه ، قال : فقال لي المنصورُ : آلهَ لسمعت هذا من مروان بن محمد ؟ قلتُ : والله لقد سمعتهُ منه ، قال : يا غلامُ ! هات الغداء .

* * *

قال أبو العباس : وكان أهل النخبة جماعة بعد أهل الثهروان ، من فلق عبد الله بن وهب ، ومن لجأ إلى راية أبي أيوب ، ومن كان أقام بالكوفة ، فقال : لا أقاتلُ عليّاً ولا أقاتلُ معه ، فتواصوا فيما بينهم وتعاقدوا ، وتأسفوا على خذلانهم أصحابهم ، فقام منهم قائمٌ يقالُ له المستوردُ ، من بني سعد بن زيد مناة ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمدٍ ، ثم قال : إني رسول الله ﷺ أنا بالعدل ، تحقّق راياته ، معلناً مقالته ، مبلغاً عن ربّه ، فاصحاً لأُمته ، حتى قبضه الله مخبراً مختاراً ، ثم قام الصديق فصدق عن نيته وقاتل من ارتدّ عن دين ربّه ، وذكر أن الله عزّ وجلّ قرن الصلاة بالزكاة ، فرأى أن تعطيل أحدهما طعنٌ على الأخرى ، لابل على جميع منازل الدين ، ثم قبضه الله إليه موفوراً ، ثم قام بعده الفاروق ، ففرق بين الحقّ والباطل ، موفياً بين الناس في إعطائه ، لاموثراً لأقاربه ، ولا محكماً في دين ربّه ، وها أنتم تعلمون ما حدث ، والله يقول : (وفضل الله المجاهدين على القاعدین أجراً عظيماً) فكلُّ أجاب وبابع ، فوجه إليهم عليّ بن أبي طالب عبد الله بن العباس داعياً ، فأبوا ، فسار إليهم ، فقال له عفيف بن قيس : يا أمير المؤمنين ! لا تخرج في هذه الساعة ؛ فإنها ساعة غش لعدوك عليك ! فقال له عليّ : توكلت على الله وحده ، وعصيت رأي كل متكبرٍ ، أنت تزعم أنك تعرف وقت الظفر من وقت الخذلان ؟ ! « إني توكلت على الله ربي وربكم » ، ما من دابةٍ إلا هو آخذٌ بناصيتها ، إن ربي على صراطٍ مستقيم) ، ثم سار إليهم فطعنهم جميعاً ، لم يفلت منهم إلا خمسة ، منهم المستورد ، وابن جوين الطائي ، وفروة بن شريك الأشجعي ، وهم الذين ذكرهم الحسن البصري ، فقال : دعاهم إلى دين الله

فجعلوا أصابعهم في آذانهم واستشفوا ثيابهم وأصرؤا واستكبروا استكبراً ، فار
إليه أبو حنر فطحهم طحناً .

وفيه يقول عمران بن حطان :

إني أدن بما دار الشراة به يوم النخبة عند الجونق الحرب
وقال الحميري يعارض هذا المذهب :

إني أدن بما دار الوصي به يوم النخبة من قتل المهدينا
وبالذي دار يوم النهر دنت به وشاركت كفه كفي بصفينا
تلك الدماء معاً يارب في عنقي ومثلها فاسقي آمين آمينا

وكان أصحاب النخبة قالوا لابن عباس : إذ كان عليّ على حقٍ لم يشكك
فيه وحكمٌ مضطراً فما باله حيث ظفر لم يسب ؟ فقال لهم ابن عباس : قد
سمعت الجواب في التحكيم ، فأما قولكم في السباء أفكنتم سائين أممكم عائشة ؟ !
فوضعوا أصابعهم في آذانهم ، وقالوا : أممك عنا غرب لسانك يا ابن عباس !
فإنه طلق ذلك ، غواص على موضع الحجة . ثم خرج المستورد بعد ذلك بدمر
على المغيرة بن شعبة ، وهو والي الكوفة ، فوجه إليه معقل بن قيس الرياحي ،
فدعاه المستورد إلى المارزة ، وقال له : علام يقتل الناس بيني وبينك ؟ فقال
له معقل : النصف سألت ، فأقسم عليه أصحابه ، فقال : ما كنت لأبى عليه ،
فخرج إليه ، فاختلعا ضربتين ، فخر كل واحدٍ منها ميتاً .

وكان المستورد كثير الصلاة شديد الاجتهاد ، وله آدابٌ يوصي بها وهي
محفوظة عنه .

كان يقول : إذا أفضيتُ برّي إلى صديقي فأفشاه لم الله ، لأنني كنتُ
أولى بحفظه .

وكان يقول : لا نقش إلى أحدٍ مرآ ، وإن كان مخلصاً ، إلا على
جهة المشاورة .

وكان يقول : كن أحرص على حفظ مرّ صاحبك منك على حقن
دمك .

وكان يقول : أول ما يدلُّ عليه عائُ الناس معرفتهُ بالعيوب ، ولا يعيبُ إلا معيبٌ .

وكان يقول : المال غير باقي عليك ، فاستر من الحمد مايقى عليك .

وكان يقول : بذلُ المالِ في حقة استدعاءٌ للزيد من الجواد .

وكان يُكثرُ أن يقولَ : لو مُلكت الأرضُ بمخاضيهما ثم دُعيتُ إلى أن أَسْقِدَ بها خُطْبَةً ما فَعَلْتُ .

★ ★ ★

قال : وخرجت الحوارجُ ، واتَّصل خروجهُ ، ولما تذكر منهم من كان ذا خبرٍ طريفٍ ، واتَّصلَ به حكمٌ من كلامٍ وأشعارٍ .

فأول من خرج بعد قتل عليّ بن أبي طالبٍ عليه السلام حوثةُ الاسديّ ، فإنه كان مُتبعاً بالبنديين ، فكتب إلى حابس الطائي يسأله أن يتولى أمر الحوارج حتى يسير إليه بجمعه ، فيتعاضدا على مجاعة معاوية ، فأجابهُ ، فرجعا إلى موضع أصحاب النخبة ، ومعاوية بالكوفة حيث دخلها مع الحسن بن علي ابن أبي طالب صلوات الله عليه ، بعد أن بايعهُ الحسن والحسين عليهما السلام ، وقيس بن سعد بن عباد ، ثم خرج الحسن يريدُ المدينة ، فوجهَ إليه معاوية وقد تجاوز في طريقه يسأله أن يكون المتولي لحربتهم ، فقال الحسن : والله لقد كلفتُ عنك لحن دماء المسلمين ، وما أحسبُ ذلك يسعني ، أفأقاتلُ عنك قوماً أنت والله أوليُّ بالقتال منهم ؟! فلما رجع الجوابُ إليه وجهَ إليهم جيشاً أكثرهم من أهل الكوفة ، ثم قال لأبيه أبي حوثة : اكفني أمر ابنك ، فصار إليه أبوه فدعاه إلى الرجوع ، فأبى فأداره ، فصمم ، فقال له : يا بني ! أجيئك بابنك فلعلك تراه فتحن إليه ؟ فقال : يا أبت ! أنا والله إلى طعنة فافنة أقلب فيها على كعوب الرمح أشوقُ مني إلى ابني ! فرجع إلى معاوية فأخبره الخبر ، فقال : يا أبا حوثة ! عتا هذا جداً ، فلما نظر حوثة إلى أهل الكوفة قال : يا أعداء الله ! أتم بالأمس تقاتلون معاوية لتهدوا سلطانهُ ، واليوم تقاتلون

مع معاوية لتشدوا لسلطانه !! فخرج إليه أبوه فدعاه إلى البراز ، فقال : يا أبت !
 لك في غيري مندوحة ، ولي في غيرك عنك منعب ، ثم حمل على القوم
 وهو يقول :

أُدرى على مندي الجوع حوزة فمن قليل ما تال المفرة
 فعمل عليه رجل من طيء قتله ، فرأى أثر السجود قد لوح جبهته ، فقدم على
 قتله ، ثم انهزم القوم جميعاً .
 وأنا أحسب أن قول القائل :
 وأجراً من رأيت بظهر غيبٍ على عيب الرجال ذوو العيوب
 لما أخذه من كلام المستورد .

قال رجلٌ للستود : أريدُ أن أرى رجلاً عاباً ، قال : التمه بفضل
 معائب فيه .

وقال العباس بن الأخنف يعاتب من اتهمه بإفشاء سره :

تعبت تطلب ما أستحق	به الهجر منك ولا تقدر
وماذا يضرك من شهرتي	إذا كنت سرّك لا تبهر
أمني تخاف انتشار الحديث	وحظي في ستره أوفر
ولو لم تكن في بقيا عليك	نظرت لنفسي كما تنظر

★ ★ ★

ويروى من حديث محمد بن كعب القرظي قال : قال عمار بن ياسر :
 « خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ذات العشيرة . فلما قتلنا ثلثنا منزلاً ،
 فخرجت أنا وعلي بن أبي طالب صلوات الله عليه ننظر إلى قومٍ يعثمون ،
 فقمنا ، فقمنا ، فسفت علينا الريح التراب ، فابتهنا إلا كلام رسول الله ﷺ ،
 فقال لعلي : يا أبا تراب ! لما عليه من التراب ، أتعلم من أسقى الناس ؟ فقال :
 خبرني يا رسول الله ؟ فقال : أسقى الناس اثنان : أحمرٌ يهود الذي عثر الناقة ،

وَأَسْقَاهَا الَّذِي يَخْضِبُ هَذِهِ ، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى لِحْيَتِهِ ، مِنْ هَذَا ، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى قَرْنِهِ .

وَيُرْوَى عَنْ عِيَّاضِ بْنِ خَلِيفَةَ الْحِزَامِيِّ قَالَ : تَلَقَّيْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيَّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي الْفَلَاسِ ، فَقَالَ لِي : مَنْ أَنْتَ ؟ عِيَّاضُ بْنُ خَلِيفَةَ الْحِزَامِيِّ ، فَقَالَ : ظَنَنْتُكَ أَسْقَاهَا الَّذِي يَخْضِبُ هَذِهِ مِنْ هَذَا ، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى لِحْيَتِهِ وَعَلَى قَرْنِهِ .

وَيُرْوَى : أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ كَثِيرًا — قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ : أَحَبُّهُ عِنْدَ الضَّعِيفِ بِأَصْحَابِهِ — : مَا يَمْنَعُ أَسْقَاهَا أَنْ يَخْضِبَ هَذِهِ مِنْ هَذَا ؟

وَيُرْوَى عَنْ رَجُلٍ مِنْ ثَقِيفٍ أَنَّهُ قَالَ : خَرَجَ النَّاسُ يَطْلُقُونَ دَوَاهِمَ بِالْمَدَائِنِ ، وَأَرَادَ عَلِيٌّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْمَسِيرَ إِلَى الشَّامِ ، فَوَجَّهَ مَعْقِلَ بْنَ قَيْسٍ الرَّيَّاحِيَّ لِيَرْجِعَهُمْ إِلَيْهِ ، وَكَانَ ابْنُ عَمِّ لِي فِي آخِرِ مَنْ خَرَجَ ، فَأَتَيْتُ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَاتَ عَشِيَّةٍ ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَأْخُذَ بِي كِتَابَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَعْقِلَ بْنِ قَيْسٍ فِي التَّوْفِيقِ عَنْ عَمِّي ، فَإِنَّهُ فِي آخِرِ مَنْ خَرَجَ ، فَقَالَ : تَعْدُوا عَلَيْنَا وَالْكِتَابَ نَخْتُمُ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، فَبِتَ لَيْلَتِي ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ وَالنَّاسُ يَقُولُونَ : قَتَلَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ اللَّيْلَةَ ، فَأَتَيْتُ الْحَسَنَ ، وَإِذَا بِهِ فِي دَارِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَالَ : لَوْلَا مَا حَدَّثْتَ لَفَضِينَا حَاجَتَكَ ، ثُمَّ قَالَ : حَدِّثْنِي أَبِي عَلَيْهِ السَّلَامُ الْبَارِحَةَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ فَقَالَ : يَا بَنِي ! إِنِّي صَلَّيْتُ مَا وَزَّقَ اللَّهُ ، ثُمَّ نَمْتُ نَوْمَةً ، فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَشَكَوْتُ إِلَيْهِ مَا أَتَا فِيهِ مِنْ مَخَالَفَةِ أَصْحَابِي وَقِلَّةِ رَغْبَتِهِمْ فِي الْجِهَادِ ، فَقَالَ : ادْعِ اللَّهَ أَنْ يَرْجِعَكَ مِنْهُمْ ، فَدَعَوْتُ اللَّهَ ، قَالَ الْحَسَنُ : ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَانَ مَا قَدْ عَمِلْتُ .

وُحْدِثَتْ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ : أَنَّ عَلِيًّا لَمَّا ضُرِبَ ثُمَّ دَخَلَ مَنَازِلَهُ اعْتَرَتْهُ غَشِيَّةٌ ثُمَّ أَفَاقَ ، فَدَعَا الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ ، فَقَالَ : أَوْصِيكُمَا بِتَقْوَى اللَّهِ وَالرَّغْبَةِ فِي الْآخِرَةِ ، وَالزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا ، وَلَا تَأْسَفَا عَلَى شَيْءٍ فَاتَكُنِمَا مِنْهَا ، أَعْمَلَا الْخَيْرِ ، وَكُفْرًا لِلظَّالِمِ خَصْمًا ، وَالْبُظْلُومَ عَوْنًا ، ثُمَّ دَعَا مُحَمَّدًا فَقَالَ : أَمَا سَمِعْتَ مَا أَوْصَيْتُ بِهِ أَخَوَيْكَ ؟ قَالَ : بَلَى ، قَالَ : فَإِنِّي أَوْصِيكَ بِهِ ، وَعَلَيْكَ بِبِرِّ أَخَوَيْكَ

وتوقيرهما ومعرفة فضلها ، ولا تقطع أمراً دونها ، ثم أقبل عليهما فقال :
أوصيكما به خيراً ، فإنه شقيقكما وابنُ أيسكما ، وأنتما تعلمان أن أباكما كان
محبته ، فأجاباه . فلما قضى عليّ كرم الله وجهه قالت أمّ العريان :

وَكُنَّا قَبْلَ مَهْلِكِهِ زَمَانًا نَرَى نَجْوَى رَسُولِ اللَّهِ فِينَا
قَتَلْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَكْرَمَهُمْ وَمَنْ رَكِبَ السَّيْفِ
أَلَا أَبْلَغُ مُعَاوَةَ بْنِ حَرْبٍ فَلَا قُرْتَ عُيُونُ الشَّامِتِينَ

ويروى : أن عبد الرحمن بن ملجم بات تلك الليلة عند الأشعث بن
قيس بن معدية كرب ، وأت حُجْر بن عديّ سمع الأشعث يقول له :
فضحك الصُّبحُ ، فلما قالوا : قُتل أميرُ المؤمنين قال حُجْر بنُ عديّ للأشعث :
أنت قتله يا أعور ! ويروى : أن الذي سمع ذلك أخو الأشعث ، عفيف بن
قيس ، وأنه قال لأخيه : عن أُمرك كان هذا يا أعور !

★ ★ ★

وأخبارُ الحوارج كثيرةٌ طويلةٌ ، وليس كتابنا هذا مفرداً لهم ،
ولكننا نذكر من أمورهم ما فيه معنى وأدبٌ ، أو شعرٌ مستطرفٌ ،
أو كلامٌ من خطبةٍ معروفةٍ مختارةٍ .

★ ★ ★

خرجَ قُريبُ بنُ مرةَ الأزديّ وزحافُ الطائي ، وكلاهما مجتهدان بالبصرة
في أيام زيادٍ ، واختلف الناس في أمورهما ، أما كان الرئيس ، فاعترض الناس ،
فلقيا شيئاً ناسكاً من بني ضبيعة بن ربيعة بن زرارٍ ، فقتلاه ، وكان يقال له
رموبة الضبيعي ، وتنادى الناس ، فخرج رجلٌ من بني قطيعة من الأزد وفي
يده السيف ، فناداه الناس من ظهور البيوت : الحوروية الحوروية ! انسج
بنفسك ، فتأذوه : لسانحوروية ، نحن الشرط ، فوقف فقتلوه ، وبلغ
أبا بلال خبرهما ، فقال : قريبٌ لا قرّبه الله من الخير ، وزحافٌ لا عفا الله

عنه ، ركبها عشواء مظلمة ، يريد اعتراضها الناس ، ثم جعل لا يمر أن بقيه إلا قتل من وجدا ، حتى مرأى بيني علي بن سود من الأزدي ، وكانوا رماة ، وكان فيهم مائة يجيدون الرمي ، فرمواهم رميا شديدا ، فصاحوا : يا بني علي ! البقية ، لا رماة بيننا ، فقال رجل من بني علي :

لا شيء للقوم سوى السهام مشحونة في غلّس الظلام

فعمدّ عنهم الحوارج ، وخافوا الطلب ، فاستقوا مقبرة بني يشكر ، حتى نفذوا إلى مزينة ، ينتظرون من يلحق بهم من ضر وغيرها ، فجاءهم ثانون ، وخرجت إليهم بنو طاحية بن سود وقبائل مزينة وغيرهما ، فاستقل الحوارج فقتلوا عن آخرهم ، ثم غدا الناس إلى زياد فقال : ألا نهى كل قوم سفاهم ؟ بامعشر الأزدي ! لولا أنكم أطفأتم هذه النار لثلك إنكم أرتسموها ، فكانت القبائل إذا أحست بخارجية فيهم شدتهم وثاقا وأنت بهم زيادا ، فكان هذا أحدا ما يذكر من صفة تدبيره .

وله أخرى في الحوارج : أخرجوا معهم امرأة ، فظفر بها فقتلها ، ثم عرّاهها . فلم تخرج النساء بعد على زياد ، وكن إذا دعين إلى الخروج قلن : لولا التعرية لسارنا .

ولما قتل مصعب بن الزبير بنت النعمان بن بشير الأنصارية امرأة المختار - وليس هذا من أخبار الحوارج - أنكره الحوارج غاية الإنكار ، ورأوه قد أتى بقتل النساء أمرا عظيما ، لأنه أتى مانه عن رسول الله ﷺ في سائر نساء المشركين . وللخواص منهن أخبار ، فقال عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة :

إن من أعظم الكبائر عندي قتل حسناء غادية عطبول
قتلت باطلا على غير ذنب إن لله دَرما من قتل
كسب القتل والقتال علينا وعلى المحصنات نجر الذبول

قال : وكانت الحوارج أيام ابن عامر أخرجوا معهم امرأة ، يقال لإحداها كحيلة ، والأخرى قطام ، فبعل أصحاب ابن عامر يعيرونهم ويتصيحون بهم : يا أصحاب كحيلة وقطام ! يعرضون لهم بالفجور ، فتأديهم الحوارج بالدق والردع ، ويقول قائلهم : لا تقف ما ليس لك به علم .

ويروى عن ابن عباس في هذه الآية : (والتذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً) قال : أعياد المشركين . وقال ابن مسعود : الزور : الغفاء قليل لا بن عباس : أو ما هذا في الشهادة بالزور ؟ فقال : لا ، إنما آية شهادة الزور : (ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً) .

★ ★ ★

عاد الحديث إلى أمر الحوارج .

وكان من المحدثات من الحوارج ، ولو قلت : من المجتهدين - وأنت تعني امرأة - كان أفصح ، لأنك تريد رجالاً ونساءً هي إحداهم ، كما قال الله عز وجل : (وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين) وقال جل ثناؤه : (إلا عبثوا في الغابرين) . منهم البلغاء ، وهي امرأة من بني حرام بن يبرع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ، من وسط سجاح ، التي كانت ثباتاً ، وسذكراً خيراً في موضعه إن شاء الله . وكان مرداس ابن حدير أبو بلال ، وهو أحد بني ربيعة بن حنظلة تعظمه الحوارج ، وكان مجتهداً كثير الصواب في لفظه ، فلقبه غيلان بن خرشة الضبي ، فقال : يا أبا بلال ! إني سمعت الأمير البارحة عبيد الله بن زياد يذكر البلغاء ، وأحسبها ستؤخذ ، فضى إليها أبو بلال ، فقال لها : إن الله قد وسع على المؤمنين في التقي . فاستعري ، فإن هذا المشرف على نفسه الجبار العبد قد ذكرك ، قالت : إن بأخذني فخر أشقى بي ، فأما أنا فما أحب أن يُعنت إنسان

بسبي ، فوجه إليها عيده الله بن زياد فآقي بها فقطع يديها ورجليها ورمى بها في السوق ، فرأى أبو بلال والناس مجتمعون ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : البلاء ، فخرج إليها فنظرت ، ثم عضت على لحيته ، وقال لنفسه : لهذه أطيب نقأ عن بقية الدنيا منك يا مرداس .

ثم إن عيده الله تتبع الحوارج فحبسهم ، وحبس مرداساً ، فرأى صاحب السجن شدة اجتهاده وحلاوة منطقته ، فقال له : إني أرى لك منجأً حسناً ، وإني لأحب أن أوليك معروفاً ، أفرأيت إن تركتك تتصرف ، ليلاً إلى بيتك ، أتدليج إلي ؟ قال : نعم . فكان يفعل ذلك به ، ولج عيده الله في حبس الحوارج وقتلهم ، فكلم في بعض الحوارج فليج وأبى ، وقال : أقمع النفاق قبل أن ينبجم ، لكلام هؤلاء أسرع إلى القلوب من النار إلى اليرباع ، فلما كان ذات يوم قتل رجل من الحوارج رجلاً من الشرط ، فقال ابن زياد : ما أدري ما أصنع هؤلاء ، كلما أرت رجلًا بقتل رجلٍ منهم فتكوا بقاتله ؟! لأقتلن من في حبسي منهم ، فأخرج السجن مرداساً إلى منزله كما كان يفعل ، وأتى مرداساً الجبر ، فلما كان السمر تها للرجوع ، فقال له أهله : انتق الله في نفسك ، فإنك إن رجعت قتلت ، فقال : إني ما كنت لألقى الله غادراً ! فرجع إلى السجن ، فقال : إني علت ما عزم عليه صاحبك ، فقال : أعلت ورجعت ؟ !

ويروى : أن مرداساً مر بأعرابي عينا بعيوا له ، فهرج البعير ، فسقط مرداساً مغشياً عليه ، فظن الأعرابي أنه قد صرع ، فقرأ في أذنه ، فلما أفاق قال له الأعرابي : قرأت في أذنك ، فقال له مرداس : ليس بي ماخفته علي ، ولكنني رأيت بعيرك هرج من القطران ، فذكرت به قطران جهنم ، فأصابني ما رأيت ، فقال : لا جرم والله لا فارقتك أبداً .

وكان مرداس قد شهد صفين مع علي بن أبي طالب صلوات الله عليه ، وأنكر التحكيم ، وشهد التهر ، ونجا فيمن نجا ، فلما خرج من حبس ابن زياد ورأى جد ابن زياد في طلب الشراء ، عزم على الخروج ، فقال لأصحابه :

إنه والله ما يسعنا المقام بين هؤلاء الظالمين ، تجري علينا أحكامهم ، مجانين للعدل
مفارقين للفصل ، والله إن الصبر على هذا لعظيم ، وإن تجريد السيف وإخافة
السبيل لعظيم ، ولكننا نتبذ عنهم ، ولا نجرد سيفاً ، ولا نقاتل إلا من قاتلنا ،
فاجتمع إليه أصحابه زهاء ثلاثين رجلاً ، منهم حريث بن حجل ، وكهمس بن
طلح الصريمي ، فأرادوا أن يولوا أمرهم حريشاً ، فأبى فولوا أمرهم مرداساً ،
فلما مضى بأصحابه لقيه عبد الله بن رباح الأنصاري ، وكان له صديقاً ، فقال
له : يا أخي أين تريد ؟ قال أن أهرب بديني وأديان أصحابي من أحكام هؤلاء
الجور ، فقال له : أعلم بك أحد ؟ قال : لا ، قال : فارجع ، قال : أو
تخاف علي مكرهاً ؟ قال : نعم ، وأن يؤتى بك ، قل : فلا تخف ، فإني
لا أجرد سيفاً ، ولا أخيف أحداً ، ولا أقاتل إلا من قاتلني ، ثم مضى حتى
نزل آسك ، وهو ما بين رامهرمز وأرجان ، فر به مالٌ يحمل لابن زياد ،
وقد قارب أصحابه الأربعين ، فسط ذلك المال فأخذ منه عطاءه وأعطيات
أصحابه ، ورد الباقي على الرسل ، وقال : قولوا لصاحبكم : إنما قبضنا أعطياتنا ،
فقال بعض أصحابه : فعلام ندع الباقي ؟ فقال : إنهم يقيمون هذا الفياء كما
يقيمون الصلاة فلا نقاتلهم .



ولأبي بلال أشعارٌ في الخروج اخترت منها قوله :

أبعد ابن وهب ذي الزاغة والتقى ومن خاض في تلك الحروب المهالكا
أحب بقاءً أو أرجى سلامةً وقد قتلوا زيد بن حصن ومالكا
فيا رب سلم نيتي وبصيرتي وهب لي التقى حتى ألاق أولئكا

قوله : « وقد قتلوا » ولم يذكر أحداً ، وإنما فعل ذلك لعلم الناس أنه
يعني مخالفه ، وإنما يحتاج الضمير إلى ذكرٍ قبله ليعرف ، فلو قال رجلٌ :
ضربته ، لم يحز ، لأنه لم يذكر أحداً قبل ذكره الماء ، ولو رأيت قوماً يلتمسون

الحلال فقال قومٌ : هذا هو ، لم يمتج إلى مقدمة الذكر ؛ لأن المطلوب معلومٌ ، وعلى هذا قال علقمة بن عبدة في اقتراح قصيدته :
 هل ما علمت ما استودعت مكتوم أم جلبها إذ نأثك اليوم مصروم
 لأنه قد علم أنه يريد حيلة له :
 وقوله : « حتى ألاقى » ولم يجرّك إلياء فقد مضى شرحه مستقصى .

* * *

ويروى : أن رجلاً من أصحاب ابن زيادٍ قال : خرجنا في جيش يزيد خراسان ، فردنا بأهلك ، فإذا نحن بهم ستة وثلاثين رجلاً ، فصاح بنا أبو بلال : أقاصدون لقتالنا أتم ؟ وكنت أنا وأخي قد دخلنا زرباً ، فوقف أخيه يباه فقال : السلام عليكم ، فقال مرداسٌ : وعليكم السلام ، فقال لأخيه : أجمتم لقتالنا ؟ فقال له : لا ، إنما يزيد خراسان ، قال : فأبلغوا من لئكم أنا لم نخرج لنفس في الأرض ، ولا نروع أحداً ، ولكن هرباً من الظلم ، ولنا نقاتل إلا من يقاتلنا ، ولا نأخذ على الفية إلا أعطياتنا ، ثم قال : أئندب إلينا أحدٌ ؟ قلنا : نعم ، أسلم بن زرة الصكلاني ، قال : فتى تروته يصل إلينا ؟ قلنا : يوم كذا وكذا ، فقال أبو بلال : حبنا الله ونعم الوكيل .

وجّهت عبيد الله أسلم بن زرة في أسرع وقتٍ ، ووجهه إليهم في الليل ، وقد تمام أصحاب مرداسٍ أربعين رجلاً ، فلما صار إليهم أسلم صاح به أبو بلال : اتق الله يا أسلم ؛ فإننا لا نريد قتالاً ، ولا نحتجن فيةً ، فما الذي تريد ؟ قال أريد أن أردكم إلى ابن زيادٍ ، قال مرداسٌ : إذا يقتلنا ، قال : ولما قتلكم ؟ قال : تشركه في دمائنا ؟ قال : إني أدين الله بأنه عتق وأنكم مبطون ، فصاح به حريث بن حجر : أهو عتق وهو بطيع الفجرة ، وهو أحدم ، ويقتل بالظنّة ، ويخص بالفية ، ويجور في الحكم ؟! أما علمت أنه قتل ابن سعاد أربعة برآء ، وأنا أحد قتله ، ولقد وضعت في بطنه دراهم كانت معه ؟ ثم

حملوا عليه حمة رجل واحد ، فانهمز هو وأصحابه من غير قتال ! وكان معبد
 - أحد الحوارج - قد كاد يأخذه فلما ورد على ابن زياد غضب عليه غضباً شديداً ، وقال :
 ويحك ! أنهي في ألحق فتتهمز لحمة أربعين ؟! وكان أسلم يقول : لأنت ينمئي
 ابن زياد حياً أحب إلي من أن يمدحني ميتاً !! وكان إذا خرج إلى السوق أو
 مر بصبيان صالحو به : أبو بلال ورامك !! وربما صالحو به : يا معبد خذ !!
 حتى شكا ذلك إلى ابن زياد ، فأمر ابن زياد الشرط أن يكفوا الناس عنه ،
 فلي ذلك يقول عيسى بن فالك ، من بني تميم اللات بن ثعلبة ، في كلمة له :

فلما أصبحوا صالوا وقاموا	إلى الجرد العتاق مسومينا
فلما استجمعوا حملوا عليهم	فظل ذوو الجعائل يقتلوننا
بقية يومهم حتى أظلم	سواد الليل فيه يراوغنا
يقول بصيرم لما أظلم	بأن القوم ولوا هارينا
ألفا مؤمن فيا زعمتم	وهزمهم بأسك أربعمنا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم	ولكن الحوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة غير شك	على الفئة الكثيرة ينصروننا

ثم ندب لهم عبيد الله بن زياد الناس ، فاختر عباد بن أخضر ، وليس
 بابن أخضر ، هو عباد بن علقمة الملقب ، وكلت أخضر زوج أمه ، فغلب
 عليه ، فوجه في أربعة آلاف ، فهد لهم ، ويزعم أهل العلم أن القوم قد
 كانوا تنحوا عن دوا يجرد من أرض فارس ، فصار إليهم عباد ، وكان التقاؤم
 في يوم جمعة ، فناداه أبو بلال : اخرج إلي يا عباد ، فأبى أريد أن أحاورك !
 فخرج إليه ، فقال : ما الذي تبغي ؟ قال : أن آخذ بأقائكم فأردكم إلى الأمير
 عبيد الله بن زياد ! قال : أو غير ذلك ؟ قال : وما هو ؟ قال : أن ترجع ،
 فإننا لا نخيف سيلاً ، ولا نذعر مسلماً ، ولا نخارب إلا من حاربنا ، ولا نخبي
 إلا ما جئنا ، فقال له عباد : الأمر ما قلت لك ، فقال له حريث بن حبل :
 أتحاول أن ترد فئة من المسلمين إلى جبار عبيد ؟ قال لهم : أنتم أولى بالضلال
 منه ، وما من ذاك بدء .

وقدم القعقاع بن عطية الباهلي^{*} من خراسان يريد الحج ، فلما رأى الجمع قال :
 ما هذا ؟ قالوا الشّراة ، فحمل عليهم ، ونشبت الحرب ، فأخذ القعقاع أسيراً ،
 فأتى به أبو بلال ، فقال : ما أنت ؟ قال . لست من أعدائك ، وإنما قدمت
 للحج فجهت وغررت ! فأطلقه ، فرجع إلى عبّاد فأصلح من شأنه ، ثم حمل^{*}
 عليهم ثانية^{*} ، وهو يقول :

أقاتلهم^{*} وليس علي بعث^{*} نشاطاً ليس هذا بالنشاط
 أكره^{*} على الحرويين مهري لأحملهم على وضع الصّراط

فحمل عليه حريث بن حجل السدوسي^{*} وكهس بن طلق الصريمي ، فأسراه
 فقتلاه ولم يأتيا به أباً بلال ، فلم يزل القوم يحتلدون حتى جاء وقت الصلاة ،
 صلاة يوم الجمعة ، فناداهم أبو بلال : يا قوم ! هذا وقت الصلاة ، فوادعونا حتى
 نصلي وتصلوا ، قالوا : لك ذاك ، فرمى القوم أجمعون أسلحتهم وعمدوا إلى
 الصلاة ، فأسرع عبّاد ومن معه والحروية مطوّزون ، فهم من بين راكم وقائم^{*}
 وساجد في الصلاة وقاعد ، حتى مال عليهم عبّاد ومن معه فقتلهم جميعاً ، وأتى
 برأس أبي بلال .

وتروى الشّراة : أن مرداساً أباً بلال لما عقد على أصحابه وعزم على الخروج
 رفع يديه وقال : اللهم إن كان ما نحن فيه حقاً فأرنا آية ، قال : فرجف
 البيت . وقال آخرون : فارتفع السقف .

فروى أهل العلم : أن رجلاً من الخوارج ذكر ذلك لأبي العالية الرياحي^{*}
 يعجبه من الآية ، ويرغبه في منهب القوم ، فقال أبو العالية : كاد الحسف ينزل
 بهم ثم أدركنهم نظرة الله .

فلما فرغ من أولئك الجماعة أقبل بهم فصلبت رؤوسهم ، وفيهم داؤود بن شبت ،
 وكان ناسكاً ، وفيهم حبيبة النصري^{*} من قيس وكان مجتهداً .

فيروى عن عمران بن حطان : أنه قال : قال لي حبيبة : لما عزمت^{*} على

الحروج فكرت في بناتي ، فقلت ذات ليلة لأمكن عن تفقدن حتى انظر ،
فلما كن في جوف الليل استقت بنية لي ، فقالت : يا أبة اسقي فلم أجبها ،
فأعادت ، فقامت أخته لما أسن منها فسقتها ، فعلت أن الله عز وجل غير
مضيعهن ، فأنمت عزمي .

وكان في القوم كهنس ، وكان من أبر الناس بأمه ، فقال لما يأمه !
لولا مكانك لحرجت ، فقالت يابني ! قد وهبك الله ، فبي ذلك يقول عيسى
ابن فانك الجبلي :

ألا في الله لا في الناس سالك بداؤود وإخوته الجدوع
مضوا قسلاً وتزيقاً وصلباً نحمم عليهم طير وقوع
إذا ما الليل أظلم كابدوه فيسفر عنهم وهم ركوع
أطار الحرف نومهم فقاموا وأهل الأمن في الدنيا هجوع
وقال عمران بن حطان :

يا عين بكسي لمرداس ومصرعه يارب مرداس اجلاني كرداس
تركني هائلاً أبكي لمزني في منزل موحش من بعد إيناس
أنكرت بعدك من قد كنت أعرفه ما الناس بعدك يامرداس بالناس
إما شربت بكاس دار أولها على القرون فذاقوا جرعة الكاس
فكل من لم يذقها شارب عجلأ منها بأنفاس ورد بعد أنفاس

★ ★ ★

قال أبو العباس : ثم إن عباد بن أخضر المازني لبث دعراً في المصر ،
محمداً موصوفاً بما كان منه ، فلم يزل على ذلك حتى ائتمر به جماعة من الحوارج
أن يقتلوه به ، فذمر بعضهم بعضاً على ذلك ، فجلسوا له في يوم جمعة ،
وقد أقبل على بقة له ، وابنه رديفه ، فقام إليه رجل منهم ، فقال : أسالك
عن مسئلة ؟ قال : قل ، قال : أرايت رجلاً قتل رجلاً بغير حق ، ولقتل

جاءَ وقدرَ وناحيةً من السلطان ، أُوليَ ذلك المقتول أن يفتك به إن قدرَ عليه ؟ قال : بل يرفعه إلى السلطانِ ، قال : إن السلطان لا يعدي عليه لمكانه منه وعظيم جلاله عنده ، قال : أخافُ عليه إن فتك به فتك به السلطانُ ، قال : دعُ ما تخافه من ناحية السلطان ، أتلقه تبعه فبما بينه وبين الله ؟ قال : لا ، قال : فحكمتمُ هو واصحابه ، وخطوه بأسياهم ، ورعى عبادُ ابنه فنجأ ، وتنادى الناسُ : قتل عبادُ ، فاجتمع الناسُ فأخذوا أفواه الطرقِ ، وكان مقتل عبادٍ في سكةِ بني مازن عند مسجد بني كليبٍ ، فجاء معبدُ بن أخضر أخو عبادٍ ، وهو معبد بن علقمة ، وأخضرُ زوج أمها ، في جماعة من بني مازنٍ ، فصاحوا بالناسِ : دعونا ونأرتنا ، فأحجم الناسُ وتقدم المازنيون ، فحاربوا الحوارج حتى قتلوم جميعاً ، لم يفلت منهم أحدٌ إلا عبيدة بن هلالٍ ، فإنه خرق خصاً ونفذ منه ، ففي ذلك يقول الفرزدق :

لقد أدرك الأوتارَ غير ذميمةٍ إذا ذمَّ طلابُ الترات الأخضر
هم جردوا الأسياف يوم ابن أخضرٍ فقالوا التي ما فوقها قال ثائر
أقادوا به أسداً لما في اقتحامها إذا برزت نحو الحروب بشار
ثم ذكر بني كليبٍ : لأنه قتل بحضرة مسجدهم ولم ينصروه ، فقال في كلمته هذه :

كفعل كليبٍ إذ أخلت بجارها ونصر الئيم معتمٌ وهو حاضرٌ
وما لكليبٍ حين تذكُر أولٌ وما لكليبٍ حين تذكُر آخر

وقال معبد بن أخضر :

سامحي دماء الأخضريين إنه أبل الناس إلا أن يقولوا ابن أخضر

وكان مقتلُ عبادٍ وعبيدُ الله بن زمارٍ بالكوفة ، وخليفته على البصرة عبيد الله بن أبي بكرٍ ، فكتب إليه يأمره أن لا يدع أحداً يعرف بهذا الرأي إلا حسبه وجدته في طلبه ، ممن تغيّب منهم ، ففعل عبيد الله بن أبي بكرٍ بتبّعهم فباغضهم ، فإذا شفع إليه في أحد منهم كفه إلى أن يقدم ابن زمارٍ ، حتى أتته

بعروة بن أدية فاطقه ، وقال : أنا كفيك ، فلما قدم عيد الله بن زياد أخذ من في السجن منهم فقتلهم جميعاً ، وطلب الكفلاء بين كفلاؤا به منهم ، فكل من جاءه بصاحبه أطلقه وقتل الخارجى ، ومن لم يأت بمن كفل به منهم قتله ، ثم قال لعبيد الله بن أبي بكرة : هات عروة بن أدية ، قال : لا أقدر عليه ، قال : إذا والله أقتلك فإنك كفيه ! فلم يزل يطلبه حتى ذل عليه في سرب العلاء بن سوية الثقفي ، فكتب بذلك إلى عبيد الله بن زياد ، فقرأ عليه الكاتب : إنا أصبناه في سرب ، فتهاون به عبيد الله بن زياد ، وكان كثير الهاورة ، عاشقاً للكلام الجيد ، مستحسناً للصواب منه ، لا يزال يبحث عن عذره ، فإذا سمع الكلمة الجيدة عرج عليها .

ويروى : أنه قال في عقب مقتل الحسين بن علي عليه السلام لزئنب بنت علي رحمه الله ، وكانت أسن من حمل إليه منهن ، وقد كلمته فأفصحت وأبلغت ، وأخذت من الحبة حاجتها ، فقال لها : إن تكوفي بلغت من الحبة حاجتك فقد كان أبوك خطيباً شاعراً ، فقالت : ما للنساء والشعر ؟ وكلت مع هذا لكن يرتضخ لغة فارسية ، وقال لرجل مرة ، وإتهمه برأي الخوارج : أمروري منذ اليوم ؟

رجع الحديث :

فقال للكاتب : صحفت والله ولؤمت ، إنما هو في سرب العلاء بن سوية ، ولوددت أنه كان بمن يشرب النبيذ ، فلما أقيم عروة بن أدية بين يديه حاوره ، وقد اختلف الناس في خبره ، وأصح عندنا : أنه قال له : لقد جهزت أخاك علي ، فقال : والله لقد كنت به ضيقاً ، وكلت لي عزاً ، ولقد أردت له ما أريده لنفسى ، فعزم عزماً فضى عليه ، وما أحبّ لنفسى إلا المقام وترك الخروج ، قال له : أفأنت على رأيه ؟ قال : كلنا نعبد رباً واحداً ! قال : أما لأمثالن بك ! قال : اخترت لنفسك من القصاص ما شئت ؟ فأمر به فقطعوا يديه ورجليه ، ثم قال له : كيف ترى ؟ قال : أفندت علي دنياي وأفندت عليك آخرتك ، ثم أمر به فقتل ثم صلب على باب داره ، ثم دعا مولاة فسأله عنه ، فأجابه جواباً قد مضى ذكره .

قوله « فهايت ، حقيقة : تضاحك به ضحك هزيم ، وقال ابن أبي ربيعة
الجزومي :

ولقد قالت جلاوات لما وتعرت ذات يوم تبود :
أكما ينحني تبصرتني عمركن الله أم لا يقتصد ؟
فتهاقن وقد قلن لما : حسن في كل عين من تود
حسد محله من أجلها وقدما كان في الناس الحسد

• • •

وكان عبيد الله لا يلبث الخوارج ، يجبهم طرة ويقتلهم طرة ، وأكثر ذلك
يقتلهم ، ولا يتفاضل عن أحديهم . وسبب ذلك أنه كان أطلقهم من حبس
زياد لما ولي بعده ، فخرجوا عليه .

فأما زياد فظان يقتل المعلن ويستلح المسر ، ولا يجرد السيف حتى تزول
التهمة ، ووجه يوماً مجينة بن كيش الأعرجي إلى رجل من بني سعد يرى
رأي الخوارج ، فجاءه مجينة فأنهذه ، فقال : إني أريد أن أحدث وضوءاً
للصلاة ، فدعني أدخل إلى منزلي ، قال : ومن لي بخروجك ؟ قال : الله عز
وجل ، فتركه ، فدخل فأحدث وضوءاً ، ثم خرج فأتى به مجينة زياداً ، فلما
مثل بين يديه ذكر الله زياداً ، ثم صلى على نبيه ، ثم ذكر أبا بكر وعمر
وعثمان بخير ، ثم قال : قعدت عني فأنكرت ذلك ، فذكر الرجل ربّه
فحمدّه ووحدّه وأثنى عليه ، ثم ذكر النبي عليه السلام ، ثم ذكر أبا بكر
وعمر بخير ، ولم يذكر عثمان ، ثم أقبل على زياد فقال : إنك قد قلت قولاً
فصدقه بفعلك ، وكان من قولك : ومن قعد عنا لم نهجه ، فقعدت ، فأمر
له بصلّة وكسوة وحملان ، فخرج الرجل من عند زياد وتلقاه الناس يسألونه ،
فقال : ما لكم أستطيع أن أخبره ، ولكني دخلت على رجل لا يملك ضراً ولا
نفعاً لنفسه ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، فرزق الله منه ملثون .

وكان زياد يبعث إلى الجماعة منهم فيقول : ما أحسب الذي يمنعكم من إتياني
إلا الرهجة ، فيقولون : أجل ، فيحملهم ، ويقول اغشوني الآن واسمروا عندي ،

فبلغ ذلك عمر بن عبد العزيز ، فقال : قاتل الله زباداً ، جمع لهم كما تجمع
النردة ، وحاطهم كما تحوط الأم البوثة ، وأصلح العراق ، بأهل العراق ،
وترك أهل الشام في شأهم ، وجبى العراق مائة ألف ألف ومائة عشر
ألف الف .

قال أبو العباس : وبلغ زباداً عن رجل يكنى أبا الخير ، من أهل الباس
والنجدة ، أنه يرى رأي الحوارج ، فدعاه فولاه جندى سابور وما يليها ، ورزقه
أربعة آلاف درهم في كل شهر ، وجعل عماله في كل سنة مائة ألف ، فكان
أبو الخير يقول : ما رأيت شيئاً خيراً من لزوم الطاعة والتقلب بين أظهر الجماعة !!
فلم يزل والياً حتى أنكر منه زياداً شيئاً ، فتمرّ زبادي فحبسه ، فلم يخرج من
حبسه حتى مات .

* * *

وقال الرهين ، وكان رجلاً من مراد ، وكان لا يرى القعود عن الحرب وكان
في الدماء والمعرفة والشعر والفقه ، يقول الحوارج ، بنزلة عمران بن حطان ،
وكان عمران بن حطان في وقته شاعر قعد الصغرية ورئيسهم ومفتيهم .

وللهين المرادي ولعمران بن حطان مسائل كثيرة من أبواب العلم في القرآن
وفي الآثار ، وفي السير والسنن ، وفي الغريب وفي الشعر ، نذكر طريفاً إن
شاء الله . قال المرادي :

يأنس قد طال في الدنيا مُراوغتي لا تأمنن لصرف الدر تغيضا
إني لبائع ما يفنى لباقيّة إن لم يعقني رجاء العيش تريبا
وأسأل الله يبيع النفس محتسباً حتى ألاقى في الفردوس حرقوما

قال الأخفش : حرقوص : ذو النديّة .

وابن النخع ومراداً وإخوته إذ فارقوا زهرة الدنيا غاميصا
قال أبو العباس : وهذه كلمة له ، وله أشعر في مذاهيم .

وكان زيادٌ وليّ شيان بن عبد الله الأشعري صاحب مقبرة بني شيان باب
عُثْن وما يليه ، فجدّ في طلب الحوارج وأخافهم ، وكنّوا قد كثروا ، فلم يزل
كذلك حتى آفاه ليلٌ وهو متكئٌ بياب داره رجلان من الحوارج ، فضربه
بأسياهما فقتلاه ، وخرج بنون له للأنثاة فقتلوا ، ثم قتلها الناس فأقي زيادٌ بعد
ذلك يجرل من الحوارج ، فقال : اقلّوه متكئاً كما قتل شيان متكئاً ، فصاح
الحوارجي : يا عدلاه !! عزأ به !

فأمّا قول جرير :

ومنا قتيّ القتيان والبأس معقلٌ ومنا الذي لاقى بدجلة معقلا
— : فإنه أراد معقل بن قيس الريلحي ، ودياح ابن يربوع ، وجرير من بني
كليب بن يربوع .

وقوله « ومنا الذي لاقى بدجلة معقلا » يريد المستورد التيمي ، وهو من
بني تيم بن عبد مائة بن أد ، وعمّ ابن مرّ بن أد .

وأما قول ابن الرقيات :

والذي نقص ابن دومة مائة حي الشياطين والسيوف ظهرا
فأباح العراق يضربهم بالسيف صلّا وفي الضراب غلاه
— : فالما يريد ابن دومة المختار بن أبي عبيد الثقفي ، والذي نقصه
مصعب بن الزبير ، وكان المختار لا يوقف له على مذبح ، كان خارجياً ، ثم صار
زبيرياً ، ثم صار رافضياً في ظلمه !!

وقوله « مانوحي الشياطين » فإن المختار كان يدعي أنه يلهم ضرباً من
لستاعة لأموه تكون ، ثم يجتال فوقها ، فيقول للناس : هذا من عند الله
عز وجل .

فمن ذلك قوله ذات يوم : كنزلن من السماء ناراً دماء ، فلتحرقن دار
أسماء ، فذكر ذلك لأسماء بن خارجة ، فقال : أقصد سجع أبي إسحق ؟ هو
الله محرق داري ! فتركه والدار وهرب من الكوفة .

وقال في بعض سجنه : أما والذي شرع الأديان ، وجنب الأوثان ،
وكره العصيان ، لأقتلن أزدعمان ، وجلّ قيس عيلان ، وقيماً أولياء الشيطان ،
وحاشا النجيب ظيان ! فكان ظيان النجيب يقول : لم أزل في سمر المختار
أقلّب آمناً .

• • •

ويروى : أن المختار بن أبي عبيدٍ حيث كان والياً لابن الزبير على الكوفة
اتهمه ابن الزبير ، فولى رجلاً من قريش للكوفة ، فلما أطلّ قال جماعة من
أهلها : اخرجوا إلى هذا المغرور فردّوه ، فخرجوا إليه ، فقالوا : أين تريد ؟
واذهب لدخلت الكوفة ليقنتك المختار ، فرجع ، وكسب المختار إلى ابن الزبير : إن صاحبك
جاءنا فلما قاربنا رجع ، فما أدري ما الذي ردّه ! فغضب ابن الزبير على القرشي
وعجزه وردّه إلى الكوفة ، فلما شرفها قال المختار : اخرجوا إلى هذا المغرور
فردّوه ، فخرجوا إليه ، فقالوا : إنه والله قاتلك ، فرجع ، وكسب المختار
إلى ابن الزبير بمنل كتابه الأول ، فلام القرشي ، فلما كان في الثالثة فطن ابن
الزبير ، وعلم بذلك المختار ، وكان ابن الزبير قد حبس محمد بن الحنفية مع خمسة
عشر رجلاً من بني هاشم ، فقال : لتبايعنّ أو لأحرقنكم ، فأبوا بيعته وكان
السجن الذي حبسهم فيه يدعى سجن عارم ، ففي ذلك يقول كثير :

تخيّر من لاقيت أنك عانده بل العائد المظلوم في سجن عارم
ومن يلق هذا الشيخ بالحيف من مئ من الناس يعلم أنه غير ظالم
سمي النبي المصطفى وابن عمه وفكاك أغلال وقاضي مقامم
وكان عبد الله بن الزبير يدعى العائد ، لأنه عاذ باليت ، ففي ذلك يقول
ابن الرقيات يذكر مصعباً :

بلد تامن الجماعة فيه حيث عاذ الخليفة المظلوم
وكان عبد الله يدعى المحيل ، لإحلاله القتال في الحرم ، وفي ذلك يقول
وجل في رمة بنت الزبير :

ألا من لقلبٍ مُعْتَصِي غَزَلٍ بذكر الحقة أخت المحلّ

وكان عبد الله بن الزبير يظهر البغض لابن الحنفية إلى بغضِ أمه ، وكان يحسده على أبيه ، ويقال : أن عليّاً استطال دوعاً فقال : ليتقص منها كذا وكذا حلقة ، فقبض محمد بن الحنفية بإحدى يديه على ذيلها ، وبالأخرى على فضلها ، ثم جذبها فقطعها من الموضع الذي حده نوره فكان ابن الزبير إذا حدث بهذا الحديث غضب واعتراه له أفكل ، فلما رأى المختار أن ابن الزبير قد ضلن لما أراد كتب إليه : من المختار بن أبي عبيد التقي خليفة الوصي محمد بن علي أمير المؤمنين إلى عبد الله بن أسماء ، ثم ملأ الكتاب بسبه وسب أبيه ، وكان قبل ذلك في وقت إظهاره طاعة ابن الزبير يدس إلى الشيعة ، ويعلمهم موالاته وإيام ، ويخبرهم أنه على رأيهم ومحمد مذهبهم ، وأنه سيظهر ذلك عمّا قليل ، ثم وجه جماعة قسوة الليل وتكمن النار ، حتى كسروا سجن علوم واستخرجوا منه بني هاشم ، ثم ساروا بهم إلى مأمهم .

وكان من عجائب المختار أنه كتب إلى إبراهيم بن مالك الأشتري يسأله الخروج إلى الطلب بدم الحسين بن علي رضي الله عنهما ، فأبى عليه إبراهيم إلا أن يستأذن محمد بن علي بن أبي طالب ، فكتب إليه يستأذنه في ذلك ، فعلم محمد أن المختار لا عقد له ، فكتب محمد إلى إبراهيم بن الأشتري : إنه ما يسوءني أن يأخذ الله بمحقتنا على يدي من يشاء من خلقه ، فخرج معه إبراهيم بن الأشتري فتوجه نحو عبيد الله بن زياد ، وخرج يشيعه ماشياً ، فقال له إبراهيم : اركب يا أبا إسحق ! إني أحب أن تغبر قدمي في نصرته آل محمد عليهم السلام ، فشيعة فرسخين ، ودفع إلى قوم من خاصته حاماً أيضاً ضخماً ، وقال : إن رأيتم الأمر لنا فدعوا ، وإن رأيتم الأمر علينا فأرسلوها ، وقال قناس : إن استقم فبنصر الله ، وإن حسم حصة فإني أجد في محكم الكتاب ، وفي اليقين والصواب ، أن الله مؤيدكم بلائكة غضاب ، تأتي في صور الحمام دوين السحاب ! فلما صار ابن الأشتري بجازرو وبها عبيد الله بن زياد قال : من صاحب الجيش ؟ قيل له :

ابن الأَشر ، قال أليس الغلام الذي كان يُطير الحمام بالكوفة ؟ قالوا : بلى ، قال :
ليس بشيء ، وعلى مينة ابن زياد حُضينٌ بن غير السكوني من كندة ، ويقال
للسكوني والسكوني ، والسُدومي والسُدومي ، كذا كان أبو عبيدة يقول ،
(قال أبو الحسن : السكوني أكثر) وعلى ميسرته عمير بن الجباب فارسُ
الاسلام ، فقال حُضين بن مُعير لابن زياد : ان عمير بن الجباب غير ناسٍ
قتل المِرج ، وإني لا أثق لك به ، فقال ابن زياد : أنت لي عدو ، قال حُضين :
ستعلم ، قال ابن الجباب : فلما كان في الليلة التي نريد أن نوقع ابن الأَشر في
صيححتها خرجت إليه ، وكان لي صديقاً ، ومعني رجلٌ من قومي ، فحضرتُ إلى
عسكره ، فرأيت عليه قميص هروي وملاءة ، وهو متشحّ السيف يحوسُّ عسكره
فيأمر فيه وبنى ، فالتزمت من ورائه ، فوافقه ما التقت الي ، ولكن قال : من
هذا ؟ فقلت : عمير بن الجباب ، فقال : مرحباً بأبي المخلص ، كن بهذا الموضع
حتى أعود إليك ، فقلت لصاحبي : رأيت أشجع من هذا قط ؟ ! يجتضه رجلٌ
من عسكر عدوّه ، ولا يدري من هو ؟ فلا يلتفتُ إليه !! ثم عاد إلي وهو
في أربعة آلاف ، فقال : ما الخبر ؟ فقلت : القوم كثير ، والرأي أن نتأخر ،
فانه لا صبر بهذه العصاة القليلة على مطاولة هذا الجمع الكثير ، فقال : نصبح
إن شاء الله ثم غاكنهم إلى طبات السيوف وأطراف القنا ، فقلت : أنا منخزلٌ
عنك بثلك الناس غداً ، فلما التقوا كانت على أصحاب ابراهيم في أول النهار ،
فأرسل أصحاب المختار الطير ، فتصاحج الناس : الملائكة !! فراجعوا ، ونكس
عمير بن الجباب رأيت ، وندى يالثرات المِرج ! وانخزل بالميسرة كلها ، وفيها
قيسٌ فلم يعصوه ، واقتل الناس حتى اختلط الظلام ، وأسرع القتل في أصحاب
عبيد الله بن زياد ، ثم انكشفوا ، ووضع السيفُ فيهم حتى أفتوا ، فقال ابن
الأَشر : لقد ضربتُ رجلاً على شاطئ هذا النهر فرجع إليّ سيفي ومنه رائحة
المسك ! ورأيت إقداماً وجراًء ، فصرعته فنهبت يدها قبل المشرق ورجلاه قبل
المغرب ، فانظروه ، فأتوه بالنيران ، فاذا هو عبيد الله بن زياد .

وقد كان عند المختار كرمي قديم العهد ، فغشاه بالدياج ، وقال : هذا
الكرمي من ذخائر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فضعوه في
براكاه الحرب ، وقاتلوا عليه ، فان محله فيكم محل السكينة في بني إسرائيل !!
ويقال أنه استوى ذلك الكرمي بدرهمين من نخار .

وقوله « في براكه القتال » يقال براكاه وبروكاه ، وهو موضع اصطدام
القوم ، قال الشاعر :

وليس ينقذ لك منه إلا براكاه القتال أو الفرار

x x x

هذا باب اللام

التي للاستثانة والتي للإضافة

إذا استغثَ بواحدٍ أو بجماعةٍ فاللامُ مفتوحةٌ ، تقول : يا للرجالِ ، واللقومِ ،
والزَّيْدِ ، إذا كنتَ تدعوم .

ولما فتحتها لتفصيلٍ بين المدعوِّ والمدعوِّ له ، ووجب أن تفتحها لأن أصلَ
اللامِ الحافضةِ إنما كان الفتحَ ، فكُسِرَتْ مع المظهرِ ليُفعلَ بيننا وبين لأمِ
التوكيدِ ، تقول : إنَّ هذا لَزَيْدٌ ، إذا أردتَ إنَّ هذا زَيْدٌ ، وتقول :
إنَّ هذا لَزَيْدٌ ، إذا أردتَ أنه في ملكه ، ولو قَسَعَتْ لالتَبَسَا .

فإن وقعت اللامُ على مضمَرٍ فتحتها على أصلها ، فقلت : إنَّ هذا لك ،
وإنَّ هذا لأنَّكَ ، إذا أردتَ لامِ التوكيدِ ، لأنه ليسَ ههنا لبسٌ ، وذلك
أنَّ الأسماءَ المضمرةَ على غيرِ لفظِ المظهرِ ، فلها أجزأتها على الأصلِ ،
والاستغاثَةُ تَرُدُّها إلى أصلها من أجلِ اللبسِ .

والمدعوُّ له في بابهِ ، فاللامُ معه مكسورةٌ ، تقولُ : يا للرجالِ لِلْمَاءِ ،
وللرجالِ الْعَجَبِ ، والزَّيْدِ الْخُطْبِ الْجَلِيلِ ، قال الشاعرُ :

يا للرجالِ ليومِ الأربعاءِ أما ينفكُّ يعثُّ لي بعد النسي طرباً
وقال آخرُ :

تكنفني الوُشاةُ فازعجوني فيا للناسِ للنواصي المطاعِ

وفي الحديثِ لما طعنَ العليُّ أو العبدُ عمرَ بن الخطابِ رضوان الله عليه
صاح : يا لله يا مسلمين .

وتقول : يا لعجب ، إذا كنت تدعو إليه ، و د يا ، لغير العجب ،
كانك قلت : يا للناس للعجب ، ويُشيد هذا البيت :

بالعنة الله والأقوام كلهم والصالحين على سمعان من جابر

فـ « د يا » لغير اللعنة ، كأنه قال : يا قوم لعنة الله والأقوام كلهم .
وزعم سيويه أن هذه اللام التي للاستغاثة دليل ، بنزلة الألف التي تيسر
الماء في الوقف إذا أردت أن تسمع بعيداً ، فلما هي للاستغاثة بنزلة هذه
اللام ، وذلك قولك : يا قوماء ، على غير الندبة ، ولكن للاستغاثة
ومد الصوت .

والقول كما قال ، علما عند العرب محل واحد ، فإن وصلت حذفت
الماء ، لأنها زيدت في الوقف لحاء الألف ، كما تزد ليان الحركة ، فإذا
وصلت أغنى ما بعدها عنها ، تقول : يا قومًا تعالوا ، يا زيداً لا تفعل .
ولا يجوز أن تقول بالزيد وهو مقبل عليك ، وكذلك لا يجوز أن تقول :
يا زيدا وهو معك ، إنما يقال ذلك للبعد ، أو يُنبه به النائم .

فإن قلت : بالزيد ولعمري ، كسرت اللام في « عمرو » وهو مدعو ،
لأنك إنما فتحت اللام في « زيد » لتفصل بين المدعو والمدعو إليه ، فلما عطفت
على « زيد » استغيت عن الفصل ، لأنك إذا عطفت عليه شيئاً صار في
مثل حاله .

ونظير ذلك الحكاية ، بقول الرجل : رأيتُ زيداً ، فتقول ، من زيد؟
ويقول : مروتُ يزيد ، فتقول : من زيد؟ وإنما حكيت قوله ليعلم أنك
إنما تستهمه الذي ذكر بعينه ، ولا تسأله عن زيد غيره ، والموضع موضع
رفع ، لأنه ابتداء وخبر ، فإن قلت : ومن زيد؟ أو فمن زيد؟ لم يكن
إلا رفعاً ، لأنك عطفت على كلامه ، فاستغيت عن الحكاية ، لأن العطف
لا يكون مستأنفاً .

ونظيرُ هذا الذي ذكرتُ لك في اللام قول الشاعر :
يُنْكِيكَ نَارُ بَيْعِدِ الدَّارِ مُغْتَوِبٌ يَالْكَثُولِ وَلِشَّبَانِ الْعَجَبِ
فقد أحكمتُ لك كلَّ ما في هذا الباب .

ثم نعودُ إلى ذكر الحوارج

قال أبو العباس : وذكر لعبيد الله بن زياد رجلٌ من بني سدوس ،
يقال له خالد بن عباد ، أو ابن عبادة ، وكان من مُسَاكِم ، فوجهٌ إليه
فأخذه ، فأتاه رجلٌ من آل ثور ، فكذب عنه ، وقال : هو صهري وهو في
خِمَيتي ، فظلي عنه ، فلم يزل الرجلُ يتفقده حتى تغيب ، فأتى ابن زياد
فأخبره ، فبعثَ إلى خالد بن عباد فأخذه ، فقال لعبيد الله بن زياد : ابن كنتَ
في غيبتك هذه ؟ قال : كنتُ عند قومٍ يذكرون الله ويذكرون أمةَ الجور
فيتبرؤنَ منهم ! قال : بذلتُ عليهم ، قال : إذن يسعدوا وتشقى ، ولم
أكن لأروهم ! قال : فما تقولُ في أبي بكرٍ وعمر ؟ قال : خيراً ، قال : فما
تقولُ في أمير المؤمنين عثمان ، أتولاه وأمير المؤمنين معاوية ؟ قال : إن كانا
وليَّينِ لله فليستُ أعادها ، فأراغه مراتٍ فلم يرجع ، فعزَمَ على قتله ، فأمر
بإخراجه إلى رجةٍ تُعرفُ بـ رجة الزينبي ، فجعل الشرطُ يتقادونَ من قتله ،
ويروغونَ عنه توقياً ، لأنه كان شاسعاً عليه أثرُ العبادة ، حتى أتى المثلُمُ بنُ
مسروح الباهلي ، وكان من الشرط ، فتقدم فقتله ، فاستمرَّ به الحوارجُ
ليقتلوه ، وكان رجلاً مُفترماً بالقتل ، يتبعها فيشتريها من مظانها ، وم
في تقديده ، فدرسوا إليه رجلاً في هيئة الفتيان ، عليه ردعُ زعفرانٍ ، فلقبه
بالريد وهو يسأل عن لقمةٍ صغيرٍ ، فقال له الفتى : إن كنتَ تبلغُ فعضدي
ما يغنيك عن غيره ، فامضِ معي ، فضى المثلُمُ على فرسه والفتى أمامه ، حتى
أتى به بني سعد ، فدخل داراً ، وقال له : ادخل على فرسك ، فلما دخل
وتوغل في الدار أغلق الباب ، وظلَّ به الحوارجُ فاعتورهُ حُرَيْثُ بن جمل ،

وكهمسُ بن طلقِ الصَّريميَّ فقتلاه ، وجعلنا دراهمَ كانت معه في بطنه ، ودفناه في ناحية الدارِ ، وحكنا آثارَ الدَّم ، وخطبنا فرسه في الليل ، فأصيبَ من الغدِ في الميربدِ ، ونحسَّ عنه الباهليُّون فلم يروا له أثراً ، فاتهموا به بني سدوسٍ ، فاستعدوا عليهم السلطان ، وجعل السُّدوسيونَ يحلفون ، فتحاملَ ابنُ زيادٍ مع الباهليين ، فأخذ من السدوسين أربعَ دياتٍ ، وقال : ما أدري ما أصنعُ هؤلاءِ الحوارج ؟ كلُّنا أمرتُ بقتل رجلٍ منهم اغتالوا قاتله فلم يُعلم بمكانه ، حتى خرج مرداسٌ . فلما واقفهم ابنُ زُرعة الكلبيُّ صاح بهم حريثُ ابنِ جملٍ : أهنا من باهة أحدٌ ؟ قالوا نعم ، قال : يا أعداء الله ! اخذتم بالمثلِ أربعَ دياتٍ وأنا قاتله وجعلتُ دراهمَ كانت معه في بطنه ، وهو في موضع كذا مدفونٌ ، فلما انهزموا صاروا إلى الدار ، فأصابوا أسلامه والدرهم ، ففي ذلك يقولُ أبو الأسود الدؤليُّ :

آلَيْتُ لَا أَغْدُو إِلَى رَبِّ لَقْعَةٍ أَساومه حتى يعود المثلُ
ثم خرجت حوارجٌ لا ذكر لهم ، كلُّهم قُتل ، حتى انتهى الأمر إلى الأزارقة .



ومن هاهنا افتترقت الحوارج فصارت على أربعةِ أَصْرُبٍ :
الإباضيةُ ، وهم أصحابُ عبد الله بن إياضٍ .
والصُّفْريةُ ، واختلفوا في تسميتهم ، فقال قومٌ : مُسمَّوا ببنِ صفارٍ ، وقال آخرون ، وأكثر التكلين عليه : هم قومٌ نهكتهم العبادة فاصفرت وجوههم .
ومنهم البيهيةُ ، وهم أصحابُ أبي بيَّسٍ .
ومنهم الأزارقةُ ، وهم أصحابُ نافع بن الأزرقِ الحنفيِّ ، وكلُّوا قبلُ على رأيي

واحد ، لا يختلفون إلا في الشيء الشاذ من الفروع ، كما قال صخر بن عروة :
 إني كرهتُ قالَ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه لسابته وقرابته ، فأما الآن
 فلا يسعني إلا الخروج . وكان اعتزلَ عبد الله بن وهب يوم النهدي ، فضلت
 الحوارج بامتاعه من قتال عليّ .

* * *

فكان أولُ أمرهم الذي نَسَاقَه : أنَّ جماعةً من الحوارج ، منهم نجدةُ
 ابنِ عامرٍ الحنفي ، عزموا على أن يقصدوا مكة ، لما توجه مسلم بن عقبة
 يريدُ المدينة لوقعة الحرّة ، فقالوا : هذا ينصرفُ عن المدينة إلى مكة ، ويجب
 علينا أن نمنعَ حرَمَ الله منه ، ونغتنمَ ابن الزبير ، فإن كان على رأينا بايعناه ،
 ففَضُّوا لذلك .

فكان أولُ أمرهم : أنَّ أبا الوازع الراسبي ، وكان من مجتهدي الحوارج
 كان يذمرُ نفسه ويلومُها على القعود ، وكان شاعراً ، وكان يفعلُ ذلك بأصحابه ،
 فأتى نافع بن الأزرق وهو في جماعة من أصحابه ، يصفُ لهم جورَ السلطان ،
 وكان ذا لسانٍ غضبي ، واحتجاجٍ وصبرٍ على المنازعة ، فأتاه أبو الوازع ، فقال :
 يا نافع ! لقد أعطيتُ لساناً صارماً ، وقلباً كليلاً ، فتوددتُ أن صرامة
 لسانك كانت لقلبك ، وكلالَ قلبك كان للسانك ، أتحضُّ على الحقِّ وتقعُدُ
 عنه ، وتبجحُ الباطلَ وتقيمُ عليه ؟ فقال : إلى أن تجمعَ من أصحابك من
 تسكي به عدوك ، فقال أبو الوازع :

لسانك لاتسكي به القومُ إنما تنالُ بكفيك النجاة من الكربِ
 فجاهدْ أناساً حاربوا الله واصطبرْ عسى الله أن يجزي غوي بني حربِ

ثم قال : والله لا ألومك ونفسي ألوم ، ولا غدوَنَ غدوةً لا أنشي بعدها أبداً ،
 ثم مضى فاشترى سيفاً ، وأتى صيقلًا كان يذمُّ الحوارج ويدلُّ على عورائهم ،
 فشاوره في السيف فحمدَه ، فقال : اشحذه ، فشحذه ، حتى إذا رضى حكمه
 وخط به الصيقل ، وحمل على الناس فتهلَّبوا منه ، حتى أتى مقبرة بني

يشكر ، قدفع عليه رجل حائط السوء فكرهت ذلك بنو يشكر ، خوفاً أن تجعل الحارث قبره مهاجراً ، فلما رأى ذلك نافع بن الأزرق وأصحابه جدوا ، وخرج في ذلك جماعة ، فكان ممن خرج عيسى بن قاتك الشاعر الحطي ، من تم اللات بن ثعلبة ، ومقتله بعد خروج الأزرق .

ففى نافع وأصحابه من الحرورية قبل الاختلاف إلى مكة ، لينعوا الحرم من جيش مسلم بن عقبة ، فلما صاروا إلى ابن الزبير عرفوه أنفسهم ، فأظهر لهم أنه على رأيهم ، حتى أطمع مسلم بن عقبة وأهل الشام ، فدافعهم إلى أن ياتي رأيي يزيد بن معاوية ، ولم يبايعوا ابن الزبير ، ثم تناظروا فيما بينهم ، فقالوا : ندخل إلى هذا الرجل فننظر ما عنده ، فإن قدم أبا بكر وعمر ، وبريء من عثمان وعلي ، وكفر أباة وطلحة ، وبايعناه ، وإث تكن الأخرى ظهر لنا ما عنده ، فتشاغلنا بما يحدي علينا ، فدخلوا على ابن الزبير ، وهو متبدل ، وأصحابه متفرقون عنه ، فقالوا : إننا جئناك لتخبرنا رأيك ، فإن كنت على الصواب بايعناك ، وإن كنت على غيره دعوناك إلى الحق ، ما تقول في الشيخين ؟ قال : خيراً ، قالوا : فما تقول في عثمان ، الذي أحمى الحمى ، وآوى الطريد ، وأظهر لأهل مصر شيئاً وكتب بخلافه ، ووطأ آل أبي معيط رقبـ الناس وآثرهم بغيره المسلمين ؟ وفي الذي بعده الذي حكم في دين الله الرجال ، وأقام على ذلك غير قائب ولا نادم ؟ وفي أبيك وصاحبه ، وقد بايعا علياً وهو إمام عادل مرضي ، لم يظهر منه كفر ، ثم نكثا ، برضى من اعراض الدنيا ، وأخرجنا عائشة تقتل ، وقد امرها الله وصاحبها ان يقرن في بيتين ، وكان لك في ذلك ما يدعوك إلى التوبة ، فإن انت قلت كما تقول فلك الزلفة عند الله والنصر على ايدينا ، ونسأل الله لك التوفيق ، وإث ايت إلا نصر رأيك الأول ، وتصوب ابيك وصاحبه ، والتحقيق بعثمان ، والتولي في السنين الست التي احللت دمه ، ونقضت عهده ، وأفسدت إمامته ، خذك الله واتصر منك بإيدينا !! فقال ابن الزبير : إن الله أمر — وله العزة

والقدرة - في مخاطبة أكفر الكافرين واعتى العتاة بلوأف من هذا القول ، فقال
لحمى ولأخيه - صلى الله عليه - في فرعون (قولا له قولا لينا لعله يتذكر
او يخشى) وقال رسول الله ﷺ : « لا تؤذوا الأحياء بسبب الموتى » فهي
عن سبب أبي جهل من اجل عكرمة ابنه ، وابو جهل عدو الله وعضو الرسول ،
والمقيم على الشرك ، والجاد في الحاربة ، والمتبغض إلى رسول الله ﷺ قبل
الهجرة ، والمحارب له بعدها ، وكفى بالشرك ذنباً ، وقد كان يغنيكم عن هذا
القول الذي سميتم فيه طلحة واي ان تقولوا : اتبرا من الظالمين ؟ فإن كانا منهم
دخلنا في شمار الناس ، وإن لم يكونا منهم لم نحفظوني بسبب أبي وصاحبه ،
وانتم تعلمون ان الله جل وعز قال للمؤمن في أبوه : (وإن جاهدك على أن
تشرک بي ما ليس لك به علم فلا تطعها ، وصاحبها في الدنيا معروفاً) وقال
جل ثناؤه : (وقولوا للناس حسناً) وهذا الذي دعوتهم إليه أمر له ما بعده ،
وليس يفتنكم إلا التوقيف والتصريح ، ولعمري إن ذلك لأحرى بقطع الحجج ،
وأوضح لمنهاج الحق ، وأولى بأن يعرف كل صاحبه من عدوه ، فوعدوا
إلي من عشيتكم هذه أكشف لكم ما أنا عليه إن شاء الله . فلما كانت العشي
راحوا إليه ، فخرج إليهم وقد لبس سلاحه ، فلما رأى ذلك نجدة قال : هذا
خروج مناخذ لكم ، فجلس على رفعة من الأرض ، فحمد الله وأثنى عليه ،
وصلى على نبيه محمد ﷺ ، ثم ذكر أبا بكر وعمر احسن ذكر ، ثم ذكر عثمان
في السنين الأوائل من خلافته ، ثم وصلين بالسنين التي أنكروا سيrote فيها ،
فجعلها كالأضية ، وخبر أنه آوى الحكم بن أبي العاص ياذن رسول الله ﷺ ، وذكر
الحمي وما كان فيه من الصلاح وأن القوم استعبوه من أمور ، وكان له أن
يفعلها أولاً مصيأ ، ثم أعتبهم بعد محسناً ، وأن أهل مصر لما اتوه بكتاب
ذكروا أنه منه بعد أن ضمن لهم العتبي ، ثم كتب لهم ذلك الكتاب يقتلهم ،
فدفعوا الكتاب إليه ، فحلف انه لم يكتبه ولم يأمر به ، وقد أمر بقبول اليمين
ممن ليس له مثل سابقته ، مع ما اجتمع له من صهر رسول الله ﷺ ومكانه

من الإمامة ، وأن يعة الرضوان تحت الشجرة إما كانت بسبه ، وعنان الرجل الذي لزمته عين لو حلف عليها حلف على حق فافتداهما بمائة ألف ولم يحلف ، وقد قال رسول الله ﷺ : « من حلف بالله فليصدق ، ومن حلف له بالله فليبرض » فعتان أمير المؤمنين كصاحبه ، وأنا ولي ولية ، وعدو عدوه ، وائي وصاحبه صاحب رسول الله ﷺ ، ورسول الله يقول عن الله تعالى يوم أحد لما قطعت إصبع طلحة : « سبقته إلى الجنة » وقال : « أوجب طلحة » وكان الصديق إذا ذكر يوم أحد قال : « ذلك يوم كله أو جهة لطلحة » والزيبر حواري رسول الله وصفوته ، وقد ذكر أنها في الجنة ، وقال جل وعز : (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) وما اخبرونا بعد انه سخط عليهم ، فإن يكن ما سعوا فيه حقاً فأهل ذلك هم ، وإن يكن زلة ففي عفو الله مخلصها ، وفيها وفقهم له من السابقة مع نبيهم ﷺ ، ومها ذكرهم بها فقد بدأتم بأمكم عائشة رضي الله عنها ، فإن أبي آبي ان تكون له أمأ نبذ اسم الإيمان عنه ، قال الله جل ذكره وقوله الحق : (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم) فنظر بعضهم إلى بعض ثم انصرفوا عنه .

وكان سبب وضع الحرب أوزارها بين ابن الزبير وبين اهل الشام — بعد ان كان حسين بن محمير قد حصر ابن الزبير — انه اقام موت يزيد بن معاوية فتوادع الناس ، وقد كان اهل الشام ضجروا من المقام على ابن الزبير ، وحنقت الحوارج في قتالهم ، ففي ذلك يقول رجل من قضاة :

يا صاحبي ارتحلا ثم املا
لا تحبسا لدى الحسين محبسا

إن لدى الأركان بؤساً

(قال الأخفش : حفظي و بأساً أبؤساً .)

وبارقات يجتلن الأنفا إذا الفتى حكماً يوماً كلاً

قوله : « ثم املا » يريد : تخلصاً تخلصاً سلاً . « وكلس » اي حمل وجد .

ولما سمع ابن الزبير للخوارج في القولِ واظهر انه منهم قال له رجل
يقال له قيس بن ميمون من رطل الفرزدق :

يا ابن الزبير اتهدى عصبة قتلوا ظلماً اباك ولما متزع الشكك
ضعوا بعثان يوم النحر ضاحية ماعظم الحرمة العظمى التي انتهكوا
فقال ابن الزبير : لو شايعتني الترك والذيل على قتال اهل الشام لشايعتها
« الشكك » جمع « شك » ، وهي السلاع ، قال الشاعر :
ومدججاً يسعى بشكته محمرة عيناه كالكلب

★ ★ ★

فتفرقت الخوارج عن ابن الزبير لما تولى عثمان ، فصارت طائفة إلى البصرة ،
وطائفة إلى اليمامة ، وكان رجاء التميمي هو الذي كانت جميع الدافعة عن
الحرم ، فكان فيمن صار إلى البصرة نافع بن الأزرق الحنفي ؛ وبنو الماحوز
السلطيون ، ورئيسهم حسان بن مجزج ، فلما صاروا إلى البصرة نظروا في
أمرهم فأسروا عليهم نافعاً .

ويروى : ان ابا الجليل البشكري قال لنافع يوماً : يا نافع ! إن لجهم
سبعة ابواب ، وإن اشدها حراً للباب الذي أعد للخوارج ، فإن قدرت
ان لا تكون منهم فافعل ، فأجمع القوم على الخروج ، فضى بهم نافع إلى
الأهواز في سنة اربع وستين ، فأقاموا بها ، لايحبون احداً ، ويناظروهم الناس .

★ ★ ★

وكان سبب خروجهم إلى الأهواز انه لما مات يزيد بايع اهل البصرة عبيد
الله بن زياد ، وكان في السجن يومئذ اربع مائة رجل من الخوارج ، وضعف
امر ابن زياد ، فكلّم فيهم ، فأطلقهم ، فأفسدوا البيعة عليه ، وفشوا في الناس ،
يدعون إلى محاربة السلطان ، ويظهرون مام عليه ، حتى اضطرب على عبيد الله
أمره ، فتحوّل عن دار الإمارة إلى الأزد ، ونشأت الحرب بسببه بين الأزد

وربيعة وبين بني تميم ، فاعتزلهم الحوارج إلا نفرأ منهم من بني تميم ، معهم عيسى
ابن طلحة الصريمي آخر كهس ، فانهم اعانوا قومهم ، فكان عيسى الطحان في
سعد ، والرباب في القلب بجذاه الأزدي ، وكلت حارثة بن بدر الليثوي في
حنظلة بجذاه بكر بن وائل ، وفي ذلك يقول حارثة بن بدر للأحنف ، وهو
صخر بن قيس :

سيفك عيسى آخر كهس موافقة الأزدي بالمربد
وتكفيك عمرو على رسلها لكيز بن أفضى وما عدوا

« لكيز » هو عبد القيس .

وتكفيك بكراً إذا أقبلت بضرب يشيب له الأمر
فلما قتل مسعود بن عمرو المعني ، وتكاف الناس أقام نافع بن الأزرق
ببرضه بالأهواز ، ولم يعد إلى البصرة ، وطردها عمال السلطان عنها ،
وتجبروا الفية .

ولم يزالوا على رأي واحد ، يتولون أهل النهر ويردأ ومن خرج معه ،
حتى جاء موثق لبني هاشم إلى نافع ، فقال له : إن أطفال المشركين في النار ،
وإن من خالفنا مشرك ، فدماء هؤلاء الأطفال لنا حلال ، قال له نافع :
كفرت وأدلت بنفسك ، قال له : إن لم آتكَ بهذا من كتاب الله فاقتلني :
(قال نوح رب لا تذرني على الأرض من الكافرين دياراً . إنك إن تذرهم
يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) فهذا أمر الكافرين وأمر أطفالهم ،
فشهد نافع أنهم جميعاً في النار ، ورأى قتلهم ، وقال : الدار دار كفر إلا
من أظهر إيمانه ، ولا يحل أكل ذبائحهم ، ولا تتكلمهم ، ولا توارثهم ، ومتى
جاء منهم جاء فعلياً أن تمتحنه ، وهم كفار العرب ، لا تقبل منهم إلا الإسلام
أو السيف ، والقتل بجزائهم ، والتقية لا تحل ، فان الله تعالى يقول : (إذا
فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية) وقال عز وجل فيمن

كان على خلافهم : (مجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) . ففتر جماعة من الخوارج عنه ، منهم نجدة بن عاصم ، واحتج عليه بقول الله عز وجل : (إلا أن تتقوا منهم تقاة) ويقول عز وجل : (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتمُ إيمانه) فالقعد منا ، والجهاد إذا أمكن أفضل ، لقوله جل وعز : (وفصل الله المجاهدين على القاعدین أجراً عظيماً) . ثم مضى نجدة بأصحابه إلى اليمامة وتفرقوا في البلدان .

فلما تتابع نافع في رأيه وخالف أصحابه ، وكان أبو طالوت سالم بن مطير بالحضارم في جماعة قد بايعوه ، فلما انخزل نجدة خلعوا أبا طالوت ، وصاروا إلى نجدة فبايعوه ، ولقي نجدة وأصحابه قوماً من الخوارج بالعرمة ، «والعرمة» كالسكر ، وجمعها «عرم» ، وفي القرآن المجيد : (فأرسلنا عليهم سيل العرم) وقال النابغة الجعدي :

من سبأ الحاضرين مأرب إذ يننون من دون سيل العرما
فقال لهم أصحاب نجدة : إن نافعاً قد كفر القعد ورأى الاستعراض ، وقتل الأطفال ، فانصرفوا مع نجدة ، فلما صار باليمامة كتب إلى نافع :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد : فإن عهدي بك وأنت لليتيم كالأب الرحيم ، وللضعيف كالإخ البر ، لاتأخذك في الله لومة لائم ، ولا ترى معونة ظالم ، كذلك كنت أنت وأصحابك ، أما تذكر قولك : لولا أني أعلم أن للإمام العادل مثل أجر جميع رعيته ما توليت أمر رجلين من المسلمين ؟ فلما شريت نفسك في طاعة ربك ابتغاء رضوانه ، وأصبت من الحق فصة ، وركبت مرّة ، تجرد لك الشيطان ، ولم يكن أحد ثقل عليه وطأة منك ومن أصحابك فاستأثرت واستهواك واستغواك وأغواك ، ففويت ، فاكفرت الذين عذرهم الله في كتابه من قعد المسلمين وضعفتهم ، فقال جل ثناؤه ، وقوله الحق ووعده الصديق : (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوهم ورسولهم) ثم سمى أحسن الاسماء فقال : (ما على الحسنين

من سيله) ثم استحلّ قتل الاطفال ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن قتلهم ، وقال الله عز ذكره : (ولا تَرَوْا وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى) وقال في القعد خيراً ، وفضل الله من جاهد عليهم ، ولا يدفع منزلة أكثر الناس عملاً منزلة من هو دونه ، أو ما سمعت قوله عز وجل : (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر) فجعلهم الله من المؤمنين ، وفضل عليهم المجاهدين بأعمالهم ، ورأيت ألا تؤدي الأمانة إلى من خالفك ، والله يأمر أن تؤدي الامانات إلى أهلها ، فاتق الله وانظر لنفسك ، واتق يوماً (لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جائر عن والده شيئاً) فإن الله عز ذكره بالمرصاد ، وحكمه العدل ، وقوله الفصل والسلام .

* * *

فكتب إليه فافع :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فقد اتاني كتابك تظني فيه وتذكرني وتصح لي وتزجري ؛ وتصف ما كنت عليه من الحق ، وما كنت أؤثره من الصواب ، وأنا أسأل الله جلّ وعزّ أن يجعلني من الذين يسمعون القول فيقبحون أحسنه ، وعبت عليّ ما دنت به من إكفار القعد وقتل الاطفال واستحلال الامانة ؛ فافسر لك لم ذلك إن شاء الله : أما هؤلاء القعد فلبسوا كمن ذكرت ممن كان بعهد رسول الله ﷺ ، لانهم كانوا بمكة مقهورين محصورين ، لا يجدون إلى الحرب سبيلاً ، ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقاً ، وهؤلاء قد فقهاوا في الدين ، وقرؤوا القرآن ، والطريق لهم نهج واضح ، وقد عرفت ما قال الله عز وجل فيمن كان مثلهم ، إذ قالوا : (كنا مستضعفين في الارض) فقيل لهم : (ألم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها) وقال : (فرح الخلفون بقدوم خلاف رسول الله) وقال : (وجاء المعنودون من الاعراب ليؤذن لهم) فخبّر بتعذيبهم ، وانهم كذبوا الله ورسوله ، وقال : (سيصيب

الذين كفروا منهم عذابٌ أليمٌ) فانظر إلى اسمائهم وسماتهم . واما امر الاطفال فإن نبي الله نوحاً عليه السلام كان اعلم بالله - بانجدة - مني ومنك ، فقال : (رب لا تنزلني على الارض من الكافرين دياراً ، إنك إن تفرمهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) فسام بالكفر وهم اطفال ، وقبل ان يولدوا ، فكيف كان ذلك في قوم نوح ولا تكون نقوله في قومنا ؟! والله يقول : (اكفرتم كم خير من أولئكم ، أم لكم براعة في الزور) وهؤلاء كمشركي العرب ، لا تقبل منهم جزية ، وليس بيننا وبينهم إلا السيف أو الاسلام . واما استعلاء امانات من خالفنا فان الله عز وجل احل لنا اموالهم ، كما احل لنا دماءهم ، فدمائهم حلال طلق ، واموالهم فية المسلمين ، فاتق الله وراجع نفسك ، فإنه لا عنرك إلا بالتوبة ، ولن يسعك خذلانا ، والقعود عنا ، وترك ما نهجناه لك من طريقنا ومقاتلتنا ، والسلام على من اقر بالحق وعمل به .



وكتب نافع إلى عبد الله بن الزبير يدعوه إلى امره :

اما بعد ، فإني أحذرك من الله (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو ان بينها وبينه امداً بعيداً ، ويحذركم الله نفسه) فاتق الله ربك ، ولا تتول الظالمين ، فإن الله يقول : (لا يتخذ المؤمنون الكافرين اولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء) وقد حضرت عثمان يوم قتل ، فلعمري لئن كان قتل مظلوماً لقد كفر قاتلوه وخاذلوه ، ولئن كان قاتلوه مهتدين - وإنهم لمهتدون - لقد كفر من يتولاه وينصره ويعضده ، ولقد علمت ان اباك وطلعة وعليا كانوا أشد الناس عليه ، وكانوا في امره من بين قاتل وخاذل ، وانت تتولى اباك وطلعة وعثمان ، وكيف ولاية قاتل متعمد ومقول في دين واحد ؟! ولقد ملك علي بعده فنى الشبهات ، واقام الحدود ، واجرى الاحكام مجاريها ، واعطى الأمور

حقائقها ، فيما عليه وله ، فبايعه ابوك وطلحة ، ثم خلعاه ظالمين له ، وإن
القول فيك وفيها لكما قال ابن عباس : **إِنْ يَكُنْ عَلِيٌّ فِي وَقْتِ مَعْصِيَتِكُمْ**
وَمَحَارِبَتِكُمْ لَهُ كَانَ مُؤْمِنًا أما لقد كفرتم بقتال المؤمنين واثمة العدل ، وإنني كان
كافراً كما زعمتم وفي الحكم جائزاً لقد يؤتم بغضبٍ من الله لفرادكم من الزحف ،
ولقد كنت له عدواً ، وليوته عاباً ، فكيف توليته بعد موته ؟! فاتق الله
فإنه يقول : (ومن يتولهم منكم فإنه منهم) .

. . .

وكتب نافعاً إلى من بالبصرة من الحكماء :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فإن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن
إلا وأنتم مسلمون ، والله إنكم لتعلمون ان الشريعة واحدة ، والدين واحد ،
فقيم المقام بين اظهر الكفار ، ترون الظلم ليلاً ونهاراً ، وقد ندبكم الله إلى الجهاد فقال :
(**وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً**) ولم يجعل لكم في التخلُّف عنواً في حالٍ من
الحال ، فقال : (**انفروا خفاً وثقالاً**) . وإنما عنر الضعفاء والمرضى والذين
لا يجدون ما ينفقون ومن كانت إقامته لعلية ، ثم فضل عليهم مع ذلك المجاهدين
فقال : (**لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل**
الله) . فلا تغفروا ولا تطمئنوا إلى الدنيا ، فإنها غرارة مكاره ، لذتها نافذة ،
ونعمتها بائدة ، حقَّتْ بالشهوات اغتراراً ، واظهرت حيرة ، واضمرت عبوة ،
فليس آكل منها أكلة تسره ، ولا شارب شرربة تؤثقه ؛ إلا دفا بها
درجة إلى اجله ، وتباعد بها مسافة من امله ، وإلما جعلها الله داراً لمن تروى
منها إلى النعيم المقيم ، والعيش السليم ، فلن يرضى بها حازم داراً ، ولا حلیم
بها قراراً ، فاتقوا الله (**وتروا فإن خير الزاد التقوى**) والسلام على من
اتبع الهدى .

فورد كتابه عليهم ، وفي القوم يومئذ ابو بيسر هيصم بن جبلة الضبي ،
وعبد الله بن إياض المري ، من بني مرة بن عبيد ، فأقبل ابو بيسر على ابن
إياض فقال : إن نافعاً غلاً فكفر ، وإنك قصرت فكفرت ! تزعم أن من
خالقنا ليس بشرك ، ولما هم كفاراً النعم ؛ لتسكنهم بالكتاب ، وأقراهم
بالرسول ، وتزعم أن مناكهم ومواريتهم والإقامة فيهم حلٌ طلقٌ ؟ وأنا أقول :
إن أعدائنا كإعداد رسول الله ﷺ ، تحل لنا الإقامة فيهم ، كما فعل المسلمون
في إقامتهم بمكة ، وأحكام المشركين تجري فيها ، وأزعم أن مناكهم ومواريتهم
تجوز لأنهم منافقون يظهرون الإسلام ، وأن حكمهم عند الله حكم المشركين !!

* * *

فصاروا في هذا الوقت على ثلاثة أقاويل : قول نافع في البراءة والاستعراض
واستحلال الأمانة وقتل الأطفال . وقول أبي بيسر الذي ذكرناه . وقول عبد
الله بن إياض . وهو أقرب الاقاويل إلى السنة من أقاويل الضلال . والصفرية
والنجدية في ذلك الوقت يقولون بقول ابن إياض . وقد قال ابن إياض ما ذكرنا
من مقالته .

وأنا أقول : إن عدونا كعدو رسول الله ﷺ ، ولكني لا أحرّمُ مناكهم
ومواريتهم ، لأن معهم التوحيد والإقرار بالكتاب والرسول عليه السلام ، فلرى
معهم دعوة المسلمين تجمعهم ، وأراهم كفاراً للنعم . وقالت الصفرية ألين من هذا
القول في أمر القعد ، حتى صار عامتهم قعداً . واختلفوا فيهم ، وقد ذكرنا
ذلك . فقال قوم : سموا صفرية ، لأنهم أصحاب ابن صفار ، وقال قوم :
إنما سموا بصفرية عاتهم ، وتصديق ذلك قول ابن عاصم اليثبي ، وكان يرى رأي
الحوارج ، فذكره وصار مرجأ :

فأرقت نجدة والذين رزقوا وابن الزبير وشيعة الكتّاب

وَالصُّغَرَ الْآذَانَ الَّذِينَ تَخَيَّرُوا دِينًا بِلَا ثِقَةٍ وَلَا بَكْتَابٍ

خَفَّفَ الْمِزْمَةَ مِنْ «الْآذَانِ» ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَانْكَسَرَ الشَّعْرُ .

وَقَالَ أَبُو بَيَّهَسَ : الدَّارُ دَارُ كُفْرٍ ، وَالِاسْتِعْرَاضُ فِيهَا جَائِزٌ ، وَإِنْ أَصِيبَ مِنَ الْأَطْفَالِ فَلَا حَرَجَ . إِلَى هُنَا انْتَهَى الْمَقَالَةُ .

* * *

وَتَفَرَّقَتِ الْحَوَارِجُ عَلَى الْأَضْرَبِ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي ذَكَرْنَا ، وَأَقَامَ نَافِعٌ بِالْأَهْوَازِ يَعْتَوِضُ النَّاسَ وَيَقْتُلُ الْأَطْفَالَ ، فَإِذَا أُجِيبَ إِلَى الْمَقَالَةِ جَبَّ الْحَرَجَ ، وَقَتْنَا مَحْمَلَهُ فِي السَّوَادِ ، فَارْتَعَ لَذَلِكَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ ، فَاجْتَمَعُوا إِلَى الْأَحْنَفِ بْنِ قَبِيْسٍ ، فَشَكَّوْا ذَلِكَ إِلَيْهِ ، وَقَالُوا : لَيْسَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْعَدُوِّ إِلَّا لَيْتَانِ ، وَسِوَهُمَا مَا تَرَى ، فَقَالَ الْأَحْنَفُ : إِنْ فَعَلْتُمْ فِي مِصْرَكُم - إِنْ ظَفِرُوا بِهِ - كَقِيْلِهِمْ فِي سَوَادِكُمْ ، فَعِيدُوا فِي جِهَادِ عَدُوِّكُمْ ، فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ عَشْرَةُ آلَافٍ رَجُلٍ ، فَأَتَى عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ نُظْلٍ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَهُوَ بَيْتُهُ ، فَسَأَلَهُ أَنْ يُؤَمِّرَ عَلَيْهِمْ ؛ فَاخْتَارَ لَهُمُ ابْنُ عَبَّاسٍ بْنُ كُرَيْزٍ ، وَكَانَ دِينًا شَجَاعًا ، فَأَمَرَهُ عَلَيْهِمْ وَشِيعَهُ ، فَلَمَّا نَفَذَ مِنْ جِسْرِ الْبَصْرَةِ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ : إِنِّي مَا خَرَجْتُ لِامْتِنَانٍ ذَهَبٍ وَلَا فُضَّةٍ ، وَإِنِّي لِأَحَابِبُ قَوْمًا إِنْ ظَفَرْتُ بِهِمْ فَمَا وَرَاهُمْ إِلَّا سِوْفُهُمْ وَرِمَاحُهُمْ ، فَمَنْ كَانَ شَأْنُهُ الْجِهَادَ فَلْيَنْهَضْ ، وَمَنْ أَحَبَّ الْحَيَاةَ فَلْيَرْجِعْ ، فَرَجَعَ نَفَرٌ يَسِيرٌ ، وَمَضَى الْبَاقُونَ مَعَهُ . فَلَمَّا صَارُوا بِدَوْلَابٍ خَرَجَ إِلَيْهِمْ نَافِعٌ ، فَاقْتُلُوا قَتْلًا شَدِيدًا ، حَتَّى تَكْثُرَتِ الرِّمَاحُ ، وَعَقِيرَتِ الْحَيْلُ ؛ وَكَثُرَتِ الْجِرَاحُ وَالْقَتْلُ ، وَتَضَارَبُوا بِالسِّوْفِ وَالْعَمَدِ ، فَقُتِلَ فِي الْمَعْرَكَةِ ابْنُ عُبَيْسٍ وَنَافِعُ بْنُ الْأَزْدِ ، وَكَانَ ابْنُ عُبَيْسٍ قَدْ تَقَدَّمَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ : إِنْ أُصِيبْتُ فَأَمِيرُكُمْ الرَّيِّعُ بْنُ عَمْرِو الْأَجْدَمِ الْغُدَّانِيَّ ، فَلَمَّا أُصِيبَ ابْنُ عُبَيْسٍ أَخَذَ الرَّيِّعُ الرَّابَةَ ، وَكَانَ نَافِعٌ قَدْ اسْتَخْلَفَ عِيْدَ اللَّهِ بْنِ بَشِيرٍ بْنِ الْمَاهِزِ السُّلَيْمِيِّ ، فَكَانَ الرَّيِّعُ مِنَ بَنِي يَرْبُوعَ :

ورئيس المسلمين من بني غداة بن يربوع ، ورئيس الحوارج من بني سليل بن يربوع
فاقتلوا قتلا شديداً ، وادعى قتل نافع سلامة البجلي ، وقال : لما قتله وكتبت
على يرفوت ورد إذا برجل على فرس وأنا واقف في خمس قيس بنيادي :
يا صاحب الورد ! هلم إلى المبارزة ، فوقفت في خمس بني تميم فإذا به يعرضها
علي ، وجعلت أتقل من خمس إلى خمس ، وليس يزايلي ، فصرت إلى رحلي ، ثم
رجعت فرأني فدعاني إلى المبارزة ، فلما أكثر خرجت إليه فاختلفنا ضربتين ،
فضربت فصرعته ، فزلت ليلته وأخذ رأسه ، فإذا امرأة قد رأني حين قتلت
نافعاً ، فخرجت لتأثر به ، فلم يزل الريح الأجدم يقاتلهم نيتاً وعشرين يوماً ،
حتى قال يوماً : أنا مقتول لامحالة ، قالوا : وكيف ؟ قال : لأنني رأيت الباردة
كان يدي التي أصيبت بكابل انحطت من السماء فاستثنتني ، فلما كان الضد قاتل
إلى الليل ، ثم غاداهم فقتل ، فدافع أهل البصرة الراية حتى خافوا العطب ،
إذ لم يكن لهم رئيس ، ثم أجمعوا على الجباج بن باب الحيري ، فأباه ، فقبل
له : ألا ترى أن رؤساء العرب بالحضرة ، وقد اختلوك من بينهم ؟ فقال :
مشؤومة ، ما بأخفها أحد إلا قتل ، ثم أخفها ، فلم يزل يقاتل الحوارج
بدولاب ، والحوارج أعد بالآلات والدروع والجواشن ، فالتقى الجباج بن
باب وعمران بن الحرث الراسبي ، وذلك بعد أن اقتلوا زهاء شهر ، فاختلفا
ضربتين ، فسقطا ميتين ، فقالت أم عمران ترويه :

الله أبعد عمراناً وطهره وكان عمران يدعو الله في السحر
يدعوه مرراً وإعلاناً ليرزقه شهادة بيدي ملحادة غدر
ولى صحابه عن حر ملحمة وسد عمران كالضرغامه المصر

قول الريح « استثنتي » أي : أخذتني إليها واستغذتني . يقال « استشلاه
واشلاه » وفي الحديث « أن السارق إذا قطع سبته يده إلى النار » فان تاب
استشلاه . وقال رؤبة :

إنَّ سليمان اشتاك ابن علي . وقول الناس « أَشْلَيْتُ كَلْبِي » أي أغريته بالصيد ، خطأ ، إنما يقال « أَسَدْتُهُ » . و « أَشْلَيْتُهُ » دعوته .

وقولها « يدي ملحاة » « مفعال » من الإحالة ، كما يقول : رجل معطاء بافتى ، ومحسان ، ومكرام ، وأدخل الماء للبالغة ، وكما تدخل في رواية علامة ونسابة .

« وغدر » « مفعول » من الغدر ، وللفعل بابٌ نذكره في عقب هذه القصة ، إذا فرغنا من خبر هذه الرقعة .

و « الضرغام » من أسماء الأسد .

و « المهر » الذي يهر كل شيء ، أي يثنيه ، قال امرؤ القيس :

فلما تنازعنا الحديث وأسمعت هصرت بغصن ذي شاربغ مبال

★ ★ ★

ولذكرنا الصغرية والأزارقة والبابية والإباضية تفسير ، لم نسب إلى ابن الأزرق بالأزارقة ، وإلى أبي بيس بالكنية المضاف إليها ، ونسب إلى صفير ولم ينسب إلى واحد ، ونسب إلى ابن إباض فبعل النسب إلى أبيه ؟ وهذا نذكره بعد باب « فعل » إن شاء الله .

قال أبو العباس : ومما قيل من الشعر في يوم دولاب قول قطري :

لعمرك إني في الحياة لأهده	وفي العيش نالمت أم حكيم
من الحشرات البيض لم ير مثلاً	شفاء لذي بث ولا لسقم
لعمرك إني يوم أظلم وجهها	على فائبات الدهر جدٌ لثيم
ولو شهدتني يوم دولاب أبصرت	طعان قس في الحرب غير ذميم
غداة طفت علماء بكر بن وائل	وعجنا صدور الحيل نحو عجم
وكان لعبد القيس أول جدّها	وأحلافها من محببٍ وسليم

وظلت شيوخ الأزد في حومة الوغى تعوم وظلنا في الجلالِ نعم
فلم أر يوماً كان أكثر مقعماً عيجُ دماً من فائظٍ وكثير
وضاربة خدّاً كريماً على فتى أغر نجيب الأمهات كريمة
أصيب بدولابٍ ولم تكِ موطناً له أرض دولابٍ ودير حمير
ولو شهدتا يوم ذاك وخيلنا تيسح من الكفار كل حرير
رأت قيةً باعوا الإله نفوسهم يحناتِ عدنٍ عنده ونعيم

قوله « ولو شهدتا يوم دولاب » فلم ينصرف « دولاب » فلما ذاك لأنه أراد البلدة ، و « دولاب » أعجميٌ معربٌ . وكلُّ ما كان من الأسماء الأعجمية نكرة بغير الألف واللام فإذا دخلته الألف واللام فقد صار معرباً ، وصار على قياس الأسماء العربية ، لا ينحى من الصرف إلا ما يمنع العربيّ ، فدولاب « فوعال » مثل طومارٍ وسُولافٍ . وكلُّ شيءٍ لا يخصُّ واحداً من الجنس من غيره فهو نكرة نحو رجلٍ ، لأن هذا الاسم يُلحق كلُّ ما كان على يَنبته ، وكذلك حملٌ وجبلٌ وما أشبه ذلك . فإن وقع الاسم في كلام العجم معرفة فلا سبيل إلى إدخال الألف واللام عليه ، لأنه معرفة ، فلا معنى لتعريف آخر فيه ، فذلك غير منصرف ، نحو « فرعون » و « هامان » و « قارون » وكذلك « إسحق » و « إبراهيم » و « يعقوب » .

وقوله « غداة طفت علماء بكر بن وائل » وهو يريد : على الماء ، فإن العرب إذا التقت في مثل هذا الموضع لآمان استجازوا حذف أحدهما استقلالاً للتضعيف ، لأن ما بقي دليلٌ على ما حذف ، يقولون « علماء بنو فلان » كما قال الفرزدق :

وما سُبِقَ القيسيُّ من ضعف حيلةٍ ولكن طفت علماء قلفة خالد
وكذلك كلُّ اسمٍ من أسماء القبائل تظهر فيه لام المعرفة فإنهم يميزون معه حذف النون التي في قولك « بنو » لقرب خروج النون من اللام ، وذلك قولك فلانٌ من « بلعوث » و « بلعبر » و « بلهجير » .

وقال آخر من الحوارج :

يرى من جاء ينظر من دجيل
وقال رجل منهم :

شمت ابن بدر والحواشي جة
والحائزون بتافع بن الازوق
والموت حتم لعمالة واقع
من لا يصبحه نهراً يطرُق
فلئن أمير المؤمنين أصابه
رب المتون فمن يصبه يفتق
نصب بعد « إن » لان حرف الجزاء للفعل ، فإنما أراد : فلئن أصاب أمير
المؤمنين ، فلما حذف هذا الفعل وأضمر ، ذكر « أصابه » ليدل عليه ، ومثله قول
النمر بن تولب :

لا تجزعي أن متفناً أهلكته
وإذا هلكت فعند ذلك فاجزعي
وقال ذو الرمة :

إذا ابن أبي موسى بلالاً بلغته
فقام بفأس بين وجليك جازد
لان « إذا » لا يليها الا الفعل ، وهي به أولى .

هذا باب « فَعَلَ »

اعلم أن كل اسم على مثال « فَعَلَ » فهو مصروف في المعرفة والنكرة ، إذا كان
اسماً أصلياً أو نعتاً ، فالأسماء نحو : صردي ونغري وجعلني ، وكذلك إن كلف
جمعاً ، نحو : ظلم وغرف . وإن سميت بشيء من هذا رجلاً انصرف في المعرفة
والنكرة ، وأما النعت فتحو رجلاً حطيم ، كما قال :
قد لقها الليل بواق حطم .

وكذلك مالٌ ليد ، وهو الكثير ، من قوله جل جلاله : (أهلكت
مالاً ليداً) .

فإن كان الاسم على « فَعَلَ » معدولاً عن « فاعله » لم ينصرف إذا كان
اسم رجلاً في المعرفة ، وينصرف في النكرة ، وذلك نحو : مر وقم ، لأنه
معدول عن عامر ، وهو الاسم الجاري على الفعل ، فهذا ما معرفته قبل نكوه ،

فإذا أريد به منزع المعرفة جاز أن تبنى في النداء من كل فعل (فَعَلَ) ،
لأن المتأدى مشار إليه ، وذلك قولك : يا فاسق ، ويا خبيث ، تريد : يا فاسق
وما خبيث .

ولما قالت « بيدي ملحادة غدر » في غير النداء للضرورة ، فنقله معرفة
النداء ، ثم جعلته نكرة لخروجه عن الإشارة ، فنعت به « ملحادة » كما
قال الخطيب :

أجول ما أجول ثم آوي إلى بيتٍ قعيدته لكاع

وهذا لا يقع إلا في النداء ، ولكن الشاعر نقله نكرة ونقله معرفة ، على
حدا ما كان له في النداء . فليحق قولها « غدر » بقوله رجل حطم ، وما لبُدْ ،
وما أشبه . و « فعال » في المؤنث بجزلة « فَعَلَ » في المذكر ، ولو سميت
رجلاً « حطماً » لصرفته ، من قولك : هذا سائق حطم ، لأنه قد وقع نكرة
غير معدول ، فهو في التعتوت بجزلة « صرد » في الأسماء .

هذا باب النسب إلى المضاف

اعلم أنك إذا نسبت إلى علم مضاف فالوجه أن تنسب إلى الاسم الأول ،
وذلك قولك في عبد القيس « عدي » وكذلك في عبد الله بن دارم . فإن
كان الاسم الثاني أشهر من الأول جاز النسب إليه ، لثلا يقع في النسب التباس
من اسم باسم ، وذلك قولك في النسب إلى عبد مناف « منافى » وإلى أبي
بكر بن كلاب « بكري » . وقد يجوز ، وهو قليل ، أن تبنى له من الاسمين
اسماً على مثال الأربعة ليتظم النسب ، وذلك قولك في النسب إلى عبد الدار بن
قصي « عدي » وفي النسب إلى عبد القيس « عقي » .

فإن كان المضاف غير علم فالنسب إلى الثاني على كل حال ، وذلك قولك
في النسب إلى ابن الزبير « زبيري » ، لأن ابن الزبير إنما صار معرفة بالزبير ،

وكذلك النسب إلى ابن رالان « رالائي » . فذلك قالوا في النسب إلى ابن الأزرق « أزرقى » وإلى أبي بيسر « بيسي » .

فأما قولهم « صفري » ، فلما أرادوا الصفر الألوان ، فنسبوا إلى الجماعة ، وحتى الجماعة إذا نسب إليها أن يقع النسب إلى واحد ، كقولك « مهلي » و « مسمعي » ، ولكن جعلوا « صفراً » اسماً للجماعة ، ثم نسبوا إليه ، ولم يقولوا « أصفري » ، فينسب إلى واحد ، ولما كان ذلك لأنهم جعلوا الصفر اسماً للجماعة ، كما تسمى القبيلة بالاسم الواحد ، ألا ترى أن النسب إلى الأنصار « أنصاري » لأنه كان علماً للقبيلة ، وكذلك « مدائني » . وتقول في النسب إلى الأبناء من بني سعد « أبناوي » ، لأنه اسم الجماعة .

فأما قولهم « الأزارقة » فهذا باب من النسب آخر ، وهو أن يسمى كل واحد منهم باسم الأب ، إذا كانوا إليه ينسبون ، ونظيره « المهالبة » و « المساعة » و « المناصرة » . ويقولون : جاءني التميرون والاشعرون ، جعل كل واحد منهم ميماً وأشعر ، فهذا يتصل في القبائل على ما ذكرت لك .

وقد تنسب الجماعة إلى الواحد على رأي أو دين ، فيكون له مثل نسب الولادة ، كما قالوا « أزرقى » لمن كان على رأي ابن الأزرق ، كما تقول قيسي وقبيي لمن ولده ميم وقيس ، ومن قرأ (سلام على إلياسين) فلما يريد إلياس عليه السلام ومن كان على دينه ، كما قال :

قدني من نصر الحسين قد

يريد أبا خبيب ومن معه .

وقد يجتمع الرجل مع الرجل في التثنية إذا كان مجازهما واحداً في أكثر الأمر على لفظ أحدهما ، فمن ذلك قولهم « العمران » لأبي بكر وعمر رضي الله عنها ، ومن ذلك قولهم « الحسين » لعبد الله ومعصب ، وقد مضى تفسيره .

عاد اتقول في الحوارج

قال : والازارقة لا تكفرُ أحداً من أهل مقاتلها في دار الهجرة إلا القاتل رجلاً مسلماً ، فإنهم يقولون : المسلم حبة الله ، والقاتل قصد لقطع الحبة .

ويروى أن نافعا مرَّ بمالك بن مسمع في الحرب التي كانت بين الأزد وربيعة وبني تميم ، ونافع متقلد سيفاً ، فقام إليه مالك فضرب بيده إلى حمالة سيفه . وقال : ألا تتصرفا في حربنا هذه ؟ ! فقال : لا يحل لي ، قال : فما بال مؤمني بني تميم ينصرون كفارهم في هذه الحرب ؟ ! فأمسك عنه ، وخرج بعد ذلك بأيام إلى الأهواز ، فلما قتل من قتل ممن يخازر من الحوارج في أيام ابن الماحوز كرهه بيبة القتال ، وأقام حارثه بن بدر الغداني يازاء الحوارج ، يناوشهم على غير ولاية ، وكان يقول : ماعدننا عند إخواننا من أهل البصرة إن وصل إليهم الحوارج ونحن دونهم ؟ فكتب أهل البصرة إلى ابن الزبير يخبرونه بقعود بيبة ، ويسألونه أن يرسل إليه ، فكتب إلى أنس بن مالك أن يرسل بالناس ، فمضى بهم أربعين يوماً ، وكتب إلى عمر بن عبيد الله بن معمر فولاد البصرة ، فلقه الكتاب وهو يريد الحج ، وهو في بعض الطريق ، فرجع فأقام بالبصرة ، وولى أخاه عثمان محاربة الأزارقة ، فخرج إليهم في اثني عشر ألفاً ، ولقيه حارثة فيمن كان معه ، وعيده الله الماحوز في الحوارج بسوق الأهواز ، فلما عبروا إليهم دُجلاً نهض إليهم الحوارج ، وذلك قيل الظُّهر ، فقال عثمان بن عبيد الله حارثة بن بدر : أما الحوارج إلا ما أرى ؟ فقال له حارثة (بن بدر) : حسبك هؤلاء ، فقال : لا جرم والله لا أتعدى حتى أتأجزم ! فقال له حارثة بن بدر : إن هؤلاء لا يقاتلون بالتعصب ، فأبق على نفسك وجندك ، فقال : أيتم يا أهل العراق إلا جيتاً ! وأنت يا حارثة ! ما عليك بالحرب ؟ أنت والله بتغير هذا أعلم ! يعرض له بالشراب ! فغضب حارثة فاعتزل ، وحاربهم عثمان يومه إلى أن غابت الشمس فاجلت الحرب عنه قليلاً ، وانهمز الناس ، وأخذ حارثة

الراية ، وصاح بالناس : أنا حارثة بن بدر ، قتال إليه قومه ، فعبوهم
 دجلاً ، وبلغ قل عثان البصرة ، وخاف الناس الحوارج خوفاً شديداً ، وعزل
 ابن الزبير عمر بن عبيد الله ، وولى الحرث بن عبد الله بن أبي ربيعة ، المعروف
 بالقباع ، أحد بني غزوم ، وهو أخو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة الخزومي
 الشاعر ، فقدم البصرة ، فكتب إليه حارثة بن بدر يسأله الولاية والمدد ، فأراد
 أن يوليّه ، فقال له رجل من بكر بن وائل : إن حارثة ليس بذلك ، إنما
 هو صاحب شراب ، وفيه يقول رجل من قومه :

الم تر أن حارثة بن بدر يُصلي وهو أكفر من حمار
 الم تر أن للقتيان خطأ وحطك في البغايا والقهار

فكتب إليه القباع : تكفى حربيهم إن شاء الله . فأقام حارثة يدافعهم ، فقال
 شاعر من بني تميم يذكر عثان بن عبيد الله بن معمر ومسلم بن عيسى وحارثة
 بن بدر :

مضى ابن عيسى صلياً غير عاجز وأعقبنا هذا الجعازي عثان
 فأرعد من قبل اللقاء ابن معمر وأبرق والبرق الباني خوان
 فضحت قريباً غشا وسميتها وقيل بنو تميم مرة عزلان
 فلولا ابن بدر للعراقي لم يقم بما قام فيه للعراقي لإنسان
 إذا قيل من حامي الحقيقة أومات إليه معد بالأنوف وقسطان

* * *

قوله « فأرعد » زعم الأصمعي أنه خطأ ، وأن الكميّ أخطأ في قوله :

أرعد وأبرق يأنزبدُ فما وعيدك لي بضائر

وزعم أن هذا البيت الذي يروى للمهلبيّ مضموعٌ محدث ، وهو قوله :

أنبضوا معجب نفسي وأيرة بنا كما ترعد الفحول الفعولا

وأنه لا يقال إلا « رعد وبرق » إذا أوجد وتهدد ! وهو « يردد ويبرق » وكذا يقال « رعدت السماء وبرقت » و « أرددنا نحن وأبرقنا » إذا دخلنا في الرعد والبرق ، قال الشاعر :

• فقلّ لأبي قابوس ملئت فلرعد •

وروى غير الأصمعيّ « أردد وأبرق » على ضعف •

وقوله « والبرق البانيّ خوان » ، يريد : والبرق البانيّ يخون • وأجود النسب إلى اليمن « يني » ، ويجوز « يان » بتخفيف الياء ، وهو حسن ، وهو في أكثر الكلام ، تكون الألف عوضاً من إحدى الياءين ، ويجوز « ياني » فاعلم ، تكون الألف زائدة وتشدّد الياء ، قال العباس بن عبد المطلب :

ضربناهم ضرب الاحامس غدوةً بكلّ يانيّ إذا هزّ صمماً

★ ★ ★

ثم إن حادثة لما تفرق الناس عنه أقام بنهر تيوى ، فعبّرت إليه الحوارج ، فهرب وأصحابه يركضن ، حتى أتى دُجَيْلاً ، فجلس في سفينة ، وأتبعه جماعة من أصحابه ، فكانوا معه ، وأقام رجل من بني تميم وعليه سلاحه ، والحوارج وراءه وقد توسطت حادثة ، فصاح به : يا حارث ! ليس مثلي ضئيع ، فقال للملاح : قُرب : ف قرب إلى جرف ، ولا فرضة هناك ، فظفر بسلاحه في السفينة ، فساخت باللوم جميعاً . وأقام ابن الماحوز يحيى كور الأهواز ثلاثة أشهر ، ثم وجهه الزبير بن علي نحو البصرة فصَحَّ الناس إلى الاخف ، فأتى القُبَاع فقال : أصلح الله الأمير ، إن هذا العدو قد غلبنا على سوادنا وفيتنا ، فلم يَبَقْ إلّا أن يحصرنا في بلدنا حتى نخوت هزلاً ، قال : فسما رجلاً ، فقال الأخف : الرأي لا يخيل ، ما أرى لنا إلّا المهلب بن أبي صفرة ، فقال : أو هذا رأي جميع أهل البصرة ؟ اجتمعوا لي في غد ، وجاء الزبير حتى نزل الفرات ، وعقد الجسر ليعبر إلى ناحية البصرة ، فخرج أكثر أهل

البصرة إليه ، وقد اجتمع الخوارج أهل الأهواز وكورها ، وغبة ورهة ،
 فأتاه البصريون في السفن وعلى الدواب ورجالة ، فأسودت بهم الأرض ، فقال
 الزبير لما رآهم : أي قومنا إلا كفراً ، فقطعوا الجسر وأقام الخوارج بالفرات
 يذاذبهم ، واجتمع الناس عند القبا ، وخافوا الخوارج خوفاً شديداً ، وكانوا
 ثلاث فرق ، فسمى قوم المهلب ، وسمى قوم مالك بن مسمع ، وسمى قوم
 زياد بن عمرو بن الأشرف العتيكي ، فصرفهم ، ثم اختبر ما عند مالك بن
 مسمع وزاد ، فوجدهما متافلين عن ذلك ، وعاد إليه من أشار بها وقالوا :
 قد رجعنا عن رأينا ، ما نرى لها إلا المهلب ، فوجه الحارث إليه فأتاه ، فقال
 له : يا أبا سعيد ! قد ترى ما رفقنا من هذا العدو ، وقد اجتمع أهل مصر
 عليك ، وقال الأحنف : يا أبا سعيد ! إننا والله ما آثرناك بها ولكننا لم نر من
 يقوم لها مقامك ، فقال له الحارث - وأوماً إلى الأحنف - : إن هذا الشيخ
 لم يسمك إلا إشاراً للدين ، وكل من في مصرك ما دعه عنه إليك ، راجع أنت
 يكشف الله عز وجل هذه الغمة بك ، فقال المهلب : لاحول ولا قوة إلا
 بالله ، إني عند نقسي لدون ما وصفت ، ولست أياً مادعوتهم إليه على شروط
 أشرطها ، قال الأحنف : قل ، قال : على أن أنتخب من أحببت ، قال :
 ذاك لك ، قال : ولي إمرة كل بلد أغلب عليه ، قال : وذاك لك ، قال :
 ولي في كل بلد أظفر به ، قال الأحنف : ليس ذاك لك ولا لنا ، إنما هو
 في المسلمين ، فإن سلمتهم إياه كنت عليهم كعدوهم ، ولكن لك أن تعطي
 أصحابك من في كل بلد تغلب عليه ما شئت ، وتتفق منه ما شئت على عارية
 عدوك ، فما فضل عنكم كان للمسلمين ، فقال المهلب : فمن لي بذلك ؟ قال
 الأحنف : نحن وأميرك وجماعة أهل مصر ، قال : قد قيلت ، فكتبوا
 بذلك كتاباً ووضع على يدي الصلت بن حريث بن جليج الحنفي ، وانتخب
 المهلب من جميع الأخماس ، فبلغت نخبته اثني عشر ألفاً ، ونظروا ما في بيت
 المال ، فلم يكن إلا مائتي ألف درهم ، فعبزت ، فبعث المهلب إلى التجار
 فقال : إن تجاركم منذ حول قد كسدت عليكم بانقطاع مواد الأهواز وفارس

عنكم ، فلم يبايعوني واخرجوا معي أوفئك إن شاء الله حقوقكم ، فتاجروهم ،
 فأخذ من المال ما يصلح به عسكره ، واتخذ لأصحابه الحفائين والرائات المحشوة
 بالصوف ، ثم نهض وأكثر أصحابه رجاله ، حتى إذا صار مجذاء القوم أسر
 بسفن فأحضرت وأصلحت ، فما ارتقع النهار حتى فرغ منها ، ثم أسر الناس
 بالعبور إلى الفرات ، وأسر عليهم ابنه المغيرة ، فخرج الناس ، فلما قابروا
 الشاطئ خاضت إليهم الحوارج ، فحاربهم المغيرة ، ونضحهم بالسهم حتى تنحوا ،
 فصار هو وأصحابه على الشاطئ ، فحاربهم فكشفوهم وشغلوهم ، حتى عقد الملب
 الجسر ، وعبر الحوارج منهزمون ، فنهى الناس عن اتباعهم . ففي ذلك يقول
 شاعر من الأزد :

إِنَّ الْعِرَاقَ وَأَهْلَهُ لَمْ يَخْبَرُوا مِثْلَ الْمَلَبِ فِي الْحُرُوبِ فَلَسُّوا
 أَمْضَى وَأَيْمَنَ فِي اللَّقَاءِ نَقِيبَةً وَأَقْلَى تَبْلِيلاً إِذَا مَا أَحْجَمُوا
 « التَّهْلِيلُ » ، التَّكْذِيبُ وَالْإِنْهَاءُ .

وأبلى مع المغيرة يومئذ عطية بن عمرو العبدي ، وكان من فرسان بني
 تميم وشجعانهم ، فقال عطية :

يُدْعَى رِجَالٌ لِلْعَطَاءِ وَإِنَّا يَدْعَى عَطِيَّةٌ لِلطَّعَانِ الْأَجْرَدِ
 وقال الشاعر :

وَمَا فَارِسٌ إِلَّا عَطِيَّةٌ فَوْقَهُ إِذَا الْحَرْبُ أَبَدَتْ عَنْ نَوَاجِذِهَا الْفَمَا
 بِهِ هَزَمَ اللَّهُ الْأَزَاقَ بَعْدَمَا أَبَاحُوا مِنَ الْمَصْرَيْنِ حِيلاً وَمَحَرَّمَا

* * *

فأقام الملب أربعين يوماً يجي الحراج بكور دجلة ، والحوارج بنهر تيرى ،
 والزيبر بن علي متفرّد بعسكره عن عسكر ابن الماحوز ، فقتل الملب التجار
 وأعطى أصحابه ، فأسرع إليه الناس رغبة في مجاهدة الحوارج ، ولما في الغنائم
 وللتجارات ، فكان فيمن أله محمد بن واسع الأزدي وعبد الله بن رباح ومعاوية
 ابن قرة المزني ، وكان يقول - يعني معاوية - : لو جاء الذئب من ههنا والحرورية

من ههنا ، لحاربت الحروية ، وأبو عمران الجوني ، وكان يقول : كان كعب يقول :
 قتل الحروية بفضل قتل غريم بعشرة أنوار ، ثم نهض الملب إليهم إلى نهر تيرى ،
 فتتبعوا إلى الأهواز ، وأقام الملب يحيى ما حو إليه من الكور ، وقد دس الجوايس
 إلى عسكر الحوارج ، فأتوه بأخبارهم ومن في عسكرهم ، فإذا حشوة ما بين
 قصر وصباغ وداعري وحداد ، فنظب الملب الناس ، فذكر من هناك ،
 وقال للناس : أمثل هؤلاء يغلبونكم على قبضكم ؟! فلم يزل مقيماً حتى فهمهم
 وأحكم أمره وقوى أصحابه ، وكثرت الفرسان في عسكره ، وتنام إليه
 زهاء عشرين ألفاً ، ثم مضى يؤم سوق الأهواز ، فاستخلف أخاه المعارك بن
 أبي صفرة على نهر تيرى ، وفي مقدسته المغيرة بن الملب ، حتى قلبهم المغيرة
 فتلوشوه ، فأنكشف عنه بعض أصحابه ، وثبت المغيرة بقية يومه وليته ، برقه
 النيران ، ثم غاداهم القتال ، فإذا القوم قد أوقدوا النيران في ثقلة ستاعهم ،
 وارتحلوا عن سوق الأهواز ، فدخلها المغيرة ، وقد جاءت أوائل الخيل خيل
 الملب ، فأقام بسوق الأهواز ، وكتب بذلك إلى الحرث بن عبد الله بن أبي
 ربيعة كتاباً يقول فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد : فإننا منذ خرجنا يؤم هذا العدو في
 نعم من الله متصية علينا ، ونعمة من الله متابعة عليهم ، نقدم ويجمعون ،
 ونغل ويوتلون ، إلى أن حللنا سوق الأهواز ، والحمد لله رب العالمين ، الذي
 من عنده النصر ، وهو العزيز الحكيم .

فكتب إليه الحرث : هنيئاً لك أخا الأزد الشرف في الدنيا ، والذخر في
 الآخرة ، إن شاء الله .

فقال الملب لأصحابه : ما أجنى أهل الحجاز ! أما ترونه يعرف اسمي
 واسم أبي وكنيتي ؟!

وكان الملب : يث الأحراس في الأمن ، كما يثبتهم في الخوف ، ويثقي
 العيون في الأمصار ، كما يذكها في الصحارى ، ويأمر أصحابه بالتحرز ، ويخوفهم

اليات ، وإن بعد منهم العدو ، ويقول : احذروا أن تُكادوا كما تُكيدون ، ولا تقولوا هَزَمْنَا وَغَلَبْنَا ، فَإِنَّ الْقَوْمَ خَائِفُونَ وَجُلُونَ ، وَالضَّرُورَةُ تَقْتَحُ بَابَ الْحَيَةِ ، ثُمَّ قَامَ فِيهِمْ خَطِيئاً فَقَالَ :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ! إِنَّكُمْ قَدْ عَرَضْتُمْ مِنْهُبَ هَؤُلَاءِ الْخَوَارِجِ ، وَأَنْتُمْ إِنْ قَدَرْتُمْ عَلَيْكُمْ فَتَوَكَّمْتُمْ فِي دِينِكُمْ ، وَسَفَكْتُمْ دِمَاءَكُمْ ، فَقَاتِلُوهُمْ عَلَى مَا قَاتَلَتْ عَلَيْهِ أَوْلَاهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، فَقَدْ لَقِيتُمْ قَبْلَكُمْ الصَّابِرَ الْمُحْتَسِبَ مُسْلِمُ بْنُ عَيْسَى ، وَالْعَجِيلَ الْمُرْطُ عَثَانُ بْنُ عَيْدٍ اللَّهِ ، وَالْمَعْصِيَّ الْخَالِفَ حَارِثَةَ بْنَ بَدْرٍ ، فَقَتَلْتُمُوهُمْ جَمِيعاً وَقَتَلْتُمُوهُمْ ، فَالْقَوْمُ بِجِدِّ وَحْدَةٍ ، فَإِنَّمَا هُمْ مَهْتَكَمٌ وَعَيْدُكُمْ ، وَعَلَرْتُ عَلَيْكُمْ وَنَقَصْتُ فِي أَحْسَابِكُمْ وَأَدْبَانِكُمْ أَنْ يَغْلِبَكُمْ هَؤُلَاءِ عَلَى فَيْتِكُمْ ، وَيَطْرُقُوا حَرِيمَكُمْ .

ثُمَّ سَارَ يَرِيدُهُمْ ، وَهُمْ يَتَنَافَرُونَ الصُّغْرَى ، فَوَجَّهَ عَيْدُ اللَّهِ بْنُ بَشِيرٍ بْنُ الْمَاحُوزِ رَئِيسَ الْخَوَارِجِ رَجُلًا يُقَالُ لَهُ وَاقِدٌ ، مَوْلَى لَأَلِ أَبِي صَفْرَةَ مِنْ سَبِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فِي خَمْسِينَ رَجُلًا ، قِيمَ صَالِحِ بْنِ مَخْرَاقٍ ، إِلَى نَهْرِ تَيْرِي ، وَبِهَا الْمُتَعَارِكُ بْنُ أَبِي صَفْرَةَ ، فَقَتَلُوهُ وَصَلَبُوهُ ، فَسَمَّى الْجَبْرُ إِلَى الْمَلَبِ ، فَوَجَّهَ ابْنَهُ الْمُفْعِرَةَ ، فَدَخَلَ نَهْرَ تَيْرِي وَقَدْ خَرَجَ وَاقِدٌ مِنْهَا ، فَاسْتَنْزَلَهُ وَدَفَنَهُ ، وَسَكَنَ النَّاسُ ، وَاسْتَخْلَفَ بِهَا ، وَرَجَعَ إِلَى أَبِيهِ وَقَدْ حُلَّ بِسُؤْلَافٍ ، وَالْخَوَارِجُ بِهَا ، فَوَاقَعَهُمْ ، وَجَعَلَ عَلَى بَنِي عَمِيرٍ الْحَرِيشِ بْنِ هَلَالٍ ، فَفَرَجَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ الْمَلَبِ ، يُقَالُ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْإِسْكَافُ ، فَجَعَلَ يَحْضُرُ النَّاسَ وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لَهُ صَفْرَاءُ ، فَجَعَلَ يَأْتِي الْمَيْمَنَةَ وَالْمِيسَرَةَ وَالْقَلْبَ ، فَيَحْضُرُ النَّاسَ وَيَهْوَنُ أُمَرَ الْخَوَارِجِ ، وَيَحْتَالُ بَيْنَ الصَّفِينِ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْخَوَارِجِ لِأَصْحَابِهِ : يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ ! هَلْ لَكُمْ فِي فَتْكَةِ فَمَا أَرْمِيَّةٌ ؟ فَحَمَلَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ عَلَى الْإِسْكَافِ ، فَقَاتَلَهُمْ وَحْدَهُ فَارِئاً ، ثُمَّ كَبَا بِهِ فَرَسُهُ ، فَقَاتَلَهُمْ رَاجِلًا ، قَاتِلًا وَبَارِكًا ، ثُمَّ كَثُرَتْ بِهِ الْجِرَاحَاتُ ، فَذَبَّابٌ بِسِفِهِ ، وَجَعَلَ يَحْثُو التُّرَابَ فِي وَجْهِهِمْ ، وَالْمَلَبُ غَيْرُ حَاضِرٍ ، ثُمَّ قَتَلَ رَحِمَهُ اللَّهُ ، وَحَضَرَ الْمَلَبُ فَأَخْبَرَ ، فَقَالَ لِلْحَرِيشِ وَعَطِيَّةُ الْعَنْبَرِيِّ : أَلَسْنَا سَيِّدَ أَهْلِ الْعَسْكَرِ ، لَمْ تُعِينَاهُ وَلَمْ تَسْتَقْدَاهُ ، حَسَدًا لَهُ ، لِأَنَّهُ رَجُلٌ مِنَ الْوَالِي ؟ ! وَوَجَّهْنَا ، وَحَمَلْ

رجلٌ من الحوارج على رجل من أصحابه فقتله ، فعمل عليه المهب فطعنه وقتله ، ومال الحوارج بأجمعهم على العسكر ، فانهمز الناس ، وقتلوا سبعين رجلاً ، وثبت المهب ، وأبلى المقيضة يومئذ وعُرف مكانه . ويقال : حاص المهب يومئذ حصة . وتقول الأزد : بل كان يرد المنزعة ويحمي أدبارهم ، فقال رجلٌ من بني منقر بن عبيد بن الحرث بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم :

بسولاف أضعت دماء قومي وطرت على مُواشكةٍ درور
قوله «مواشكة» يريد سريعة . ويقال : نحن على وشك رحيل . ويقال : ذميل مواشك ، إذا كان مريباً . قال ذو الرُمة :

إذا ما رمينا رميةً في مفازٍ عراقيها بالشيطميّ المواشك
و «دور» فقولٌ من درء الشيء : إذا تابع .

وقال رجلٌ من بني تميم آخرٌ :

تبنا الأعور الكذاب طوعاً يُزجني كلُّ أربعة حمارا
فياندمي على تركي عطائي مُعانةً وأطلبهُ ضمرا
إذا الرّحمنُ يسر لي قولا فخرق في قري سولاف نارا

قوله : «الأعور الكذاب» يعني المهب ، ويقال علوت عينه بسهم . كان أصحابها . وقال «الكذاب» لأن المهب كان فقياً ، وكان يعلم ما جاء عن رسول الله ﷺ من قوله : «كل كذب يكتب كذباً الا ثلاثة : الكذب في الصلح بين الرجلين ، وكذب الرجل لامرأته بعدها ، وكذب الرجل في الحرب يتوعد ويتهدد» ، وجاء عنه ﷺ : «لما أنت رجلٌ ، فخذل عنا ، فلما الحرب خدعة» . وقال عليه السلام في حرب الحندق لسعد بن عباد وسعد بن معاذ ، وهما سيدا الحين الخرج والأوس : «إني بني قريظة ، فان كانوا على العهد فاعلنا بذلك ، وان كانوا قد نقضوا ما بيننا فاعلنا لي لحاً أعرفه ، ولا تقتلوا في أعضاد المسلمين ، فرجعوا بغدر القوم فقالا : يا رسول الله عضل والقارة ، قال :

فقال رسول الله ﷺ للسلمين : « ابشروا فإن الأمر ما تحبسون » . قال الأخفش : سألت المبرد عن قولهما « عضلٌ والقارة » فقال : هذان حيّانٌ كانا في نهاية العدواة لرسول الله ﷺ ، فأرادا أنهما في الانحراف عنه والغدير به كهايتين القيتين .

قال أبو العباس : فكان المهلب ربما صنع الحديث ليشد به من أمر المسلمين ويضعف من أمر الحوارج ، فكان حينئذٍ من الأزد يقال لهم التذب إذا رأوا المهلب راغماً إليهم قالوا : قد راح المهلب ليكذب : وفيه يقول رجلٌ منهم :
 أنت الفتى كل الفتى لو كنت تصدق ما تقول



فبات المهلب في ألفين ، فلما أصبح رجع بعض المنهزمة فصار في أربعة آلاف ، فخطب أصحابه فقال : والله ما بكم من قلة ، وما ذهب عنكم إلا أهل الجبن والضعف والطمع والطبع ، فإن يمسكم قرحٌ فقد مس القوم قرحٌ مثله فسيروا إلى عدوكم على بركة الله . فقام إليه الحريش بن هلال فقال : أنشدك الله - أيها الأمير - أن تقاتلهم إلا أن يقاتلوك ، فإن بالقوم جراحاً وقد أثخنهم هذه الجولة ، فقبل منه ، ومضى المهلب في عشرة فآشرف على عسكر الحوارج ، فلم ير منهم أحداً يتحرك ، فقال له الحريش : ارتحل عن هذا الموضع ، فارتحل ، فعبر دجبلًا ، وصار إلى عاقول لا يؤتى إلا من وجه واحد ، فأقام به ، واستراح الناس ثلاثاً ، وقال ابن قيس الرقيات :

ألا طرقت من آل بية طارقة	على أنها معشوقة الدلّ عاشقة
تبيت وأرض السوس بيني وبينها	و-ولاف رستاق حمت الأزارقة
إذا نحن شئنا صادقتنا عصاة	حرورية أضحت من الدين مارقة
أجازت إلينا العسكرين كليهما	فباتت لنا دون اللعاف معانقة

وقد ذكرنا « الضَّهْر » ومعناه الغائب ، وأصله من قولك « أخضرت الشيء »
أي أخفيت عنه ، ويقال : مالٌ عَيْنٌ ، الحاضر ، ومالٌ ضَمَارٌ ، للغائب ،
قال الأعشى :

ومن لا تَضِيعُ له ذِمَّةٌ فيجعلها بعد عينٍ ضَمَاراً
وقال أيضاً :

ترانا إذا أخضرتك البلا دُثْبُجِي وتقطع منا الرِّحْم

والفعل من هذا « أخضر يُضمر » والمفعول به « مضمَرٌ » ، والفاعل « مضمرٌ »
و « الضَّهْر » اسمٌ للفعل في معنى الإضمَار . وأسماء الأفعال تشترك المصادر في
معانيها ، تقول : أعطيتُه عطاءً ، فيشارك العطاء الإعطاء في معناه ، ويسمى به
المفعول . وتقول : كلمته تكليماً وكلاماً ، في معناه ، والمصدر يُنعت به الفاعل
في قولك : رجلٌ عدلٌ ، ورجلٌ كرمٌ ، ورجلٌ نَوْمٌ ، ويومٌ غمٌ وغيمٌ ،
وينعت به المفعول في قولك : رجلٌ رضى ، وهذا درهمٌ ضرب الأمير ، وجاني
الحلق ، تعني المحلوقين .

وقال رجلٌ من الحوارج في ذلك اليوم :

وكأنَّ تركنا يوم سولافَ منهم أسارى وقتلى في الجحيم مصيرها

قوله « وكأنَّ » معناه : كم ، وأصله كاف التشبيه دخلت على « أي » ،
فصارنا بمنزلة كم ، ونظير ذلك : له كذا وكذا درهماً ، إنما هي « ذا » دخلت
عليها الكاف ، والمعنى : له كهذا العدد من الدراهم . فإذا قال : له كذا كذا
درهماً ، فهو كتابة عن أحد عشر درهماً إلى تسعة عشر ، لأنه ضمَّ العديدين ،
فإذا قال : كذا وكذا ، فهو كتابة عن أحدٍ وعشرين درهماً إلى ما جاز فيه
العطف بعده . ولكن كثرت « كأي » فخففت ، والتثقيب الأصل ، قال الله
تعالى : (وكأيٍّ من قريةٍ أملت لها وهي ظالمةٌ) ، (وكأيٍّ من نبيٍّ قاتل
معه ربيُّون كثيرٌ) وقد قرئ بالتخفيف ، كما قال الشاعر :

وكاه رددنا عنكم من مدحج
يحيه أمام الألف يردى مقنعا
وقال آخر :

وكاه ترى يوم الغيماء من قتي
أصيب ولم ميجرح وقد كان جارحا
قال أبو العباس : وهذا أكثر على ألسنتهم ، لطلب التخفيف ، وذلك الأصل ،
وبعض العرب يقلب فيقول « كيه يافتى » فيؤخر الهمزة لكثرة الاستعمال ،
قال الشاعر :

وكيه في بني دودان منهم
غداة الرّوع معروفا كمي

* * *

قال أبو العباس : فأقام الملب في ذلك العاقول ثلاثة أيام ، ثم ارتحل
والخوارج بسلى وسلوى. قال الاخفش « سلى » وه « سلوى » بفتح السين فيها ،
موضعان بالاهواز ، « سلى » بكسر السين موضع بالبادية ، وهكذا ينشد
هذا البيت :

كان غديرم يجنوب سلى
نعام قاق في بلي قفار

فزل قريبا منهم ، فقال ابن الماحوز لأصحابه : ما تنتظرون بعدوكم وقد
هزمتهم بالأمس وكسرتهم حديم ؟ فقال له وافد مولى أبي صفرة : يا أمير
المؤمنين ! إنما تفرق عنهم أهل الضعف والجن ، وبقي أهل النجدة والقوة ، فإن
أصبتهم لم يكن ظفرا هنيئا ، لاني أراهم لا يهابون حتى يصيبوا ، فإن غلبوا
ذهب الدين ، فقال أصحابه : نافتى وافد ! فقال ابن الماحوز : لاتعجلوا على
أخبيكم ، فإنه إما قال هذا نظرا لكم . ثم توجه الزبير بن عتي إلى عسكر الملب
لينظر ما حالهم ، فأتاهم في مائتين ، فحزرم ورجع ، وأمر الملب أصحابه بالحارس ،
حتى إذا أصبح ركب إليهم على تعية صحيحة ، فالتقوا بسلى وسلوى فصاحقوا ،
فخرج من الخوارج مائة فارس ، فركزوا رماحهم بين الصفيين واتكئوا
عليها ، وأخرج إليهم الملب عدادهم ، ففعلوا مثل ما فعلوا ، لا يربون إلا لصلة
حتى أموا ، فرجع كل قوم إلى معسكرهم ، ففعلوا هذا ثلاثة أيام .

ثم إن الخوارج تطاردوا لهم في اليوم الثالث ، فحمل عليهم هؤلاء الفرسان

يحولون ساعة ، ثم إن رجلاً من الحوارج حمل على رجل فطعنه ، فحمل عليه المهب
 فطعنه ، فحمل الحوارج بأجمعهم ، كما صنعوا يوم سولاف ، فضعفوا الناس ،
 وفقد المهب ، وثبت المغيرة في جمع أكثرهم أهل عمان ، ثم نجم المهب في مائة
 فارس ، وقد انغمست كفاء في الدم ، وعلى رأسه قلنسوة مربعة فوق المغفر
 حشوة قزاً ، وقد تمزقت ، وإن حشوها ليطاير ، وهو يلهث ، وذلك في
 وقت الظهر ، فلم يزل يحاربهم الى الليل ، حتى كثر القتل في الفريقين . فلما
 كان الغد غاداهم ، وقد كان وجهه بالامس رجلاً من طاحية بن سود بن مالك بن
 فهم بن الازد ، يرث المنهزمين ، فمر به عامر بن مسمع فردّه ، فقال : إني
 الامير أذن لي ، فبعث إلى المهب فأعلمه ، فقال : دعه ، فلا حاجة لي في
 مثله من أهل الجبن والضعف . وقد تفرق أكثر الناس ، فغاداهم المهب في ثلاثة
 آلاف ، وقال لأصحابه : ما بكم من قلة ، أيعجز أحدكم أن يرمي برمح ثم يتقدم
 فيأخذ ؟ ففعل ذلك رجل من كندة يقال له عياش وقال المهب لأصحابه :
 أعدوا تخالي فيها حجارة وارموا بها في وقت الغفلة ، فلما تصدّ الفارس وتصرع
 الراجل ، ففعلوا ، ثم أمر منادياً ينادي في أصحابه ، يأمرهم بالجد والصبر ،
 ويطمعهم في العدو ، ففعل ، حتى مر بيني العدو ، من بني مالك بن حنظلة ،
 فضربوه ، فدعا المهب بسيدهم ، وهو معاوية بن عمرو ، فجعل يركله برجله ،
 وهذا معروف في الازد ، فقال له أصلح الله الامير ، أعفني من أم كيسان ،
 والركبة تسمي الأزد أم كيسان . ثم حمل المهب وحملوا ، فاقتلوا
 قتلاً شديداً ، فجهّد الحوارج ، فنادى منادهم : ألا إن المهب قد قتل ، فركب
 المهب برزونا قصيراً أشهب ، وأقبل يركض بين الصفيين ، وإن إحدى يديه لفي
 القباء وما يشعر بها ، وهو يصيح : أنا المهب ، فسكن الناس بعد أن كانوا
 قد ارتاعوا وظنوا أن أميرهم قد قتل ، وكلّ الناس مع العصر ، فصاح المهب
 بابنه المغيرة : تقدم ، ففعل ، وصاح بذكوان مولاه : قدّم رايتك ، ففعل ،
 فقال له رجل من ولده : إنك تغرر بنفسك ، فدمره ، ثم صاح : يا بني هجم !

أَأْمَرَكُمُ قَتَعْمُونِي؟! فَتَقَدَّمُ وَتَقَدَّمُ النَّاسُ ، وَاجْتَلَبُوا أَشَدَّ جِلَادٍ ، حَتَّى إِذَا كَانَ مَعَ الْمَسَاءِ قَتَلَ ابْنُ الْمَاحُوزِ ، وَانصَرَفَ الْحَوَارِجُ ، وَلَمْ يَشْعُرِ الْمُهَلَّبُ بِقَتْلِهِ ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ : ابْغُونِي رَجُلًا جَلَدًا يَطُوفُ فِي الْقَتْلِ ، فَاسْأَلُوا عَلَيْهِ بِرَجُلٍ مِنْ جَرَمٍ ، وَقَالُوا : إِنَّا لَمْ نَرِ رَجُلًا قَطُّ أَشَدَّ مِنْهُ ، فَطُوفَ وَمَعَهُ التَّيْرَانُ ، فَبَعَلَ إِذَا مَرَّ بِمَجْرِيحٍ مِنَ الْحَوَارِجِ قَالَ : كَلَفَرْتُ وَرَبَّ الْكُفَّةِ ، فَأَجْبَزَ عَلَيْهِ ، وَإِذَا مَرَّ بِمَجْرِيحٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَمَرَ بِقَتْلِهِ وَحَمَلَهُ .

وَأَقَامَ الْمُهَلَّبُ فِي عَسْكَرِهِ يَأْرُمُ بِالْإِحْتِرَاسِ ، حَتَّى إِذَا كَانَ نِصْفَ اللَّيْلِ وَجَّهَ رَجُلًا مِنَ الْيَحْمَدِ - قَالَ الْأَخْفَشُ : الْيَحْمَدُ مِنَ الْأَزْدِ ، وَالْخَلِيلُ مِنْ بَطْنِ مَنْهُمْ يُقَالُ لَهُمُ الْفَرَاهِدُ ، وَالْفَرُودُ فِي الْأَصْلِ الْحَمْلُ ، فَإِنْ نُسِبَتْ إِلَى الْحَيِّ قُلْتُ « فَرَاهِدِي » وَإِنْ نُسِبَتْ إِلَى الْحُمَلَانِ قُلْتُ « فَرُودِي » لِأَنَّهُ - فِي عَشْرَةِ فَصَاحُوا إِلَى عَسْكَرِ الْحَوَارِجِ ، فَإِذَا الْقَوْمُ قَدْ تَحَمَّلُوا إِلَى أَرْجَانٍ ، فَرَجَعَ إِلَى الْمُهَلَّبِ فَأَعْلَمَهُ ، فَقَالَ : أَنَا لَهُمُ السَّاعَةُ أَشَدُّ خَوْفًا ، فَاحْذَرُوا الْبَيَاتَ .

. . .

قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ : وَيُرْوَى عَنْ شُعْبَةَ بْنِ الْحَجَّاجِ أَنَّ الْمُهَلَّبَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ يَوْمًا : إِنْ هَؤُلَاءِ الْحَوَارِجُ قَدْ يَنْسَوْنَ مِنْ فُلْحَتِكُمْ إِلَّا مِنْ جِهَةِ الْبَيَاتِ ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ فَاجْعَلُوا شَعَارَكُمْ حَسَمَ لَا يَنْصُرُونَ ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَأْمُرُ بِهَا . وَيُرْوَى : أَنَّهُ كَانَ شَعَارَ أَصْحَابِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ .

فَلَمَّا أَصَحَّ الْمُهَلَّبُ غَدَا عَلَى الْقَتْلِ ، فَأَصَابَ ابْنُ الْمَاحُوزِ فِيهِمْ ، فَفِي ذَلِكَ يَقُولُ رَجُلٌ مِنَ الْحَوَارِجِ :

بِلسَى وَسَلْبَى مِصَارَعُ قَتِيَةٍ
كِرَامٍ وَجَرَحَى لَمْ تَوَسَّدْ خُدُودَهَا

وَقَالَ آخَرُ :

بِلَى وَسَلْبَى مِصَارَعُ قَتِيَةٍ
كِرَامٍ وَعَقْرَى مِنْ كَيْتٍ وَمِنْ وَرْدٍ

وَقَالَ رَجُلٌ مِنْ مَوَالِي الْمُهَلَّبِ : لَقَدْ صَرَعْتُ يَوْمَئِذٍ بِمِجْرٍ وَاحِدٍ ثَلَاثَةً ، وَمِيتَ بِهِ رَجُلًا فَاصْبَتْ أَمْلُ أُذُنِهِ فَصَرَعْتُهُ ، ثُمَّ أَخَذْتُ الْخَبِرَ فَضَرَبْتُ بِهِ آخَرَ عَلَى هَامَتِهِ فَصَرَعْتُهُ ، ثُمَّ صَرَعْتُ بِهِ ثَلَاثًا .

وقال رجلٌ من الخوارج :

أفأنا بأحجارٍ ليقْتلنا بها وهل تقتل الأبطال ويحك بالحبر

وقال رجلٌ من أصحاب الملب في يومِ سِلى وسليرى وقتل ابن الماحوز :

ويومِ سِلى وسليرى أحاط بهم منّا صواعق ما تبقي ولا تذر

حتى تركنا مُعبدَ الله مُتجذلاً كما تجذّل جندعُ مالٍ منقعرُ

قال أبو العباس : تقولُ العربُ « صاعقةٌ وصواعقٌ » وهو منعبٌ أهل

الحجازِ ، وبه نزل القرآنُ ، وبنو تميمٍ يقولون « صاقعةٌ وصواقعٌ » .

و « المنقعرُ » المنقلعُ من أصله . قال الله أصدقُ القتاتينَ : (كأنهم

أعجازُ نخلٍ منقعرٍ) .

ويروى : أن رجلاً من الخوارج يومِ سِلى حمل على رجلٍ من أصحاب الملب قطعته ،

فلما خالطه الرمحُ صاح : يا أمتاه ! فصاح به الملب : لا أكثرَ اللهُ بِثلكَ المسلمين ،

فضحكَ الخارجيُّ وقال :

أملكَ خيرٌ لك مني صاحباً تسقيك محضاً وتعمل راناً

وكان المغيرة بن الملب إذا نظر إلى الرماح قد تشاجرت في وجهه نكسَ

على قريوس سرجه وحمل من تحتها فبرأها بسيفه وأثر في أصحابها ، حتى تخرمت

المينة من أجله . وكان أشدَّ ما تكون الحربُ أشدَّ ما يكون تبساً ، فكان

الملبُ يقولُ : ما شهد معي حرباً قط إلا رأيت البشرى في وجهه .

وقال رجلٌ من الخوارج في هذا اليوم :

فإن نك قتل يومِ سِلى تابعت فكم غادوت أسيفنا من قهافر

غداة نكر المشرقة فهم بولاف يومِ المأزق للتلاحم

« المأزق » هو يوم تضايق الحرب . و « التلاحم » نعت له . و « المشرقة »

السيوف ، نسبت إلى المشرق من أرض الشام . وهو الموضع الملقب موة النبي

قتل به جعفر بن أبي طالب وأصحابه .

قال الأخفش : كلف المبرود لايهمز « موة » . ولم أسمعها من علمائنا إلا بالهمز () .

* * *

قال أبو العباس : فكتب المهلب إلى الحرث بن عبد الله بن أبي ربيعة القبايع :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد : فإننا لقينا الأزارقة المارقة ، بحدرٍ وجدٍ ، فكانت في الناس جولةً ، ثم تاب أهل الحفاظ والصبر ، بنيت صادقةً ، وأبدان شدادٍ ، وسيوف حدادٍ ، فأعقب الله خير عاقبةً ، وجاوز بالنعمة مقدار الأمل ، فصلوا دوة رماحنا ، وضرائب سيوفنا ، وقتل الله لميرم ابن الماحوز ، وأرجو أن يكون آخر هذه النعمة كأولها ، والسلام .

فكتب إليه القبايع :

قد قرأت كتابك يا أخا الأزدي ، فرأيتك قد وهب الله لك شرف الدنيا وعزها ، وذخر لك ثواب الآخرة إن شاء الله وأجرها ، ورأيتك أوتيت حصون المسلمين ، وهادئ أركان المشركين ، وأخا السياسة وذا الرئاسة ، فاستدم الله بشكره ، يتم عليك نعمة ، والسلام .

وكتب إليه أهل البصرة يثنونه ، ولم يكتب إليه الأخنف ، ولكن قال : اقرؤا عليه السلام ، وقولوا له : أنا لك على ما فارقتك عليه . فلم يزل يقرأ الكتب ويلتمس في أضعافها كتاب الأخنف ، فلما لم يره قال لأصحابه : أما كتب إلينا ؟ فقال له الرسول : حملني إليك رسالة ، وأبلغه ، فقال : هذه أحب إلي من هذه الكتب .

* * *

واجتمعت الحوارج بأرجان ، فبايعوا الزبير بن عتيق ، وهو من بني سبط ابن يربوع ، من رماة ابن الماحوز ، قرأ فيهم انكساراً شديداً وضغطاً بيناً ،

فقال لهم : اجتمعوا ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم أقبل عليهم فقال: إن البلاد المؤمنين تحيص وأجر ، وهو على الكافرين عقوبة وخزي ، وإن يصب منكم أمير المؤمنين فما صار إليه خير مما خلف ، وقد أصبتم منهم "مسلم بن عيسى ، وريبعا الأجدم ، والحجاج بن بابي ، وحاتمة بن بدر ، وأشعث الملب" ، وقتلتم أخاه الملعوك ، والله يقول لإخوانكم من المؤمنين : (إن يمسك قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس) فيوم سلى كان لكم بلاء ومحصا ، ويوم سولاف كان لهم عقوبة ونكالا ، فلا تغلبن على الشكر في حينه ، والصبر في وقته ، ويتقوا بأنكم المستخلفون في الأرض ، والعاقبة للمتقين .

ثم تحمل لمحاربة الملب ، فنفتحهم للملب نفقة ، فرجعوا ، فأمكن للملب في غرض من غموض الأرض ، يقرب من عسكره ، مائة فارس ليقتالوه ، فسار الملب يوما يطوف بعسكره ويتفقد سواده ، فوقف على جبل فقال : إن من التدبير لهذه المارقة أن تكون قد أكنت في سفح هذا الجبل كميناً ، فبعث عشرة فوارس ، فاطلعوا على المنة ، فلما علموا أنهم قد علموا بهم قطعوا القنطرة ونجوا ، وكسفت الشمس ، فصاحوا بهم : يا أعداء الله ! لو قامت القيامة لجددنا في جهادكم . ثم يش الزبير من ناحية الملب ، فضرب إلى ناحية أصهان ، ثم كر راجعاً إلى أرتجان . وقد جمع جموعاً ، وكان الملب يقول : كافي بالزبير وقد جمع جموعاً ، فلا تزهوهم فتخبث قلوبكم ، ولا تنفلوا الاحتراس فيطمعوا فيكم . فجاؤوه من أرتجان فالتقوا مستعداً آخذاً بأفواه الطررق ، فعاربوه ، فظهر عليهم ظهوراً يئساً . ففي ذلك يقول رجل من بني تميم ، أحبه من بني رباح ابن يربوع :

سقى الله الملب كل غيث من الوسمي يتحر انتحاراً
فما ومن الملب يوم جاءت عوايس خيلهم تبغي الفوارا

وقال المهلبُ يوشذِرُ : ما وقعتُ في أمر ضيّقٍ من الحرب إلا رأيتُ أمامي رجالاً من بني المهجيم بن عمرو بن ثيم يحالدون ، وكانَ لحام أذنب العقاقي . وكانوا صبروا معه في غير موطنٍ .

وقال رجل من بني ثيم ، من بني عَشم بن سعدٍ :
ألا يا منْ لصبٍ مستعنٍ قريح القلب قد صَحِبَ المزوْنا
لهانَ على المهلب ما لقينا إذا ماراح مسروراً بَطِينا
يجرُّ السليري ونحن شُعْثُ كأنَّ جلودنا كُتِبَ طحينا
« المزوْنُ » معناه ، وهو اسم من أسمائها . قال الكمي :
فأما الأزْدُ أزدُ أبي سعيدٍ فأكْرهُ أن أَسْمِيا المزونا

وقال جريرٌ :

وأطفأت نيران المزون وأهلها وقد حاولوها فتةً أن تسعرا
وحمل يوشذِرُ الحريش بن هلال على قيس الإكاف ، وكان قيسٌ من أنجب
فرسان الحوارج ، فظنّه فدقّ صلبه ، وقال :
قيسُ الإكاف غداة الرّوع يعلّني تَبَّتَ المقام إذا لاقيتُ أقراني

• • •

وقد كان فلٌ المهلب يوم سَلَّى وسلَّى صاروا إلى البصرة ، فذكروا
أن المهلب أصيب ، فهم أهل البصرة بالنقلة إلى البادية ، حتى ورد كتابه
بظفره ، فأقام الناس ، وتراجع من كان ذهب منهم ، فعند ذلك يقول الأحنفُ
ابن قيسٍ : البصرة بصره المهلب . وقدم رجلٌ من كِنْدَةَ يقال له فلان بن
أرقم ، فعنى ابن عم له ، وقال : رأيتُ رجلاً من الحوارج وقد مكثَ ربحه
من صلبه ، فقدم المتعبي ، ف قيل له ذلك ، فقال : صدق ابن أرقم لما أحسْتُ
ربحه بين كفتي صحتُ به البقية ! فرفعه عني ، وتلا « بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ
إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » .

ووجه الملب بعقب هذه الورقة وجلاً من الأزرد برأس عيда الله بن بشير بن الماحوز إلى الحارث بن عدا الله بن ابي ربيعة القُبَاع ، فلما صار بكرْبُج دِنْلَرٍ لقيه حبيبٌ وعبد الملك وعليُّ بنو بشير بن الماحوز ، فقالوا له : ما الخبر ؟ ولا يعرفهم ، فقال : قتل الله المارق ابن الماحوز ، وهذا رأسه معي ! فوثبوا عليه فقتلوه وصلبوه ودفنوا الرأس ، فلما وليَ الحجاج دخل عليه عليُّ بن بشير ، وكان وسماً جسيماً ، فقال : من هذا ؟ فخبّر قتله ، ووهب ابنه الأزهر وابنته لأهل الأزديّ المَقُول ، وكانت زينب بنتُ بشير لهم مُواصلةً ، فوهبهما لها .

فلم يزل الملب يُقاتلُ الحوارج في ولاية الحارث القُبَاع ، حتى عُزل الحارثُ ووُلِّي مصعب بن الزبير ، فكتب إليه أن اقدمَ عليَّ واستخلف ابنك المغيرة ، ففعل ، فجمع الناس فقال لهم : إني قد استخلفت عليكم المغيرة ، وهو أبو صغيركم رقةً ورحمةً ، وابن كبيركم طاعةً وبراً وتبجيلاً ، وأخو منته مواصلةً ومناصحةً ، فلتَحْسُنْ له طاعتكم ، وليلن له جانبكم ، فوالله ما أردتُ صواباً قطُّ إلا سبقتني إليه . ثم مضى إلى مصعب ، وكتب مصعبٌ إلى المغيرة بولايته ، وكتب إليه : إنك لم تكن كليك ، فإنك كافٍ لما وليتك ، فشمّر واتزّر وجدّ واجتهد .

ثم تشخص المصعب إلى المذار ، فقتل أحرر بن شميطة ، ثم أتى الكوفة فقتل المختار بن ابي عبيد . وقال للملب : أشرْ عليَّ برجلٍ أجعله بيني وبين عبد الملك . فقال له : أذكرُ لك واحداً من ثلاثة : محمد بن عمير بن عطارد الدارمي ، أو زياد بن عمرو بن الأشرف العتكي ، أو داؤود بن قحذم ، فقال : أو تكفيني ؟ قال : أكفيك إن شاء الله ، فولاه الموصل ، فشخص الملب إليها .

وصار مصعبٌ إلى البصرة ، فآل : مَنْ يَشْكُني أمر الحوارج ويفد

إلى أخيه ، فشاور الناس ، فقال قومٌ : ولّ عيّد الله بن أبي بكره ، وقال قومٌ : ولّ عمر بن عيّد الله بن معمر ، وقال قومٌ : ليس لهم إلا المهلب فلردّده إليهم .

وبلغت المشورة الحوارج ، فادابوا الأمر بينهم ، فقال قطريّ بن الفجاءة المازنيّ : إنّ جاءكم عيّد الله بن أبي بكره أأأكم سيّدٌ سمحٌ جوادٌ كريمٌ مصيحٌ لسكره ، وإنّ جاءكم عمر بن عيّد الله بن معمر أأأكم شجاعٌ بطلٌ فارسٌ جادٌ ، يقاتل لدينه ومملكه ، وبطيعة لم أر مثلاً لأحدٍ ، فقد شهدته في وقائع فما نودي في القوم لحربٍ إلا كان أول فارسٍ يطلع حتى يشد على قرنه فيضربه ، وإن رُدّ المهلب فهو من قد عرقتموه : إنّ أخذتم بطرف نوبٍ أخذ بطرفه الآخر ؛ يده إذا أرسلتموه ، ويرسه إذا مددتموه ، لا يبدؤكم إلا أن تبدؤوه ، إلا أن يرى فرصة فينتهزها ، فهو الليث المبير ، والنعلب الرواغ ، والبلّاء المقيم

فولى عليهم عمر بن عيّد الله ، وولاه فارس ، والحوارج بأرجان ، وعليهم الزبير بن عير السليطي ، فشخص إليهم فقاتلهم ، وألح عليهم حتى أخرجهم عنها ، فألقهم بأصبهان ، فلما بلغ المهلب أن مصعباً ولي عمر بن عيّد الله قال : ومأم بفارس العرب وقتاها .

فجمعوا له وأعدّوا واستعدوا ، ثم أتوا سابور ، فسار إليهم حتى نزل منهم على أربعة فراسخ ، فقال له مالك بن حسان الأزدي : ان المهلب كان يُدّعي العيون ، ويخاف الليث ، ويرتب الغفلة ، وهو على أبعد من هذه المسافة منهم ، فقال له عمر : اسكتْ خلع الله قلبك ! أتراك تموت قبل أجلك ؟! فأقام هناك ، فلما كان ذات ليلة بيته الحوارج ، فخرج إليهم فحلّوهم حتى أصبح فلم يظفروا منه بشيء ، فأقبل على مالك بن حسان فقال : كيف رأيت ؟ قال : قد سلّم الله عز وجل ، ولم يكونوا يطعمون من المهلب بثلثها ، فقال : أما إنكم لو

فاحتضوني مناصحتكم المهلب لرجوتُ أن أنقي هذا العدو ، ولكنكم تقولون :
قرشي حجازي بعيد الدار ، خيره لغيرنا ، فتقاتلون معي تعذيراً .

• • •

ثم زحف إلى الحوارج من غد ذلك اليوم ، فقاتلهم قتالاً شديداً ، حتى
أجّاهم إلى قطرة ، فكانت الناس عليها حتى سقطت ، فأقام حتى أصلحها ، ثم
عبروا ، وتقدم ابنه عبيد الله بن عمر ، وأمه من بني سَهْم بن عمرو بن
هُصَيْص بن كعب ، فقاتلهم حتى قُتل . فقال قطري : لا تقاتلوا عمر
اليوم فإنه موتور . ولم يعلم عمر بقتل ابنه ، حتى أفضى إلى القوم ، وكان مع
ابنه النعمان بن عباد ، فصاح به : يا نعمان ! أين ابني ؟ فقال : احبسه أها
الأمير ، فقد استشهد رحمه الله صلواً مقبلاً غير مدبر . فقال : إنا لله
وإنا إليه راجعون . ثم حمل على الناس حملة لم يُرَ مثلاً . وحمل أصحابه بحملته
فقتلوا في وجههم ذلك تسعين رجلاً من الحوارج ، وحمل على قطري فضربه
على جبينه ففلقه . وانهمزت الحوارج ، وانتهبها . فلما استقرّوا ، قال لهم
قطري : أما أشرتُ عليكم بالانصراف ؟ ففعلوه وجوههم حتى خرجوا
من فارس .

وتلقاهم في ذلك الوقت الفيزر بن مهزم العبدئي . فسأله عن خبره ؟
وأرادوا قتله ! فاقبل على قطري فقال : إني مؤمنٌ مهاجرٌ ، فسأله عن أقاويلهم ؟
فأجابها ، فخلّوا عنه ، فقي ذلك يقول في كلمة له :

وشدّوا وثاقي ثم ألجوا خصومي إلى قطري ذي الجين المفلتي

وحاجبشهم في دينهم وحجبتهم وما دينهم غيرُ الهوى والتخلي

ثم إنهم تراجعوا وتكاثفوا . (قال الأخفش : « تكاثفوا » أعان بعضهم
بعضاً واجتمعوا وصار بعضهم في كنف بعض) وعادوا إلى ناحية أرّجان ،
فسار إليهم عمر ، وكب إلى صعب : أما بعد . فإني قد لقيتُ الأزارقة ،

فوزق الله عبيد الله بن عمر الشهادة ، وهب له السعادة ، ورزقنا عليهم الظفر ، ففرقوا شذرَ مذرَ ، وبلغتني عنهم عودةٌ ، فيمتمهم ، وبالله أستعين وعليه أتوكلُ .

فسلوا إليهم ومعه عطيةٌ بن عمرو ومبجاعةٌ بن سعيدٍ ، فالتقوا ، فآلح عليهم حتى أخرجهم ، وانفردَ عمر من أصحابه ، فعمدَ له أربعة عشر رجلاً منهم ، من مذكورهم وشجعانهم ، وفي يده عمودٌ ، فجعل لا يضربُ رجلاً منهم ضربةً إلا صرعه . فركضَ إليه قطريُّ على فرس طيمرٍ ، وعمر على مهرٍ ، فاستحلاه قطريُّ بقوة فرسه حتى كاد يصرعه ، فبصر به بجاعة فأمصرع إليه ، فصاحت الحوارجُ بقطريٍّ : يا أبا نعامه ! إن عدو الله قد رهقك ، فانخطَّ قطريُّ عن قرْبوسه ، فطعنه بجاعةٌ ، وعلى قطريٍّ درعان فهتكها وأسرع السنانُ في رأس قطريٍّ ، فكشط عنه جلدةً ونجماً .

وارتحلَ القومُ إلى أصفهانَ فأقاموا بها برهةً ، ثم رجعوا إلى الأهواز ، وقد ارتحلَ عمر بن عبيد الله إلى أصطخر ، فأمر بجاعة فبسى الحراجَ أسبوعاً ، فقال له : كم جيت ؟ قال : تسعمائة ألفٍ ، فقال : هي لك ، فقال يزيدُ ابن الحكم التقيُّ للجاعة :

ودعاك دعوةً شرهقَ فأجبتَه عمرٌ وقد نسي الحياةَ وضاعا
فرددتِ عادبةً الكتيبةَ عن قتيٍّ قد كاد يتركُ لحنهُ أوْزاعا

وعزلَ مصعبُ بن الزبير وولي حمزةُ بن عبد الله بن الزبير ، فوجهُ المهلب إليهم ، فحاربهم فأخرجهم عن الأهواز ، ثم ردَّ مصعبُ والمهلبُ بالبصرة ، والحوارجُ بأطرافِ أصفهانَ ، والوالي عليها عتابُ بن ورقاء الرياحيُّ ، فأقام الحوارجُ هناك شيئاً يجنبون القرى ، ثم أقبلوا إلى الأهواز من ناحية فارس ، فكتب مصعبُ إلى عمر بن عبيد الله : ما أنصفتنا ، أمتَ بفارس نجبي الحراجَ ومثلُ هذا العدوِّ مجاربك ، والله لو قاتلت ثم هربت لكان أعذر لك . وخرج مصعبُ من البصرة يريدكم ، وأقبلَ عمر بن عبيد الله يريدكم ، ففتح الحراجُ إلى السوس ،

ثم أتوا المدائن ، فقتلوا أحر طيبر ، وكان شجاعاً ، وكان من فرسان عبيد الله بن الحر ، ففي ذلك يقول الشاعر :

تركتم قتي القتيان أحر طيبر
بسابط لم يعطيف عليه خليل

ثم خرجوا عامدين إلى الكوفة ، فلما خالطوا سوادها ، ووالها الحارث بن عبد الله القباع ، فتناقل عن الخروج ، وكان جباناً ، فدمره إبراهيم بن الأستر ، ولامه الناس فخرج متحاملاً حتى أتى النخلة ، ففي ذلك يقول الشاعر :

إن القباع سار سيواً نكراً
بيرو يوماً ويقم شهراً

وجعل يعد الناس بالخروج ولا يخرج ، والحوارج يبيتون ، حتى أخذوا امرأة فقتلوا أباهما بين يديها ، وكانت جيلة ، ثم أراحوا قتلها ، فقالت : أقتلون من ينشأ في الحلية وهو في الحسام غير ممين ؟! فقال قاتل منهم : دعوها ، فقالوا : قد قتلتك ، ثم قديموها فقتلوا ، ثم قرئوا أخرى ، وهم بجذء القباع والجسر معقود بينهما ، فقطعه القباع ، وهو في ستة آلاف ، والمرأة تستقيت به وهي تقول : علام تقتلونني ؟ فوالله ما نسقت ولا كفت ولا ارتددت ! والناس يتفلقون إلى الحوارج ، والقباع ينعمهم ، فلما خاف أن يعصوه أمر عند ذلك بقطع الجسر ، فأقام بين دبابها وديري خمسة أيام ، والحوارج بقربه ، وهو يقول للناس في كل يوم : إذا لقيتم العدو غداً فأثبثوا أقدامكم واصبروا ، فإن أول الحرب الترامي ، ثم إشراع الرماح ، ثم السه ، فشككت رجلاً أمه فر من الزحف . فقال بعضهم لما أكثر عليهم : أما الصفة فقد سمعناها ، فتي يقع الفعل ؟! وقال الراجز :

إن القباع سار سيواً ملها
بين دبابها وديري خمسا

فأخذ الحوارج حاجتهم ، وكان شأن القباع التحصن منهم ، ثم انصرفوا ورجع إلى الكوفة ، وصاروا من فورهم إلى أصهان ، فبعث عتاب بن ورقاء إلى الزبير بن عتيب : أنا ابن عمك ، ولست أدراك تقصيد في انصراطك من كل حرب غيري . فبعث إليه الزبير : إن أدنى الفاسقين وأبعدهم من الحق سواء .

ولما سمى الحرث بن عبد الله بن أبي ربيعة القبايع لأنه ولي البصرة فعبّر
على الناس مكاييلهم ، فنظر إلى مكيال صغير في مرآة العين وقد أحاط بدقيق
استكثره ، فقال : إن مكيالكم هذا لقبايع . و « القبايع » الذي يخفي أو
يخفى مافيه ، يقال : اتبع الرجل : إذا استتر ، ويقال للقفد القبع وذلك
أنه يخفى رأسه .

قال أبو العباس : وأقام الحوارج يغادون عتاب بن ورقاء القتال ويواحدونه ،
حتى طال عليهم المقام ، ولم يظفروا منه بكبير ، فلما كثر ذلك عليهم انصرفوا ،
لا يرون بقرية بين أصفهان والأهواز إلا استباحوها وقتلوا من فيها .

وشاور المصعب الناس فيهم ، فأجمع رأيهم على الملب ، فبلغ الحوارج
مشورته ، فقال لهم قطري : إن جاءكم عتاب بن ورقاء فهو فاتك يطلع في
أول المقلب ولا يظفر بكبير ، وإن جاءكم عمر بن عبيد الله فقلرس يقدم ،
فأما له وإما عليه ، وإن جاءكم الملب فرجل لا يناجزكم حتى تتأجيزوه ، وتأخذ
منكم ولا يعطيكم ، فهو البلاء اللاتم ، والمكروه الدائم .

وعزّم المصعب على توجيه الملب ، وأن يتنصص هو لحرب عبد الملك فلما
أحسن به الزبير بن عليّ خرج إلى الري ، وبها يزيد بن الحرث بن زؤمير ،
فعلبه ثم حصره ، فلما طال عليه الحصار خرج إليه ، فكان الظفر للخوارج ،
فقتل يزيد بن زؤمير ، وغدق يومئذ ابنه حوشاً ففر عنه وعن أمه لطيفة ،
وكان عليّ بن أبي طالب عليه السلام دخل على الحرث بن زؤمير يعود ابنه يزيد ،
فقال له : عندي جارية لطيفة الخدمة أبعث بها إليك . فلماها يزيد لطيفة ،
فقتلت معه يومئذ ، فقي ذلك يقول الشاعر :

أمره وأشفى من مواقف حوشب
مواقفنا في كل يوم كريمة
فلم يستجبل راغ ترواع تعلب
دعاه يزيد والرماح شوارع

ولو كان شه النفس أو ذا حيلة رأى ملأى في الموت عيسى بن مصعب

وقد مر خبر عيسى بن مصعب مستصى وقال آخر :

نجى حيلته وأسلم شيخه نصب الأئمة حوشب بن يزيد

وقال ابن حوشب لبلال بن أبي ثودة يعيره بأمة ، وبلال مشدود عند يوسف بن عمر : يا ابن حوراء ! فقال بلال ، وكان جلدأ : إن الأمة تسمى حوراء وجداة ولطيفة !! وزعم الكلبي أن بلالاً كلف جلدأ حيث ابتلي . قال الكلبي : ويعجبني أن أرى الأسير جلدأ . قال : وقال خالد بن صفوان له بحضرة يوسف بن عمر : الحمد لله الذي أزال سلطانك ، وهذا ركك ، وغير حالك ، فوافقه لقد كنت شديد الجباب ، مستغفراً بالشريف ، مظهراً للعصية ! فقال له بلال : إنما طال لسانك بإخالد ثلاث معك من علي : الأمر عليك مُقبِلٌ وهو عني مُدبرٌ ، وأنت مطلقٌ وأنا مأسور ، وأنت في طينتك وأنا في هذا البلد غريبٌ . وإنما جرى الى هذا لأنه يُقال أن أصل آل الأعمى من الحيرة ، وأنهم أشابة دخلت في بني منقر من الروم .

* * *

ثم انحط الزبير بن علي على أصفهان فحصر بها عتاب بن ورقاء الرياحي سبعة أشهر ، وعتاب يحارب في بعضهن ، فلما طال به الحصار قال لأصحابه : ما تنتظرون؟ والله ما تؤتون من قتي ، وإنكم لفرسان عشاركم ، ولقد حاربتموم مراراً فاتصفت منهم ، وما بقي منع هذا الحصار إلا أن تفتي ذخائركم ، فيموت أحدكم ، فيدفنه أخوه ، ثم يموت أخوه فلا يجد من يدفنه ، فقاتلوا القوم وبكم قوة ، من قبل أن يضعف أحدكم عن أن يشي إلى قرينه !! فلما أصبح الغد ، صلى بهم الصبح ، ثم خرج بهم إلى الحوارج وهم غلوثون ، وقد نصب لواء لجارية له يقال لها ياسمين ، فقال : من أراد البقاء فليلق بلواء ياسمين ، ومن أراد الجهاد فليخرج معي . فخرج في ألفين وسبعماية فلوس ، فلم يشعر بهم الحوارج حتى غشواهم ، فقاتلهم مجدي لم ير الحوارج منهم مثله ، ففقدوا منهم خلقاً

كثيراً وقتلوا الزبير بن عتيق ، وانتهزت الحوارج ، فلم يتبعهم عتاب ،
ففي ذلك يقول الشاعر :

وَيَوْمَ يَجِيءُ تَلَايَتُهُ وَلَوْلَاكَ لَاصْطَلَمَ الْعَسْكَرُ
قال أبو العباس : نفسه قوله « ولولاك » في آخر هذا الخبر إن شاء الله.
وقال رجلٌ من بني ضبة في تلك الوقعة :

خَرَجْتُ مِنَ الْمَدِينَةِ مُسْتَمِينًا وَلَمْ أَكُ فِي كَيْبَةٍ يَأْمِينَا
أَلَيْسَ مِنَ الْفَضَائِلِ أَنْ قَوْمِي غَدَاوا مُسْتَلْتَمِينَ مُجَاهِدِينَا
وتزعم الرواة أنهم في أيام حصارهم كانوا يتواقفون ، ويحمل بعضهم
على بعض ، وربما كانت موافقة بغير حرب ، وربما اشتدت الحرب بينهم ،
وكان رجل من أصحاب عتاب يقال له مشربيع ، ويكنى أبا هريرة ، إذا
تجاوز القوم مع المساء فادى بالحوارج وبالزبير بن عتيق :

يَا بَنَ أَبِي الْمَأْخُوزِ وَالْأَشْرَارِ كَيْفَ تَرَوْنَ يَا كِلَابَ النَّارِ
شَدَّ أَبِي هَرِيرَةَ الْهَوَارِ يَرُكُّكُمْ بِالْبَلِيلِ وَالنَّهَارِ
أَلَمْ تَرَوْا جِيًّا عَلَى الْمَضَرِ مُنْجِي مِنَ الرَّحْمَنِ فِي الْجَوَارِ
فغاضبهم ذلك منه ، فكمن له عبيدة بن هلال فضربه ، واحتمله أصحابه ،
فظلت الحوارج أنه قد قُتل ، فكانوا إذا توافقوا فادوهم : ما فعل الهواري ؟
فيقولون : ما به من بأس ، حتى أبل من علاته ، فخرج إليهم فصاح :
يا أعداء الله ! أترون بي بأساً ؟ فصاحوا به : قد كنا نرى أنك لحقت
بأهلك الهاوية ، في النار الحامية .

★ ★ ★

قال أبو العباس : نفسر أشياء من العربية تحتاج إلى الشرح . من ذلك
قوله « ولولاك » ، ومنه قوله « ألم ترواجياً » ، ومنه قوله « يرككم بالبليل والنهار » .
أما قوله « لولاك » فإن سيويه يزعم أن « لولا » تختص المضمر ويرتفع بعدها
الظاهر بالابتداء ، فيقال : إذا قلت « لولاك » ، فما الدليل ، على أن الكاف
مخفوضة دون أن تكون منصوبة ، وضمير النصب كضمير الخفض ؟ فتقول :

إنك تقول لنفسك « لولاي » ولو كانت منصوبةً لكانت النون قبل الياء ،
 كقولك « رماني واعطاني » قال يزيد بن الحكم الثقفي :
 وكم موطن لولاي طحت كما هوى بأجرامه من فقه النيق منهوي
 « النيق » أعلى الجبل ، و « جرم » الإنسان : خلقه .

فيقال له : الضمير في موضع ظاهره ، فكيف يكون مختلفاً ؟ وإن كان
 هذا جائزاً فلم لا يكون في الفعل وما أشبه نحو « إن » وما كان معها
 في الباب ؟

وزعم الاخفش سعيداً ان الضمير مرفوع ، ولكن وافق ضمير الخفض ،
 كما يستوي الخفض والنصب . فيقال : فهل هذا في غير هذا الموضع ؟
 قال ابو العباس : والذي اقله ان هذا خطأ لا يصلح ، إلا ان تقول « لولا
 انت » كما قال الله عز وجل : (لولا اثم لكتنا مؤمنين) ومن خالفنا فهو
 لا بد يزعم ان الذي قلناه اجود . ويدعي الوجه الآخر فيجيزه على بعده .
 وأما « جي » فالاجود فيها ان تقول :
 . الم تروا جي على المضار .

فلا توتن ، لانها مدينة ، والاسم اعجمي ، والمؤنث إذا سمي باسم اعجمي
 على ثلاثة احرف لم ينصرف إذا كان مؤنثاً وان كان اوسطه ساكناً نحو جور
 وحمص وماه وما كان مثل ذلك ، ولو كان اسماً لذكره لانصرف ، فإن صرفته
 جعلته اسماً لبلد ، وان لم تصرفه جعلته اسماً لبلد او لمدينة ، الا ترى انك
 تصرف نوحاً ولوطاً ، وهما اعجميان ؟ وكذلك لو كان على ثلاثة احرف كلها
 متحرك ، لانك تصرف « قدماً » لو سميت به رجلاً ، فالاعجمي بمنزلة المؤنث ،
 لان امتناعها واحداً .

وأما قوله « يركم » فإن كل ما كان من المضاعف على ثلاثة احرف وكان
 متعدياً فإن المضارع منه على « يفعل » نحو شدة يشده ، وزرّه يزره ، ورده
 يرده ، وحله يحله . وجاء منه حرفان على « يفعل » و « يفعل » فيها جيد ،

هره يهره : إذا كرهه ، وهره أجود ، وعلّه بالختاء يعيله ، ويعله أجود .
ومن قال حبيته قال تحيته لا غير ، وقرأ أبو رجاء العطاردي
(فاتبعوني يحببكم الله) وذلك أنّ بني تميم قد غم في موضع الجزم ونحوه
أو آخره لالتقاء الساكنين .

★ ★ ★

رجع الحديث

قال أبو العباس : ثم إن الخوارج أداروا أمرهم بينهم ، فلرادوا تولية عبيدة
ابن هلال ، فقال : أدلكم على من هو خير لكم مني ، من يطاعن في قلبي ،
ومجسي في دبري ، عليكم قطري بن الفجاءة المازني . فبايعوه ، فوقف بهم ، فقالوا :
يا أمير المؤمنين ! امض بنا إلى فارس ، فقال : إن بفارس عمر بن عبيد الله بن
معمر ، ولكن نصير إلى الأهواز ، فإن خرج مصعب بن الزبير من البصرة دخلناها .
فأتوا الأهواز ، ثم ترفعوا عنها إلى أنذج ، وكان مصعب قد عزم على الخروج
إلى باجميرا ، فقال لأصحابه : إن قطريا قد أطل علينا ، وإن خرجنا عن البصرة
دخلها ، فبعث إلى المهلب فقال : اكفنا هذا العدو ، فخرج إليهم المهلب ، فلما
أحسن به قطري تيمم نحو كرمان ، فأقام المهلب بالأهواز ، ثم كر قطري
عليه وقد استعد ، فكان الخوارج في جميع حالاتهم أحسن عدة ممن يقاتلهم ،
بكترة السلاح ، وكثرة الدواب ، وحصانة الجبل ، فعارهم المهلب فقام إلى
رام مرمز .

وكان الحرث بن حميرة الممداني قد صار إلى المهلب مراغماً لعتاب بن ورقاء
يقال أنه لم يرضه عن قتله الزبير بن علي ، وكان الحرث بن حميرة هو الذي تولى
قتله وحاص إليه أصحابه ، ففي ذلك يقول أعشى همدان :

إن المعلوم أكملت أسبابها لابن الليث الغري من قحطان
للفارس الحامي الحقيقة معلماً زاد الرفاق إلى قري تجران
الحريث بن عيرة الليث الذي يحمي العراق إلى قري كerman
ودّ الأزرق لو يصاب بطعنة ويموت من فرسانهم مائتان

ويروي : زاد الرفاق وفارس الفرسان ، وتأويله : أن الرفقة إذا صحبها أغناها
عن التزوّد كما قال جرير ، وأراد ابن له سراً ، وفي ذلك السفر يحيى بن أبي
حفصة ، فقال لأبيه زوتني ، فقال جرير :

أزاداً سوى يحيى تريدٌ وحاجباً ألا إن يحيى نعم زادُ المسافر
فما تكبرُ الكوماء ضربة سيفه إذا أرملوا أو خف ما في الغرائر
وقوله « ويموت من فرسانهم » يكون على وجهين : مرفوعاً ومنصوباً ، فالرفع
على العطف ، ويدخل في التمني ، والنصب على الشرط والخروج من العطف ،
وفي مصحف ابن مسعود (وذكروا لو تُدمن فيُثمنوا) والقراءة (فيدهنوت)
على العطف ، وفي الكلام : ودّ لو تأتيه فتحدثه ، وإن شئت نصبت الثاني .

قال أبو العباس : وخرج مصعب بن الزبير إلى باجيرة ، ثم أتى الحوارج
خبرٌ مقتله بمسكين ، ولم يأت الملب وأصحابه ، فتواقفوا يوماً على الحدق ،
فناداهم الحوارج : ما تقولون في المصعب ؟ قالوا : إمام هدي ، قالوا : فما
تقولون في عبد الملك ؟ قالوا : ضالٌ مضلٌ . فلما كان بعد يومين أتى الملب
قُبْلُ مصعب ، وأن أهل الشام اجتمعوا على عبد الملك ، وورد عليه كتاب عبد
الملك بولايته ، فلما تواقفوا ناداهم الحوارج : ما تقولون في مصعب ؟ قالوا : لا نخبركم ! قالوا :
فما تقولون في عبد الملك ؟ قالوا : إمام هدي ! قالوا : يا أعداء الله ! بالأمس
ضالٌ مضلٌ واليوم إمام هدي ؟ ! يا عبيد الدنيا ! عليكم لعنة الله !!

وولى خالد بن عبد الله بن أسيد ، فقدم فدخل البصرة ، فأراد عزل المهلب
 فأشير عليه بأن لا يفعل ، وقيل له : إنما آمنَ أهلُ هذا المصر بأن المهلب
 بالأهواز وعمر بن عبيد الله بفارس ، فقد تنحى عمر ، وإن تحيت المهلب لم تأمن
 على البصرة الأزارقة ، فأبى إلا عزله ، فقدم المهلب البصرة ، وخرج خالد إلى
 الأهواز ، فأشخصه ، فلما صار بكربيج دينار لقيه قطري فنهضه حتى انتقله ،
 وحاربته ثلاثين يوماً ، ثم أقام قطري يلزأته ، وخندق على نفسه ، فقال المهلب :
 إن قطرياً ليس بأحق بالخندق منك ، فعبر دجلاً إلى شق نهر تبرى ، واتبعه
 قطري ، فصار إلى مدينة نهر تبرى فبنى سورها وخندق عليها ، فقال المهلب لخالد :
 خندق على نفسك ، فإنني لا آمن عليك الليات ، فقال : يا أبا سعيد ! الأمر
 أعجل من ذلك ، فقال المهلب لبعض ولده : إني أرى أمراً ضائعاً ، ثم قال
 لزيد بن عمرو : خندق علينا ، فخندق المهلب وأمر بسفنه ففترغت ، وأبى خالد
 أن يفرغ سفنه ، فقال المهلب لفيروز حصين : صر معنا ، فقال : يا أبا سعيد !
 الحزم ما تقول ، غير أني أكره أن أفارق أصحابي ، قال : فكن بقربنا ،
 قال : أما هذه فتعم .

وقد كان عبد الملك كتب إلى بشر بن مروان بأمره أن يد خالداً بجيش
 كثيف ، أميره عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، ففعل ، فقدم عليه عبد الرحمن
 فأقام قطري يغاضهم القتال ويروحهم أربعين يوماً ، فقال المهلب لمولى لأبي عبيدة :
 انتبه إلى ذلك الناووس فت عليه في كل ليلة ، فتي أحسب خبراً من الحوارج
 أو حركة أو صهيل خيل فاعجل إلينا ، ف جاء ليلة فقال : قد تحرك القوم ،
 فجلس المهلب بباب الخندق ، وأعد قطري سفناً فيها حطب فاشعلها ناراً وأرسلها على سفن خالد ،
 وخرج في أدبارها حتى خالطهم ، ففعل لا يمر برجل إلا قتله ، ولا بدابة إلا عقرها ، ولا
 بفسطاط إلا هتكه ، فأمر المهلب يزيد ابنه فخرج في مائة فارس فقاتل وأبلى
 يومئذ ، وخرج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فأبلى بلاء حسناً ، وخرج فيروز
 حصين في مواله ، فلم يزل يومئذ بالشباب هو ومن معه ، فأثر أثر جيل ، فصرع

يزيد بن المهلب يومئذ ، وصرع عبد الرحمن ، فعلمى عنها أصحابها حتى ركباً ،
وسقط فيروزُ حصين في الحندق ، فاخذ بيده رجلٌ من الأزد فاستنقذه ، فوهبَ
له فيروزُ حصين عشرة آلاف درهم ، وأصبح عسكراً خالداً كأنه حرة سوداء ،
فجعل لا يرى إلا قتيلاً أو صريعاً ، فقال للمهلب : يا أبا سعيد ! كدنا نفتضح ،
فقال خندقٌ على نفسك ، فإن لا تقبل عادوا إليك ، فقال : اكفني أمر الحندق ،
فجمع له الأحاس ، فلم يبق شريف إلا حيل فيه ، فصاح بهم الخوارج : والله
لولا هذا الساحرُ الزوني لكان الله قد دمرَ عليكم . وكانت الخوارجُ تسمي
المهلبَ الساحرَ ، لأنهم كانوا يديرون الأمر فيجدونه قد سبقَ إلى نقض تديريهم .
فقال أعشى ممدان لابن الأشعث في كلمة طوية :

ويوم أمواتك لاتنسه
ليس الشنا والذكر بالدائر

وقد ذكرنا في قصر الممدود ، من أن مد المقصور لا يجوز ، ما يفني
عن إعادته .

• • •

ونذكرُ فيروزَ حصينَ لما مر من ذكره :

وكان فيروزُ حصينَ رجلاً جيد اليت في العجم ، كريم الحيد ، مشهور
الآباء ، فلما أسلم والي حينا ، وهو حصين بن عبد الله العبدي ، من بني
العبدي بن عيم بن مرة ، ثم من ولد طريف بن عيم ، وكان فيروزُ حصينَ شجاعاً
جواداً ، نبيل الصورة ، جدير الصوت . وتروي الرواة أن رجلاً من العرب
كانت أمه فتاة ، فقاول بني عمر له ، فنبوه بالعجمية ، وصر فيروزُ حصين ،
فقال : هذا خالي ، فمن منكم له خال منه ؟ وظن الفتى أن فيروز لم يسمعها ، وسمعا
فيروز ، فلما صار إلى منزله بعث إلى الفتى ، فاشترى له منزلاً وجارية ، ووهب
له عشرة آلاف درهم .

ومن مآثره المعروفة أن الحجاج بن يوسف لما واقف ابن الأشعث برستقباذ

نادى منادي الجباج : من أتى برأس فيروز فله عشرة آلاف درهم ، فحصل فيروز من الصف ، فصاح بالناس : من عرفني فقد اكنى ومن لم يعرفني فأنا فيروز حنين ، وقد عرفتم مالي ووقائي ، من أتى برأس الجباج فله مائة ألف ، فقال الجباج : والله لقد تركني أكثر التفت وإني لئن خالستي . فأتى به الجباج فقال له : أنت الجاعل في رأس أميرك مائة ألف درهم ؟ قال : قد فعلت ، فقال : والله لأمنهتك ثم لأهلكك ، أين المال ؟ قال عندي ، فهل إلى الحياة من سبيل ؟ قل : لا ، قال : فأخرجني إلى الناس حتى أجمع لك المال فلعل قلبك يرق علي ! ففعل الجباج ، فخرج فيروز فأحل الناس من ودائعهم ، وأعتق رقيقه ، وتصدق بماله ، ثم رُد إلى الجباج فقال : شأنك الآن فاصنع ما شئت ، فشُد في القصب الفارسي ، ثم سل حتى شريح ، ثم نفخ بالحل والملح ، فما تأوه حتى مات .

* * *

قال أبو العباس : ومضى قطري إلى كرمان ، فانصرف خالد إلى البصرة ، فأقام قطري بكرمان شهراً ، ثم مَدَ لفسارس ، وخرج خالد إلى الأهواز ، وندب للناس رجلاً ، فجعلوا يطلبون الملب ، فقال خالد : ذهب الملبُ بحظ هذا المصر ، إني قد وليتُ أخي قتال الأزارقة ، فولى أخاه عبد العزيز ، واستغلف الملب على الأهواز في ثلثائة ، ومضى عبد العزيز في ثلاثين ألفاً ، والحوارج بدراب جرد ، فجعل عبد العزيز يقول في طريقه يزعم أهل البصرة أن هذا الأمر لا يتم إلا بالملب ، فيسعلون .

قال صعب بن زيد : فلما خرج عبد العزيز عن الأهواز جاءني كردوس حاجب الملب فقال : أجب الأمير ، فبحث إلى الملب وهو في سطح وعليه ثياب هروية ، فقال : يا صعب ! أنا ضائع ، كأنني أنظر إلى هزيمة عبد العزيز ، وأخشى أن توافيني الأزارقة ولا جند معي ، فابست رجلاً من قبلك يأتيني بخبرهم سابقاً به إلي ، فوجّهت رجلاً يقال له عمران بن فلان ، فقلت : اصحب عسكر عبد العزيز واكتب الي بخبر يوم يوم ، فجعلتُ أورده على الملب .

فلما قارهم عبدُ العزيز وقف وقفةً ، فقال له الناسُ : هذا يومٌ صالحٌ ،
 فينبغي أن تترك - أيها الأميرُ - حتى نطمئن ثم نأخذ أهبتنا ، فقال : كلا ،
 إلا الأمرُ قريبٌ ، فنزلَ الناسُ على غير أمره ، فلم يستمّ النزولُ حتى وردَ
 عليهم سعدُ الطلائع في خمسمائة فارسٍ ، كأنهم خيطٌ ممدودٌ ، فهاضهم عبدُ
 العزيز ، فوافقوه ساعةً ، ثم انهزموا عنه مكيدةً ، فاتبعهم ، فقال له الناسُ :
 لا تتبعهم فإننا على غير تعبٍ ، فأبى ، فلم يزل في آثارهم حتى اقتحموا عقبةً ، فاقبضها
 وراهم ، والناسُ ينهونه ويأبى ، وكان قد جعل على بني هجم عيسى بن طلق الصريمي
 الملقب عيس الطعان ، وعلى بكر بن وائل مقاتل بن مسمع القيسي ، وعلى شرطه رجلاً
 من بني ضبيعة بن ربيعة بن زار ، فزولوا عن العقبة ونزل خلفهم ، وكان لهم في بطن العقبة
 كمينٌ ، فلما صاروا وراهم خرج عليهم الكمين . وعطف عليهم سعدُ الطلائع ؛ فترجلَ
 عيسى بن طلق فقتل ، وقتل مقاتل بن مسمع ، وقتل الضبيعي صاحبُ الشرطة ،
 وانحاز عبدُ العزيز ، واتبعهم الحوارج على فرسخين يقتلونهم كيف شاؤوا ، وكان عبدُ
 العزيز قد خرج معه بأمر حفص ابنت المنذر بن الجارود امرأته ، فسبوا النساء
 يومئذٍ ، وأخذوا أُمري لائحى ، فقتلوه في غارٍ بعد أن شدّوهم وثاقاً ، ثم سدّوا
 عليهم بابهُ حتى ماتوا فيه .

وقال رجلٌ حضر ذلك اليوم : رأيت عبد العزيز وإن ثلاثين رجلاً ليضربونه
 بأسيا فهم وما تُحك في جسده .

يقال ما أذاك فيه السيف ، وما يحك فيهِ ، وما حاك ذا الأمر في صدري ،
 وما حكى في صدري ، وما احتكى في صدري ، ويقال حاك الرجل في مشيته
 يحك : إذا تبخّر .

ونودي على السبي يومئذٍ ، ففولي بأمر حفص ، فبلغ بها رجلٌ سبعين ألفاً ،
 وذلك الرجل من مجوس كانوا أسلموا ولحقوا بالحوارج ، ففرض لكل واحد منهم
 خمسمائة ، فكاد يأخذها ، فشق ذلك على قطري وقال : ما ينبغي لرجل مسلم
 أن يكون عنده سبعون ألفاً ، إن هذه قنّةٌ ، فوثب إليها أبو الحديد العدي

فقلها ، فأني به قطري فقال له : ياأبا الحديد ! مهم ؟ فقال : ياأمير المؤمنين !
 رأيت المؤمنين قد تزايدوا في هذه المشركة ، فخشيت عليهم الفتنة !! فقال
 قطري : قد أصبت وأحسنت ! فقال رجل من الخوارج :

كفانا فتنة عظمت وجلت بحمد الله سيف أبي الحديد
 أهاب المسلمون بها وقالوا على فرط الهوى : حل من مزيد
 فزاد أبو الحديد بنعل سيفه رقيق الحدّ فعل فتى رشيد

قوله « أهاب » يريد : أعلن ، يقال أهبته به : إذا دعوته ، مثل صوت ،
 قال الشاعر :

أهاب بأحزان الفؤاد مهيب وماتت نفوس الهوى وقلوب

وقوله « مهم » حرف استفهام ، معناه : ما الخبر وما الأمر ، فهو دالٌّ
 على ذلك مخوف الخبر ، وفي الحديث « أن رسول الله ﷺ رأى بعد الرحمن
 ابن عوف ردع خلقه فقال : مهم ؟ فقال : تزوجت رسول الله ، فقال :
 أو لم ولو بشاة » ، وكان تزوج على نواة ، وأصحاب الحديث يروونه « على نواة
 من ذهب قيمتها خمسة دراهم » . وهذا خطأ وغلط ، العرب تقول « نواة »
 فتعني بها خمسة دراهم ، كما تقول « النش » لعشرين درهماً ، و « الأوقية »
 لأربعين درهماً ، فإنما هو اسم لهذا المعنى .

وكان العلاء بن مطرف السعديّ ابن عم عمرو القنا ، وكان محباً أن
 يلقاه في تلك الحروب مبارزة ، فلقه عمرو القنا وهو منهزم ، فضحك عمرو
 وقال متملاً :

تمتاني ليلقاني لقيط أعامر لك ابن صصعة بن سعد

ثم صاح به : انج أبا المصمى ! وكان عمرو القنا يكنى أيضاً أبا المصدي :
 وهذا البيت الذي يخل به عمرو ليزيد بن عمرو بن الصق الكلبي بقوله ،
 يعني لقيط بن زرارة ، وكان يطلبه .

وقوله « أعام لك ، يريد : يا عامر ، فرخم ، وإنما يريدُ الحيَّ تعجباً ، أي لكم أعجبٌ من نسيِّه لِقائي ، فدعا بني عامر بن صعصعة ، وهم بنو صعصعة ابن معاوية بن بكر بن هوازن ، ويقال أنَّ عامر بن صعصعة هو ابن سعد بن زيد مناة بن تميم ، لا ابن معاوية ، وأنهم نافلةٌ في قيس ، ولذلك تَمَنَعَتْ بنو سعدٍ من محاربتهم مع بني تميم يوم جَبَّةَ ، ولذلك أنفروهم كَرَبَ بن صفوان .

وهذا البيتُ وضعه سيويه في باب النداء الذي معناه معنى التعجبِ وشبهه به قولُ الصلتانِ العبدَيَّ :

فيا شاعراً لا شاعرَ اليومِ مثله جريراً ولكن في كليبٍ تواضعُ
على معنى قوله : فقه دره شاعراً .

وكان العلاء بن مطرف قد حمل معه امرأتين له ، إحداهما من بني ضبة يقال لها أم جميل ، والأخرى بنت عمه ، وهي فلاتة بنت عقال ، فطلق الضبة وتخلصَ بهما جميعاً يومئذٍ وحمل الضبة أولاً ، ففي ذلك يقولُ :

ألتُ كريماً إذ أقولُ لِفَيْتِي فِقُوا فاحملوها قبلِ بنتِ عقالِ
ولولم يكن عُودي نضاراً لأصبحتُ تخرُّ على المتنينِ أمُّ جِبلِ

★ ★ ★

قال الصَّعْبُ بن يزيد : بعثني المهلب لآتيه بالخبز ، فصرْتُ إلى قنطرة أربك على فرسٍ اشتريته بثلاثة آلاف درهم ، فلم أحسُ خبراً ، فصرْتُ مهجراً إلى أن أُمِيتُ ، فلما أظلمنا سمعتُ كلام رجلٍ عرقته من الجاهضم ، فقلت : ما وراءك ؟ فقال : الشرُّ ، قلت : فإن عبد العزيز ؟ قال : أمامك ، فلما كان من آخر الليل إذا أنا برؤساء خمسين فارساً معهم لواءٌ : فقلت ، لواءٌ من هذا ؟ فقالوا : هذا لواءُ عبدِ العزيز ، فتقدمتُ إليه ، فقلت وقلت : أصليح

الله الأمير ، لا يكبرن عليك ما كان ، فإنك كنت في شرّ جندي وأخيه ، قال لي : أو كنت معنا ؟ قلت : لا ، ولكن كافي شاهد أمرك ، قال : كأنك كنت معنا ، قلت : أرسلني الملب لآتيه بخبرك ، ثم تركته وأقبلت إلى الملب ، فقال لي : باوراءك ؟ قلت : ما يسرك ، قد هزم عبد العزيز وقلّ جيشه ! فقال : وبجك ! وما يسرني من هزيمة رجل من قريش وقلّ جيش من المسلمين ؟! قلت : قد كان ذاك ، ساءك أو سرّك ، فوجه رجلاً إلى خالد بن جبره ، قال الرجل : فلما أخبرته خالداً قال : كذبت ولؤمت ، ودخل رجل من قريش فكذبني ، وقال لي خالد : والله لعممت أن أضرب عنقك ، قلت : أصلح الله الأمير ، إن كنت كاذباً فاقتلني ، وإن كنت صادقاً فأعطني مطرف هذا المتكلم ! فقال خالد : لبس ما أخطرت به دمك !! فابرح حتى دخل بعض الليل .

وقدّم عبد العزيز سوق الأهواز ، فأكرمه الملب وكساه ، وقدّم معه علي خالد ، واستخلف ابنه حبيبا ، وقال له تحسني عن الأخیلر ، فإن أحسنت بخبر الأزارقة قريبا منك فانصرف إلى البصرة ، فلم يزل حبيب مقيماً والأزارقة تدنو منه ، حتى بلغوا قطرة أربك ، فانصرف إلى البصرة على نهر ثوى ، فلما دخلها أعلم خالد ، فغضب عليه ، واسترح حبيب في بني هلال بن عامر بن صعصعة ، فتزوج هناك في استارهم المملانية أمّ عبّاد بن حبيب .

وقال الشاعر لحالده يفتل رأيه ، أي يخطئه :

بعثت غلاماً من قريش قرؤةً وتترك ذا الرأي الأصل الملبا

أبى النّم واختار الوفاء وأحكمت قواه وقد ساس الأمور وجربا

وقال الحرث بن خالد الخزومي :

فر عبد العزيز لما رأى الأب طال بالسفح نازلوا قطرياً

ويروى :

فر عبد العزيز إذ راء عيسى وابن داهود نازلوا قطرياً

عاهد الله إن نجّا مِلَّتَانَا ليعودن بعدهما مُحْرَمَتَا
يسكنن الحِلَّ والصَّفاح فَرَاثَ وسلماً وطمرةً نجدياً
حيث لا يشهد القتال ولا يَسُ مع يوماً لكرّ خيلٍ دويّاً
قوله « إذ رآه عيسى ، الأصل « رأى » ولكنه قلب قدّم الألف وأخر الهزّة
كما قال كثيرٌ :

وكلُّ خليلٍ راعني فهو قاتلٌ من أجلكِ هذا هامة اليوم أوغد
والقلبُ كثيرٌ في كلام العرب ، وسنذكر منه شيئاً في موضعه إن
شاء الله .

وقوله « ملتنايا » يريد من المتايا ، ولكنه حذف النون لقرب مخرجها من اللام ،
فكأننا كالحرفين يلتقيان على لفظٍ فيحذف أحدهما ، ومن كلام العرب أن يحذفوا
النون إذا لقيت لام المعرفة ظاهراً ، فيقولون في بني الحارثِ وبني العنبر وما
أشبه ذلك « بلحارثِ » و « بلعنبرِ » و « بلهجيرِ » كما يقولون « علساءِ بنو
فلانِ » فيحذفون إحدى اللامين .

وقوله « ليعودن بعدهما حرمياً » العرب تنسب إلى الحرم فيقولون « حرمي »
و « حرمي » على قولهم حرمة البيت وحرمة البيت ، وقال النابغة الذبياني :
من قولٍ حرميةٍ قالت وقد رحلوا هل في مخفيكم من يشتري أدماً
و « الحِلُّ » هنا موضعٌ ، وأصله الطريق في الرمل .

* * *

وكتب خالدٌ إلى عبد الملك بعنو عبد العزيز ، وقال للمهب : متري عبد الملك
صانعاً بي ، قال : يعزلك ، قال : أتراه قاطعاً رحمي ؟ قال نعم ، أتته
هزبة أمية أخيك من البحرين . وثأته هزبة أخيك عبد العزيز من فارس .
قال أبو العباس : فكتب عبد الملك إلى خالد :

أما بعد ، فإني كنت حدثتُك لك حُداً في أمر المهب ، فلما ملكتُ

أمرك بنبت طاعني ، واستبددت برأيك ، فوليت المهب الجباية ، ووليت أخاك حرب الأزارقة ، فقبج الله هذا رأياً ، أتبعثُ غلاماً غراً لم يجرب الحروب للحرب ، وتتركُ سيداً شجاعاً مدبراً حازماً قد ملأ الحروب تشفه بالجباية ؟! أما والله لو كافأناك على قدر ذنبك لأنك من نكيري ما لا بقية لك معه ، ولكن تذكرتُ رَحِمَكَ فَلَقَسْتِي عَنْكَ ؛ وقد جعلتُ عقوبتك عزك .

وولي بشر بن مروان وهو بالكوفة وكتب إليه :

أما بعد ، فإنك آخر امير المؤمنين ، يجمعك ولاء مروان بن الحكم ، وإن خالداً لا يجتمع له مع امير المؤمنين دون أمية ، فانظر المهب بن ابي صفرة ، فولت حرب الأزارقة ، فإنه سيدٌ بطلٌ مجربٌ ، فأمدده من أهل الكوفة بثانية آلاف رجل .

فشقَّ عليه ما أمره به في المهب . وقال : والله لأقتلته ، فقال له موسى ابن نصير : ايها الأمير ! إن للمهب حفاظاً وبلاءً ووفاءً .

وخرج بشر بن مروان يريد البصرة ، فكتب موسى وعكرمة إلى المهب أن يتلقاه لقاءً لا يعرفه به ، فتلقاه المهب على بغلٍ ، فلم عليه في مخار الناس ، فلما جلس بشرٌ جلسه قال : ما فعل أميركم المهب ؟ قالوا : قد تلقاك ايها الأمير وهو شاكٍ .

فهم بشرٌ أن يولي حرب الأزارقة عمر بن عبيد الله ، فقال له أسماء بن خارجة : إنما ولاك امير المؤمنين ترى رأيك ، فقال له عكرمة بن ربيعي : اكتب إلى امير المؤمنين وأعلمه عه المهب ، فكتب إليه يعلمه عه المهب وأن بالبصرة من يُبغى غناه ، ووجه بالكتاب مع وفدٍ أوفداهم إليه رئيسهم عبد الله ابن حكيم الجاشعي ، فلما قرأ الكتاب خلا بعد الله بن حكيم فقال : إن لك ديناً ورأياً وحزماً ، فن لقتال هؤلاء الأزارقة ؟ قال : المهب ، قال : إنه

عليه ، قال : ليست علة بمانعه ، قال عبد الملك : اراد بشر أن يفعل ما فعل خالد .

فكتب إليه يعزم عليه ان يولي المهلب ، فوجه إليه ، قال المهلب : أنا عليه ولا يمكنني الاختلاف ؛ فأمر بشر بجعل الدواوين إليه فجعل يتخب ، فاعترض بشر عليه ، فاقطع أكثر غنجه ، ثم عزم عليه ان لا يقيم بعد ثالثة ، وقد أخذت الحوارج الأهواز وخلقوها وراء ظهورهم وصاروا بالقرات ، فخرج إليهم المهلب حتى صار إلى شواطئ ، فأتاه شيخ من بني تميم فقال : أصلى الله الأمير ، إن سني ما ترى فبهني ليعالي ، قال : على ان تقول للأمير إذا خطب فتعكم على الجهاد : كيف تحتنا على الجهاد وأنت نجس أشرافنا واهل النجدة منا ؟ ففعل الشيخ ذلك ، فقال له بشر : وما أنت وذاك ؟ قال : لاشيء ، وأعطى المهلب رجلاً ألف درهم على أن يأتي بشراً فيقول له : ايها الأمير أعين المهلب بالشرطة والمقاتلة ، ففعل الرجل ذلك ، فقال له بشر : ما أنت وذاك ؟ قال : نصيحة حضرتي للأمير والمسلمين ولا اعود إلى مثلبا ، فأمدته بالشرطة والمقاتلة .

وكتب بشر إلى خليفته بالكوفة ان يعقد لعبد الرحمن بن مخنف على ثمانية آلاف ، من كل ربيع ألفين ، ويوجه به مدداً إلى المهلب ، فلما أتاه الكتاب بعث إلى عبد الرحمن بن مخنف الأزدي ففقد له ، واختار له من كل ربيع ألفين ، فكان على ربيع اهل المدينة بشر بن جرير البجلي ، وعلى ربيع تميم وممدان عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الممداني ، وعلى ربيع كندة وربيعة محمد بن إسحق بن الأشعث الكندي ، وعلى مَذْحِجٍ وأسَدِ زَحْرَ بن قيس المَذْحِجِي ، فقدموا على بشر ، فخلا بعبد الرحمن بن مخنف ، فقال له : قد عرفت رأيي فيك وتقي بك ، فكن عند ظني ، انظر هذا الزوفاً فخالقه في أمره ، وأفسد عليه رأيه ، فخرج عبد الرحمن بن مخنف وهو يقول : ما اعجب

ماطمع مني فيه هذا الغلام ! بأمرني ان أصغر شيخاً من مشايخ أهلي وسيداً من ساداتهم ؟! فلقى بالمهلب .

. . .

فلما أحسّ الأزارقة بدنوه منهم انكشفوا عن الفرات ، فأتبهم المهلب إلى سوق الأهواز ، فقام عنها ، ثم تبعهم إلى رام هرمز فزهمهم منها ، فدخلوا فارس ، وأبلى يزيد ابنه في وقائعه هذه بلاء حسناً ، تقدّم فيه وهو ابن إحدى وعشرين سنة ، فلما صار القوم بفارس وجّه إليهم ابنه المغيرة ، فقال له عبد الرحمن بن صبيح : أيما الأمير ! إنه ليس برأيي لك قتل هذه الأكلب ، ولكن - والله - قتلهم لتتعدّن في بيتك ، ولكن طالوهم وكلّ بهم ، فقال : ليس هذا من الوفاء .

فلم يلبث برام هرمز إلا شهراً حتى أتاه موت بشر ، فاضطرب الجند على ابن مخنف ، فوجّه إلى محمد بن إسحق بن الأشعث وابن زحر واستطلفها أن لا يبرحها ، فعلقها له ، ولم يبق ، فجعل الجند من أهل الكوفة يتسللون حتى اجتمعوا بسوق الأهواز ، وأراد أهل البصرة الانسلال من المهلب ، فخطبهم فقال : إنكم لستم كأهل الكوفة ، إنما تذبّون عن مصركم وأموالكم وحرملك ، فأقام منهم قوماً وتسلل منهم ناسٌ كثير .

وكان خالد بن عبد الله خليفة بشر بن مروان ، فوجّه مولى له بكتاب منه إلى من بالأهواز ، يحلف فيه بالله مجتهداً ، لكن لم يرجعوا إلى مراكم وانصرفوا عصاة لا يظفرو بأحدٍ منهم إلا قتله ، فجاء مولاه فجعل يقرأ الكتاب عليهم ولا يرى في وجوههم قبوله ، فقال : إني لأرى وجوهاً ما القبول من شأنها ! فقال له ابن زحر : أيها العبد ! اقرأ ما في الكتاب وانصرف إلى صاحبك ، فإنك لاتدري ما في أنفسنا ، وجعلوا يستعملونه في قراءته ، ثم قصدوا قصداً للكوفة ، فزولوا النخيلة ، وكتبوا إلى خليفة بشر يستلونه أن يأذن لهم في الدخول ، فلبس ، فدخلوها بغير إذن .

فلم يزل المهلبُ ومن معه من قوادعِ وابنُ محنفٍ في عددٍ قليلٍ ، فلم يشبوا
 أن وليَ الحجاجُ العراقَ ، فدخل الكوفةَ قبلَ البصرةَ ، وذلك في سنة خمسٍ
 وسبعينَ ، فخطبهم وتهنأهم ، وقد ذكرنا الخطبةَ مقدّماً ، ثم تزل فقال لوجوه
 أهلها : ما كانت الولاةُ تفعل بالعصاة ؟ فقالوا : كانت تضربُ وتحبسُ ، فقال
 الحجاجُ : ولكن ليسَ لم عندي إلا السيفُ ، إن المسلمين لو لم يغزوا المشركينَ
 لغزاهم المشركونَ ، ولو ساءتِ المعصيةُ لأهلها ما قُتِلَ عدوٌّ ولا جُيِّ فيهِ
 ولا عزٌّ دينٌ .

ثم جلسَ لتوجيهِ الناسَ ، فقال : قد أجلكم ثلاثاً ، وأقسم بالله لا يتخلف
 أحدٌ من أصحابِ ابنِ محنفٍ بعدها ولا من أهل الثُغورِ إلا قُتِلَتْهُ ، ثم قال
 لصاحبِ حرسه وصاحبِ شرطه : إذا مضت ثلاثةُ أيامٍ فانحذا سيوفكما عصياً ،
 فجاهدْ حميرَ بنَ ضابِرٍ البرجميَّ بابه . فقال : أصلحَ الله الأميرُ ، إنَّ هذا أتفع
 لكم مني ، هو أشدُّ بني حميرَ أبداً ، وأجمعهم سلاحاً ، وأربطهم جاشاً ، وأنا
 شيخٌ كبيرٌ عليلٌ ، واستشهدَ جلساءه ، فقال له الحجاجُ : إنَّ عنوكَ
 لواضحٌ ، وإنَّ ضعفك لينٌ ، ولكنني أكره أن يجترأ بك الناسُ علي ، وبعد
 فأنْتَ ابنُ ضابِرٍ صاحبُ عثمانَ ، ثم أمر به فقتلَ ، فاحتلَّ الناسُ ، وإنَّ أحدهم
 ليتبعَ بزادهِ وسلاحه ، ففي ذلك يقول ابنُ الزبيرِ الأسديُّ :

أقول لعبد الله يوم لقيته	أرى الأمر أمسى منصّباً متشبّهاً
تخيّر فإمّا أن تزور ابن ضابِرٍ	محميلاً وإمّا أن تزورَ المهلبا
ما خطبنا خفياً نجواؤك منها	ركوبك حولاً من الثلج أشبها
فما إن أرى الحجاج يغمد سيفه	يد الدهر حتى يتوكَّ الطفلَ أشبها
فأضحي ولو كانت خراسان دونه	وأما مكان السوق أو هي أقربا

وهرب سوار بن المضرب السعدي من الحجاج وقال :
 أقاتلي الحجاج إن لم أؤز له دواب وتترك عند هندی فؤاديا
 وقد مرت هذه الأبيات .

وخرج الناس عن الكوفة ، وأتى الحجاج البصرة ، فكان عليهم أشدَّ إلحاحاً ، وقد كان أنام خبره بالكوفة ، فتحمل الناس قبل قدومه ، فأتاه رجلٌ من بني بَشَرَ ، وكان شيخاً كبيراً أموراً ، وكان يحصل على عينه العواء صوفةً ، فكان يلقب ذا الكرسفة ، فقال : أوص الله الأمير إنَّ بي فتناً ، وقد عذرتني بشراً ، وقد رددت العطاء . فقال : إنك عندي لصادقٌ ، ثم أمر به فضربت عنقه ، ففي ذلك يقول كعبُ الأشكري أو الفرزدق :

لقد ضرب الحجاج بالمرضبةً تفرقَ منها بطن كلِّ عريف

ويروى عن أبي ميرة قال : إنا لتتخدى معه يوماً إذ جاء رجلٌ من بني سليم يرجل يقرده ، فقال : أوص الله الأمير ، إنَّ هذا عاصٍ ، فقال : له الرجل : أنشدك الله أيُّها الأمير في دمي ، فوالله ما قبضت ديوناً قط ، ولا شهدت عسكرياً ، وإني لحائِكُ أخذت من تحت الحفِّ ، فقال : اضربوا عنقه ، فلما أحس بالسيف سجد ، فلقه السيف وهو ساجدٌ ، فأمسكنا عن الطعام ، فأقبل علينا الحجاج فقال : مالي أراكم صغرت أيديكم واصغرت وجوهكم وحد نظركم من قتل رجل واحدٍ ؟! إنَّ العاصي يجمع خلافاً : يخل بمركزه ، ويعصي أميره ، ويغترُّ المسلمين من نفسه وهو أجيرٌ لهم ، وإنما يأخذ الأجرة لما يعمل ، والوالي غير فيه إن شاء قتل وإن شاء عفا .

ثم كتب الحجاج إلى المهلب : أما بعد ، فإن بشراً رحمه الله استكره نفسه عليك ، وأراك غناه عنك ، وأنا أربك حاجتي إليك . فأراني الجد في قتال عدوك ، ومن خفته على العصية ممن قبلك فاقتله ، فأني قاتلٌ من قبلي ومن كان عندي من وليٍّ من هرب عنك فأعلمني مكانه ، فأني أرى أن آخذ الوليَّ بالوليِّ ، والسميَّ بالسميِّ .

فكتب إليه المهلب : ليس قبلي الا مطيعٌ ، وإن الناس إذا خافوا العقوبة كبروا الذنب ، وإذا أمنوا العقوبة صغروا الذنب ، وإذا ينشوا من العفو

أكرم ذلك ، فهب لي هؤلاء الذين سميتهم عصاة ، فإنما هم فرسانٌ أبطالٌ ، أرجو أن يقتل الله بهم العدو وفادى على ذنبه .

* * *

فلما رأى المهلب كثرة الناس عليه قال : اليوم قوتل هذا العدو . ولما رأى ذلك قطري قال : انهضوا بنا يزيد السردان فتحصن فيها ، فقال عبيدة بن هلال : أو نأتي ساور ، وخرج المهلب في آقلم ، فأتى أرجان ، وخاف أن يكونوا قد تحصنوا بالسردان ، وليست بمدينة ، ولكن جبالاً محدقة منيعة ، فلم يصب بها أحداً ، فخرج غوم فعكر بكازرون ، واستعدوا لتتاه ، وخندق على نفسه ، ثم وجهه إلى عبد الرحمن بن عتف : خندق على نفسك ، فوجهه إليه : خنادقنا سوفنا ، فوجه إليه المهلب : إني لا آمن عليك الليات ، فقال ابنه جعفر : ذاك أهون علينا من ضرورة جمل ! فاقبل المهلب على ابنه المغيرة فقال : لم يصيبوا الرأي ولم يأخذوا بالوثيقة ، فلما أصبح القوم غادوه الحرب ، فبعث إلى عتف يستمد ، فأمدته بمجاعة ، وجعل عليهم ابنه جعفر ، فجأوا وعليهم أقية بيض جدد ، فقاتلوا يومئذ حتى عرف مكانهم ، وحاربهم المهلب وأبلى بنوه يومئذ كبلاء الكوفيين أو أشد ، ثم نظر إلى رئيسهم فقال له صالح بن غراق ، وهو يتخب قوماً من جلة العسكر ، حتى بلغوا أربعمائة ، فقال لابنه المغيرة : ما يعد هؤلاء إلا لليات ، وانكشف الحوارج والأمر للمهلب عليهم ، وقد كثر فيهم القتل والجراح .

* * *

وقد كان الجباج في كل يوم يتفقد العصاة ويوجه الرجال ، فكان يجيبهم نهراً ، ويفتح الحبس ليلاً ، فيسل الناس إلى ناحية المهلب ، وكان الجباج لا يعلم ، فإذا رأى أمرهم تمثل :

إن لما لساناً عشتورا إذا وثين وثية تغشما

العشور ، الصلب ، و د الثغمر ، ركوب الرأس ، و د الثغمر ،
الجاد على ما خيلت .

وكتب إلى المهلب من قبل الوقعة : أما بعد ، فإنه بلغني أنك أقبلت على
جباية الحراج ، وتركت قتال العدو ، وإني ولّيتك وأنا أرى مكان عبد الله بن
حكيم الجاشعي وعبد بن حصين الجطي ، واخترتك وأنت من أهل عمان ، ثم
رجل من الأزد ، فالفهم يوم كذا في مكان كذا ، والا أشرعت إليك
صدر الرمح !!

فشاور بنه فقالوا : انه أمير ، فلا تغلظ عليه في الجواب .

فكتب إليه المهلب : ورد علي كتابك تزعم أنني أقبلت على جباية الحراج
وتركت قتال العدو ، ومن عجز عن جباية الحراج فهو عن قتال العدو أعجز ،
وزعمت أنك ولّيتي وأنت ترى مكان عبد الله بن حكيم الجاشعي وعبد بن
حصين الجطي ، ولو ولّيتها لكنا مستحقين لذلك في فضلها وغنائها وبطشها ،
واخترتني وأنا رجل من الأزد ، ولعمري إن شراً من الأزد لقيمة تنازعها
ثلاث قبائل ، لم تستقر في واحدة منهن ، وزعمت أنني إن لم الفهم في يوم كذا في مكان كذا
أشرعت إلى صدر الرمح ، فلو فعلت لقلت إليك ظهر المجن ، والسلام .

ثم كانت الوقعة . فلما انصرف الحوارج قال المهلب لابنه المغيرة : إني
أخاف البيات على بني هبيرة ، فانهض إليهم فكنّ فيهم ، فأنام المغيرة ، فقال له
الحريش بن هلال : يا أبا حاتم ! أخاف الأمير أن يؤتى من ناحية ؟ قل له
قليبت آمناً فإننا كافوه ما قبلنا إن شاء الله . فلما انتصف الليل ، وقد رجع
المغيرة إلى أبيه ، مرى صالح بن غزاق في القوم الذين أعدمهم إلى ناحية بني هبيرة ،
ومعه عبيدة بن هلال وهو يقول :

إني لمُذَكِّرٌ للشُّرَاةِ نَارُهَا وَمَنَعٌ مِّنْ أُنْطَا دَارُهَا

وغازلُ بالطَّعنِ عنها علوها

فوجد بني تميم أيقاظاً متحاربين ، فخرج إليهم الحريش بن هلال ،
وهو يقول :

لقد وجدتم وقرأ أنجاداً لا كُشفاً ميلاً ولا أوغاداً
هيات لا تلفوتنا رُقَاداً لا بل إذا صبح بنا آساداً

ثم حمل على القوم فرجعوا عنه ، فاتبعهم وصاح بهم : إلى أين يا كلاب
النار ؟ فقالوا : إنما أعدت النار لك ولأصحابك . فقال الحريش : كل
ملك لي حرٌّ إن لم تدخلوا النار إن دخلها مجوميّ فيا بين سقوان وخراسان .

قوله « وجدتم وقرأ » : جمع وقور . و « النجد » ضد البلد ، وهو
المتيقظ الذي لا كسل عنده ولا قنور . و « الأمل » فيه قولان ؛ قالوا :
الذي لا يستقرُّ على الدابة ، وقالوا : هو الذي لا سيف معه . و « الأكشف »
الذي لا ترس معه . و « الأجم » الذي لا رُمح معه . و « الحاسر » الذي لا درع
عليه . و « الأعزل » الذي لا يتقوم على ظهر الدابة . و « الوغد » الضعيف .

ثم قال بعضهم لبعض : تأتي عكر ابن مخنف فإنه لا خندق عليهم ، وقد
تعب فرسانهم اليوم مع المهلب ، وقد زعموا أننا أهون عليهم من شرطة جبل ،
فأتوهم ، فلم يشعر ابن مخنف وأصحابه بهم إلا وقد خالطوهم في عكرم ،
وكان ابن مخنف شريفاً ، يقول رجلٌ من غامدٍ لرجلٍ يعاتبه ويضربُ بآبن
مخنف المثل :

تروح وتغزو كل يوم معظماً كأنك فينا مخنف وابن مخنف

فترجل عبد الرحمن بن مخنف فيالدم فقتل ، وقتل معه سبعون من القراء ،
فيهم نفرٌ من أصحاب علي بن أبي طالب صلوات الله عليه ، ونفرٌ من أصحاب
ابن مسعود ، وبلغ الخبر المهلب ، وجعفر بن عبد الرحمن بن مخنف عند المهلب ،
فجاءهم مغيباً ، فقاتلهم حتى ارتق وصُرع ، ووجه المهلب إليهم ابنه حياً فكشفهم ،
ثم جاء المهلب حتى صلى على ابن مخنف وأصحابه رحمهم الله ، وصار جنده

في جند المهب ، فضمهم إلى ابنه حبيب ، فميرم البصريون ، فقال رجل لجعفر
ابن عبد الرحمن :

تركت أصحابنا قدمي مخروم وجئت تسمى إلينا خضفة الجمل
قوله « خضفة الجمل » يريد خرطة الجمل ، يقال خضف البعير ، وأنشدني
الريثمي لأعرابي يذم رجلاً اتخذ وليمة :

إنا وجدنا خلفاً بنس الخلف أغلق عنا بابهُ ثم حلف
لا يدخل البواب إلا من عرف عبدٌ إذا ما ناء بالجمل خضف
يقال « ناء بجمله » إذا حمله في ثقله وتكلف ، وفي القرآن : (ما إن
مقاتمة لتتوء بالعصبة أولي القوة) والمعنى أن العصبة تتوء بالمقاتيع ، وقد مضى
تفسير هذا ، وتقول العرب « حيج الرجل وحج وخضف وودم » كل ذلك
إذا خرط .

فلامهم المهب ، وقال : بشما قلتم ، وافه ما فروا ولا جبنوا ، ولكنهم
خالفوا أميرهم ، أفلا تذكرون قرارك يوم دولا ب ، وفراوكم بدارس عن عنان ،
وفراوكم عني ؟!

* * *

ووجه الحجاج البراء بن قبيصة إلى المهب يستحثه في مناجزة القوم ،
وكتب إليه أنك لتحب بقاءهم لتأكل بهم . فقال المهب لأصحابه : حرّكوهم ،
فخرج فرسان من أصحابه إليهم ، فخرج إليهم من الحوارج جمع ، فافتتلوا إلى
الليل ، فقال لهم الحوارج : ويلكم أما تملئون ؟ فقالوا : لا ، حتى تملأوا ،
قالوا : فمن أنتم ؟ قالوا : هم ، قالت الحوارج : ونحن بنو تميم ، فلما أمسوا
افترقوا ، فلما كان الغد خرج عشرة من أصحاب المهب وخرج إليهم عشرة
من الحوارج ، فاحتر كل واحد منهم حفيرة وأثبت قدمه فيها ، فكلما قتل
رجل جاء رجل من أصحابه فاجتره ووقف مكانه ، حتى أتموا ، فقال لهم

الخوارجُ : ارجعوا ، فقالوا : بل ارجعوا أنتم ، فقالوا : ويلكم ! من أنتم ؟
فقالوا : نعيم ، قالوا : ونحن نعيم ، فرجع البراءُ بن قبيصة إلى الحجاج ، فقال
له : مه ؟ قال : رأيت قوماً لا يعينُ عليهم إلا الله .

وكتب إليه المهلب : إني منتظرٌ بهم إحدى ثلاثٍ : موتٌ ذريعٌ ، أو جوعٌ
مضرٌ ، أو اختلافٌ من أهوائهم .

وكان المهلب لا يتكل في الحراسة على أحدٍ ، كان يتولى ذلك بنفسه ،
ويستعين بولده وعين يحمل محلهم في الثقة عنده .

وقال أبو حرمة العبدي جبر المهلب :

عدمك يا مهلب من أميرٍ أما تندی يمينك للفقيرِ
بدولابٍ أضعت دماء قومٍ وطرت على مواشكةٍ درورِ

فقال المهلبُ ويحك ! والله إني لأقيمُ بنفسي وولدي ، قال : جعلني اللهُ
فداء الأمير ، فذاك الذي نكره منك ، ما كلُّنا يحبُّ الموت ، قال ويحك ! وهل
عنه محيصٌ ؟ قال : لا ، ولكننا نكره التعجيل ، وأنت تقدم عليه إقداماً ،
قال المهلب : أما سمعت قول هيرة الكلجة اليربوعي :

فقلت لكأسٍ أجمعها فإنما نزلنا الكئيب من زورودلنفرعا؟

قال : بلى والله قد سمعته ، ولكن قولي أحب إلي منه ، وهو :

فلما وقفت غداةً وعدوكم إلى مهجتي ولئت أعداءكم ظهري
وطرت ولم أحفلُ مقالة عاجزٍ يسافي المنايا بالرؤدبينة السمرِ

فقال له المهلبُ : ينس حشو الكتيبة والله أنت ! فإن شئت أذنت لك
فانصرفت إلى أهلِكَ ؟ فقال : بل أقمُ معك أيُّها الأمير ، فوهب له المهلبُ
وأعطاه ، فقال يدهه :

يرى حتماً عليه أبو سعيدٍ جلادَ القوم في أولى النفيرِ
إذا نادى الشراةُ أبا سعيدٍ مشى في رغلٍ مُحكمةٍ القيرِ

« الرغلُ » الذئيل .

وقال المهلب: ما يسرني أن في عسكري ألف شجاع بدل بيس بن صهيب ،
فيقال له : أيها الأمير ! بيس ليس بشجاع ، فيقول : أجل ، ولكنه شديد
الراي بحكم العقل ، وذو الراي حذر مؤول ، فانا آمن أن يقتل ، ولو كان
مكانه ألف شجاع قلت أنهم ينشامون حتى يحتاج إليهم .

ومطرت السماء ليلته مطراً شديداً وهم ببابور ، وبين المهلب وبين الشراة
عقبة ، فقال المهلب : من يكفيننا هذه العقبة الليلة ؟ فلم يقم أحد ، فلبس
المهلب سلاحه وقام إلى العقبة واتبعه ابنه المغيرة . فقال رجل من أصحابه
يقال له عبد الله : دعانا الأمير إلى ضبط العقبة ، والحظ في ذلك لنا ، فلم نطعه ،
فلبس سلاحه واتبعه جماعة من أهل العسكر فصاروا إليه ، فاذا المهلب والمغيرة
لثالث لهما ، فقالوا : انصرف أيها الأمير فنحن نكفيك إن شاء الله ، فلما
أصبحوا إذا بالشراة على العقبة ، فخرج إليهم غلام من أهل عمان على فرس ، فجعل
يحمل وفرسه يزل ، وتلقاه مدرك بن المهلب في جماعة معه حتى ردم .

فلما كان يوم النحر والمهلب على المنبر يخطب الناس إذا الشراة قد تألبوا ،
فقال المهلب : سبحان الله ! أفي مثل هذا اليوم ؟ يا مغيرة اكفينهم ، فخرج
إليهم المغيرة بن المهلب وأمامه سعد بن نجدة القردوسي ، وكان سعد بشجاعاً
متقدماً في شجاعته ، وكان المهلب إذا ظن برجل أن نفسه قد أعجته قال
له : لو كنت سعد بن نجدة القردوسي ما عدا - وقردوس من الأزد - فخرج
أمام المغيرة ، وتبع المغيرة جماعة من فرسان المهلب ، فالتقوا ، وأمام الحوارج
غلام جامع السلاح ، مديد القامة ، كريب الوجه ، شديد الجملة ، صبيح الفروسية ،
فأقبل يحمل على الناس وهو يقول :

نحن صحنكم غداة النحر بالخير أمثال الوشيج تجري

فخرج إليه سعد بن نجدة القردوسي من الأزد ، ثم تجاولا ساعة ، فطعنه سعد
فقتله ، والتقى الناس ، فصرع يومئذ المغيرة ، فحلى عليه سعد بن نجدة وذيان
الستخاني وجماعة من الفرسان حتى ركب ، وانكشف الناس عند سقوطه .

المغيرة ، حتى صاروا إلى أبيه الملب ، فقالوا : قتل المغيرة ، ثم أتاه ذبيان
السختياني ، فأخبروه بسلامته ، فأعفى كلَّ مملوكٍ كان بحضرته .

* * *

ووجه الحجاج الجراح بن عبد الله إلى الملب يستبطئه في مناجزة القوم ،
وكتب إليه : أما بعد ، فإنك جيتَ الجراح بالعليل ، وتحصنت بالحدادق ،
وطاولت القوم ، وأنت أعز فاصراً ، وأكثر عدداً ، وما أظن بك مع هذا
معصية ولا جبناً ، ولكنك اتخذت أكلأ ، وكان بقاؤهم أسير عليك من قتالهم ،
فناجزهم وإلا أنكرتني ، والسلام .

فقال الملب للجراح : يا أبا عقبة ! والله ما تركت حيلة إلا احتلتها ، ولا
مكيدة إلا أملتتها ، وما العجب من إبطاء النصر وتراخي الظفر ، ولكن
العجب أن يكون الرأي لمن يملكه دون من يبيصره !! ثم فاضهم ثلاثة أيام ،
يفادهم القتال ، ولا يزالون كذلك إلى العصر ، وينصرف أصحابه وبهم قرح ،
وبالحوارج قرح وقل ، فقال له الجراح : قد أعنوت .

فكتب الملب إلى الحجاج : أتاني كتابك تستبطئني في لقاء القوم ، على
أنك لا تقطن بي معصية ولا جبناً ، وقد عاتبني معاتبة الجبان ، وأوعدتني وعيد العاصي ،
فاسأل الجراح ، والسلام .

فقال الحجاج للجراح : كيف رأيت أخاك ؟ قال والله لم رأيت أحداً إلا
مبتله قط ولا ظننت أن أحداً يبقى على مثل ما هو عليه ، ولقد شهدت أصحابه
أياماً ثلاثة يغدون إلى الحرب ثم ينصرفون عنها وهم جا يتطاعنون بالرماح ويتجاللون
بالسيوف ويتخبطون بالعمد ، ثم يروحون كأن لم يصنعوا شيئاً ، رواح قوم
تلك عاداتهم وتجارتهم . فقال له الحجاج : لشد ما مدحته أبا عقبة ! قال :
الحق أولى .

وكانت ركب الناس قديماً من الحشب ، فكان الرجل يضرب ركابه فينقطع ، فإذا أراد الضرب أو الطعن لم يكن له معتمد ، فأمر المهلب فضربت الركب من الحديد ، وهو أول من أمر بطبعها ، ففي ذلك يقول عمران بن عاصم العنزي :

ضربوا الدوام في إمارتهم وضربت للحدثان والحروب
حلقاً ترى منها مرافقهم كتناكب الجمالة الجروب

* * *

وركب الحجاج إلى عتاب بن ورقاء الزباجي ، من بني رياح بن يربوع بن حنظلة ، وهو والي أصهان : يأمره بالمسير إلى المهلب وأن يضم إليه جند عبد الرحمن بن مخنف ، فكل بلد تدخلانه من فتوح أهل البصرة فالمهلب أمير الجماعة فيه ، وأنت على أهل الكوفة ، فإذا دخلتم بلداً فتحه لأهل الكوفة فانت أمير الجماعة فيه ، والمهلب على أهل البصرة .

نقدم عتاب في إحدى جماديين من سنة ست وسبعين على المهلب ، وهو بسابور ، وهي من فتوح أهل البصرة فكان المهلب أمير الناس ، وعتاب على أصحاب ابن مخنف ، والحوارج في أيديهم كرمان ، وهم يلازم المهلب بفارس مجاربونه من جميع النواحي .

فوجه الحجاج إلى المهلب رجلين يستحسانه مناجزة القوم ، أحدهما يقال له زياد بن عبد الرحمن ، من بني عامر بن صعصعة ، والآخر من آل أبي عقيل جد الحجاج ، فضم زياداً إلى ابنه حبيب ، وضم الثقفي إلى يزيد ابنه ، وقال لهما : خذا يزيد وحبيباً بالمناجزة ، فغادوا الحوارج فاقتلوا أشد قتال ، فقتل زياد بن عبد الرحمن ، وفقد الثقفي ، ثم باكروهم في اليوم الثاني وقد وجد الثقفي فدعا به المهلب ودعا بالبقاء ، فجعل النبل يقع قريباً منهم ، والثقفي يعجب من أمر المهلب ، فقال الصلتان العبدى :

ألا يا أصحافي قبل عوق العواتي وقبل اختراط القوم مثل العقاتي

غداة حبيب في الحديد يقودنا نخوض النابا في ظلال الخوافي
حرون إذا ما الحرب طار شرارها وهاج عجاج الحرب في البوارق
فن مبلغ الحجاج أن أمينة زلداً أطاحته رماح الأزارق

قوله « وقبل اختراط القوم مثل العقائى » يعني السيوف و « العقائى » جمع عقيقة ، يقال سيف كأنه عقيقة يرقى ، أي كأنه لمعة يرقى ، ويقال انعق البرق إذا تبسم ، وللعقيقة مواضع ، يقال فلان بعقيقة الصبي ، أي بالشعر الذي ولد به لم يحلقه ، ويقال عقت الشيء أي قطعت ، ومن ذا فلات يعق أبويه ، وكذا عقت عن الصبي ، إذا ذبحت عنه ، وقال أعرابي :

ألم تعلمي يادارَ بلجاء أنثي إذا أجذبت أو كان خصبا جناها
أحب بلاد الله ما بين مشرف إلي وسلمى أن يصبو سحابها
بلاد بها عرق الشباب تحمي وأول أرض من جلدي ثرابها

فلم يزل عتاب بن ورفاء مع المهلب ثمانية أشهر ، حتى ظهر شيب ، فكتب الحجاج إلى عتاب يأمره بالمصير إليه لوجهه إلى شيب ، وكتب إلى المهلب يأمره بأن يرزق الجندة ، فرزق المهلب أهل البصرة ، وأبى أن يرزق أهل الكوفة ، فقال له عتاب : ما أنا بيارح حتى ترزق أهل الكوفة ، فأبى ، فحرت بينها غلظة ، فقال عتاب : قد كان يلغني أنك شجاع فأريتك جباناً ، وكان يلغني أنك جواد فأريتك بخيلاً ، فقال له المهلب : يا ابن الأحناء ا فقال له عتاب : لكنك معم محول !! فغضبت بكر بن وائل للمهلب للحلف ، ووثب ابن نعيم بن هيرة بن أبي مصقلة على عتاب فشمه ، وقد كان المهلب كلها للحلف ، فلما رأى نصرة بكر بن وائل له مرة الحلف واغبط به ، ولم يزل يؤكده ، فغضبت تميم البصرة لعتاب ، وغضبت أزد الكوفة للمهلب .

قال أبو العباس : تحالف الأزد وبيعة بعد الإسلام ، وادعوا أن ذلك كان قديماً في الجاهلية ، لقول النبي عليه السلام : « لا حلف في الإسلام ، وكل حلف في الجاهلية فلن يزيد الإسلام إلا شدة » . والحلف العهد والصحة ،

والخليفة صاحب . وإنما نهي رسول الله ﷺ عن الحلف في الإسلام لئلا يعين مسلم على مسلم ، فأما ما مضى فقد ثبت به حرمة لا يزيدوها الإسلام إلا سدة .

فلما رأى ذلك المغيرة بن المهلب مثنى بين أبيه وبين عتاب ، فقال لعتاب : يا أبا ورقاء ! إن الأمير يصير لك إلى كل ما عجب ، وسأل أباه أن يرزق أهل الكوفة ، فأجابته ، فصلح الأمر ، فكانت تميم قاطبة وعتاب بن ورقاء يحمدون المغيرة بن المهلب ، وقال عتاب : إني لأعرف فضله على أبيه ، وقال رجل من الأزد من بني إداد بن سودة :

ألا أبلغ بني ورقاء عتاباً فلولاً أننا كنا غصاباً
على الشيخ المهلب إذ جفانا للاقته خيلكم منا ضرباً

• • •

وكان المهلب يقول لبنيه : لا تبؤم بقتال حتى يدؤكم فيغيروا عليكم ، فإنهم إذا بغوا نصرتهم عليهم .

فشخص عتاب بن ورقاء إلى الحجاج في سنة سبع وسبعين ، فوجهه إلى شيب ، فقتله شيب ، وأقام المهلب على حربهم ، فلما انقضى من مقامه ثمانية عشر شهراً اختلفوا .

وكان سبب اختلافهم أن رجلاً حداداً من الأزارقة كان يعمل نصالاً مسمومة ، فيرمي بها أصحاب المهلب ، فرفس ذلك إلى المهلب فقال : أنا أكفيكموه إن شاء الله ، فوجه رجلاً من أصحابه بكتاب وألف درهم إلى عكر قطري فقال : أتي هذا الكتاب في عكر قطري واحذر على نفسك ، وكان الحداد يقال له أبزى ، فضى الرسول ، وكان في الكتاب : أما بعد ، فإن نصالك قد وصلت إلي ، وقد وجهت إليك ألف درهم ، فاقبضها وزدنا من هذه النصال . فوقع الكتاب والدرام إلى قطري ، فدعا بأبزى ، فقال : ما هذا الكتاب ؟ قال : لا أدري ، قال : فهذه الدرهم ؟ قال : ما أعلم عليها ، فأمر به فقتل ، فجاءه عبد ربه الصغير مولى بني قيس بن ثعلبة فقال له : أقلت

رجلاً على غير ثقة ولا تبين؟! فقال له : ما حال هذه الدرام ؟ قال : يجوز أن يكون أمرها كذباً ويجوز أن يكون حقاً ، فقال له قطري : قتل رجل في صلاح الناس غير منكر ، وللإمام أن يحكم بما رآه صلاحاً ، وليس للرعية أن تعترض عليه ، فتكرر له عبد ربه في جماعة معه ، ولم يفارقوه .

فبلغ ذلك المهلب فدنس إليه رجلاً نصرانياً ، فقال له : إذا رأيت قطرياً فاسجد له ، فإذا نهاك فقل : إنما سجدت لك ، ففعل النصراني ، فقال له قطري : إنما السجود لله ، فقال : ما سجدت إلا لك ، فقال له رجل من الخوارج : قد عبدك من دون الله ، وتلا : (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ، أنتم لها واردون) فقال قطري : إن هؤلاء النصارى قد عبدوا عيسى ابن مريم فما ضر ذلك عيسى شيئاً ، فقام رجل من الخوارج إلى النصراني فقتله ، فأنكر ذلك عليه وقال : أقتلت ذمياً؟! فاختلفت الكلمة فبلغ ذلك المهلب ، فوجه اليهم رجلاً يسألهم عن شيء تقدم به اليه ، فأنهم الرجل فقال : رأيتم رجلين خرجا مهاجرين إليكم ، فأت أحدهما في الطريق وبلغكم الآخر فامتحنموه فلم يميز الهنة ، ماتقولون فيها ؟ فقال بعضهم : أما الميت فؤمن من أهل الجنة ، وأما الآخر الذي لم يميز الهنة فكافر حتى يميزها ، وقال قوم آخرون : بل هما كافران حتى يميزا الهنة ، فكثر الاختلاف .

. . .

فخرج قطري إلى حدود إصطخر ، فأقام شهراً والقوم في اختلافهم ، ثم أقبل ، فقال لهم صالح بن مخراق : يا قوم ! إنكم قد أقررت أعين عدوكم وأطعتموهم فيكم ، لما ظهر من اختلافكم ، فعودوا إلى سلامة القلوب واجتماع الكلمة .

وخرج عمرو القناتدي : يا أيها المخلصون : هل لكم في الطراد فقد طال العهد به ؟ ثم قال :

ألم ترَ أنا منذ ثلاثين ليلة قريب وأعداء الكتاب على خفص

فهاج القوم وأصرع بعضهم إلى بعض ، فأبلى يومئذ المغيرة بن المهلب ، وصار في وسط الأزارقة ، فجعلت الرماح تحطئه وترفعه ، واعتورت رأسه السيوف ، وعليه ساعد حديد ، فوضع يده على رأسه ، فجعلت السيوف لاتعمل فيه شيئاً ، واستقذره فرسان من الأزد بعد أن صرع ، وكلف الذي صرعه عبيدة بن هلال ، وهو يقول :

أنا ابن خير قومه هلال
شيخ على دين أبي بلال
وذاك ديني آخر الليالي

فقال رجل للمغيرة : كنا نعجب كيف تُصرع ، والآن نعجب كيف تنبر !!

وقال المهلب لبيه : إن مَرَحَك لعل ، ولست آمنهم عليه ، أفوكلتهم به أحداً ؟ قالوا : لا ، فلم يستم الكلام حتى أتاه آت فقال : إن صالح بن محراق قد أغار على السرح ، فشق ذلك على المهلب ، وقال : كل أمر لا إليه بنفسه فهو ضائع ، وتفرغ عليهم ، فقال له بشر بن المغيرة : أرح نفسك ، فإن كنت إنما تريد مثلك فوافقه لا يعدل أحداً شيخ نعلك ، فقال : خذوا عليهم الطريق ، فثار بشر بن المغيرة ومدرِك والمفضل ابنا المهلب ، فسبق بشر إلى الطريق ، فإذا رجل أسود من الأزارقة يشل السرح ، أي يطرده ، وهو يقول :

نحن قمناكم بشل السرح
وقد نكأنا القرح بعد القرح
« الشل » ، الطرد . ويقال « نكأت القرحة » مهموز ، و « نكيت العدو » غير مهموز من الشكاية ، و « نكأت القرحة نكاً » قال ابن هرمة :

ولا أراها تزال ظالة
نحدث في قرحة وتكؤها
ولحقه المفضل ومدرِك ، فصاحا برجل من طيء : اكفنا الأسود ، فاعتوره الطائي وبشر بن المغيرة فقتله ، وأمر رجلاً من الأزارقة ، فقال له المهلب : بمن الرجل ؟ قال : رجل من همدان ، قال : إنك لشين همدان ، وخلي سيئه .

قال : وكان عياش الكندي شجاعاً بشياً . فأبلى يومئذٍ ، ثم مات على فراشه بعد ذلك . فقال المهلب : لا وآلت نفس الجبان بعد عياش .
وقال المهلب : ما رأيت كهؤلاء كلما ينقص منهم يزيد فيهم .

• • •

ووجه الحجاج إلى المهلب رجلين ، أحدهما من كلب ، والآخر من سليم ، يستحانه بالقتال ، فقال المهلب متعللاً :
ومستعجباً مما يرى من أئامتنا ولو زينت الحرب لم يتورم
الشعر لأوس بن حجر .

وقوله « زينت » يقول : دفعته . و « لم يتورم » أي لم يتحرك ، يقال : قيل له كذا وكذا فما تورم .

وقال يزيد : حرّكم ، فرّكم ، فتأيموا ، وذلك في قرية من قرى إصطخر ، فحمل رجلٌ من الحوارج على رجلٍ من أصحاب المهلب فطعنه ، فشكّ فخذه بالشرج ، فقال المهلب للسلمي والكلبي : كيف تقاتل قوماً هذا طعنهم ؟

وحمل يزيد عليهم وقد جاء الرقاد ، وهو من فرسان المهلب وهو أحد بني مالك بن ربيعة ، على فرسٍ له أدم ، وبه نيفٌ وعشرون جراحةً ، وقد وضع عليها القطن ، فلما حمل يزيد ولى الجمع وحام فارسان ، فقال يزيد لقيس الحثني موئى العتيك : من لذين ؟ قال : أنا ، فحمل عليهما ، فعطف عليهما أحدهما ، فطعنه قيس الحثني فصرعه ، وحمل عليه الآخر فعانقه ، فسقطا جميعاً إلى الأرض ، فصاح قيس الحثني ، اقتلونا جميعاً ، فحملت خيل هؤلاء وخيل هؤلاء ، فصجزوا بينها ، فإذا معانقه امرأةٌ ! فقام قيس مستحياً ، فقال له يزيد : أمّا أنت فبارزتها على أنها رجلٌ ، فقال : رأيت لو قُتلتُ أما كلن يقال قُتلت امرأةٌ ؟ !

وأبلى يومئذٍ ابن التجب السدوسي ، فقال له غلامٌ له يقال له خلاج : واه لودنا أنا فضنا عسكرهم حتى أصير إلى مستقرهم فأسلب بما هناك جلوبتين ،

فقال له مولاه : وكيف تمّيت اثنتين ؟ قال : لأعطيك إحداهما وأأخذ الأخرى !
فقال ابن المنجب :

أخيلاج إنك لن تعانق طفلةً شرقاً بها الجادي كالتّمثال
حتى تلافى في الكتبية معلماً عمرو القنا وعيدة بن هلال
وترى المقطر في الكتبية مقدماً في عصبةٍ قطوا مع الضلالِ
أو أن يُعلمك المهلب غزوةً وترى جيالا قد دنت لجلالِ

* * *

قوله « طفلة » يقول ناعمة ، وإذا كسرت الطاء فقلت « طفلة » فهي الصغيرة . و « الجادي » الزعفران . و « الكتبية » الجيش ، وإلما سمي الجيشُ كتبيةً لا تضام أهل بعضهم إلى بعض ، وبهذا سمي الكتاب ، ومنه قولهم كتبتُ البغلة والثفافة إذا خرزت ذلك الموضع منها وكتبتُ القربة . و « المعلم » الذي قد شبر نفسه بعلامة ، إما بعمامة صبيغ ، وإما بمشيرة ، وإما بغير ذلك . وكان حمزة بن عبد المطلب رضوان الله عليه معلماً يوم بدر بريشة ناعمة في صدره ، وكان أبو دجانة ، وهو سمالك بن خرشة الأنصاري ، يوم أحد لما قال رسول الله ﷺ « من يأخذ سيفي هذا بحقه ؟ » قالوا : وما حقه يا رسول الله ؟ قال : أن يضرب به في العدو حتى ينحني ، فقال أبو دجانة : أنا ، فدفعه إليه ، فلبس مشيرة فأعلم بها ، وكان قومه يطعمون لما بلوا منه أنه إذا لبس تلك المشيرة لم يبق في نفسه غاية ، ففعل ، وخرج يمشي بين الصّفيين ، فقال رسول الله ﷺ : إنها المشية ينفخها الله عز وجل إلا في مثل هذا الموضع . ويروي « أن رسول الله ﷺ سمع علياً صلوات الله عليه يقول لفاطمة ورمى إليها سيفه فقال : هاك حميداً فأغسلني عنه الدم ، فقال رسول الله ﷺ : لأن كنت صدقت القتال اليوم لقد صدقته معك سمالك بن خرشة وسهل بن حنيف والحارث بن الصّمة ، وفي بعض الحديث « وقيس بن الربيع » وكل هؤلاء من الأنصار .

★ ★ ★

عاد الحديث إلى ذكر الخوارج

وعمرؤ القنا من بني سعد بن زيد مناة بن تميم ، وعبيدة بن هلال من بني يشكر بن بكر بن وائل ، والذي طعن صاحب الملب في فضده فشكها مع السرج من بني تميم ، قال : ولا أذري أعمرؤ هو أم غيره ، والمقعر من عبد القيس .

وقوله « قسطوا » أي جاروا ، يقال قسط يقسط فهو قاسط ، إذا جار ، قال الله جل ثناؤه : (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطاً) . ويقال أقسط يقسط فهو مُقسط ، إذا عدل ، قال الله تعالى : (إن الله يحب المقسطين) . وكان بدر بن المذنب شجاعاً ، وكان لحانة ، فكان إذا أحس بالخوارج نادى : يا خيل الله اركبي ! وله يقول القائل :

وإذا طلبت إلى الملب حاجة عرضت توابع دونه وعيد
العبد كردوس وعبد مثله وعلاج باب الأحرار شديد

« كردوس » رجل من الأزد ، وكان حاجب الملب . وقوله « وعلاج باب الأحرار شديد » العرب تسمي العجم الحمراء ، وقد مر تفسير ذا . وقوله « توابع » أراد به الرجال ، فجاز في الشعر ، وإنما رده إلى أصله للضرورة ، وما كان من التبع على « فاعل » فعمه « فاعلون » لئلا يلتبس بجمع « فاعلة » التي هي نعت ، وقد قلنا في هذا ولم قالوا « فوارس » و « هالك » في الهالك .

وكان بشر بن المغيرة أبلي يومئذ بلاة حسناً عُرف مكانه فيه ، وكانت بينه وبين بني الملب جفوة ، فقال لهم : يا بني عم ! اني قد قصرت عن شكاة العائب ، وجاوزت شكاة المستعيب ، حتى كافي لا موصول ولا محروم ، فاجعلوا لي فرجة أعش بها ، وهبوني امرأة رجوت نصره أو خفتم لسانه . فرجعوا له ووصلوه ، وكلموا فيه الملب فوصله .

وولى الججاج كردماً فارس ، فوجهه الججاج إليها والحرب قائمة ، فقال رجل
من أصحاب المهلب .

ولو رأها كردم لكردما كرده العيرأحن الضيغا
« الضيغم ، الأسد . » والكردمة ، الثفور .

فكتب المهلب إلى الججاج يسأله أن يتجافى له عن إصطخر ودرآب جرّد
لأرزاك الجند ، ففعل ، وقد كان قطريّ هدم مدينة إصطخر ، لأن أهلها كلوا
يكتبون المهلب بأخباره ، وأراد مثل ذلك بمدينة فسا ، فاشتراها منه آزاد
مرّد بن الهرّبذ بمائة ألف درهم فلم يدمها ، فواقعه المهلب فهزمه ، ونفاه إلى
كرمان واتبعه ابنه المغيرة ، وقد كان دفع إليه سيفاً وجهه به الججاج إلى
المهلب ، وأقسم عليه أن يتقلده ، فدفعه إلى المغيرة بعد ما تقلد به ، فرجع
به المغيرة إليه وقد دماه ، فسرّ المهلب بذلك وقال : ما يسرّني أن أكون
كنت قد دفعته إلى غيرك من ولدي ، اكفني جباية خراج هاتين الكورتين ،
وضمّ إليه الرقاد ، فجعلنا يحيان ولا يعطيان الجند شيئاً ، ففي ذلك يقول رجل
منهم ، وأحبه من بني عيم ، في كلمة له :

ولو علم ابن يوسف ما نلاقي من الآفات والكرب الشديد
لفاضت عينه جزعاً علينا وأصلح ما استطاع من الفساد
ألا قلّ للأمير مجزيت خيراً أرحنا من مغيرة والرقاد
فما رزقا الجنود بها قضيّاً وقد ساءت مطامير الحصاد

يقال « ساس الطعام وأساس » إذا وقع فيه السوس ، و « داد وأداد » من
الدؤد . وروى أبو زيد « ديدَ فهو مدود » في هذا المعنى .

فحاربهم المهلب بالسريجان حتى تقام عنها إلى جيرفت ، واتبعهم قتل قريباً
منهم ، واختلفت كلمتهم .

وكان سبب ذلك أن عبيدة بن حلال اليشكريّ انهم بأمرأة رجله حداد وأوه مراراً يدخل منزله بغير إذن ، فاتوا قطرياً فذكروا ذلك له ، فقال لهم : إن عبيدة من الدين بحيث علم ، ومن الجهاد بحيث رأيتم ، فقالوا : إنا لا نتقارّه على الفاحشة ، فقال : انصرفوا ، ثم بعث إلى عبيده فأخبره وقال : إنا لا نتقارّه على الفاحشة ، فقال : بهتوني يا أمير المؤمنين ! فما ترى ؟ قال : إني جامع بينك وبينهم ، فلا تخضع خضوع المذنب ، ولا تتطاول تطاول البريء ، فجمع بينهم فتكلموا ، فقام عبيدة فقال : بسم الله الرحمن الرحيم (إن الذين جاءوا بالإفك مصبةٌ منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خيرٌ لكم) الآيات ، فبكوا وقاموا إليه فاعتقوه ، وقالوا : استغفر لنا ، ففعل ، فقال لهم عبد ربه الصغير مولى بني قيس بن ثعلبة : والله لقد خدعكم ! فبايع عبد ربه منهم ناسٌ كثيرٌ لم يظهروا ولم يحذوا على عبيدة في إقامة الحد ثبّتاً .

* * *

وكان قطريّ قد استعمل رجلاً من الدعايق فظهرت له أموالٌ كثيرةٌ ، فاتوا قطرياً فقالوا : إن عمر بن الخطاب لم يكن يُقارّه ماله على مثل هذا ، فقال قطريّ : إني استعملته وله ضياعٌ وتجاراتٌ ، فأوز ذلك صدورهم ، وبلغ ذلك الملب فقال : إن اختلافهم أشد عليهم مني .

وقالوا لقطريّ : ألا تخرج بنا إلى عدونا ! فقال : لا ، ثم خرج ، فقالوا : قد كذب وارتد ! فاتبعوه يوماً فأحسّ بالشرّ ، فدخل داراً مع جماعة من أصحابه ، فصاحوا به : بإدابة اخرج إلينا !! فخرج إليهم ، فقال : رجعتم بعدي كفاراً ؟ فقالوا أو لست دابة ؟ قال الله عز وجل : (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها) ولكنك قد كفرت بقولك أنا قد رجعتنا كفاراً ، قتب إلى الله عز وجل ، فشاور عبيدة ، فقال : ان ثبت لم يقبلوا منك ، ولكن قل : إنما استفهمت فقلت أرجعتم بعدي كفاراً ، فقال ذلك لهم فقبلوه منه ، فرجع إلى منزله ، وعزم أن يبايع المقعطر العبدى ، فكرهه القوم وأبوه فقال

له صالح بن مخراق عنه وعن القوم : ابغ لنا غير المقطر ، فقال لهم قطري : أرى طول العهد قد غيركم ، وأنتم بصدد عدوكم ، فاتقوا الله وأقبلوا على شأنكم واستعدوا للقائه القوم ، فقال له صالح بن مخراق : ان الناس قبلنا قد ساموا عثمان بن عفان أن يعزل عنهم سعيد بن العاصي ففعل ، ويجب على الإمام أن يعفي الرعية بما كرهت ، فأبى قطري أن يعزله ، فقال له القوم : انا خلعتك وولينا عبد ربه الصغير ، فانفصل الى عبد ربه أكثر من الشطر ، وجلبهم الموالي والعجم ، وكان هناك منهم ثمانية آلاف ، وهم القراء ، ثم ندم صالح بن مخراق فقال لقطري : هذه نفحة من نفحات الشيطان فأعفنا من المقطر وسر بنا الى عدوك ، فأبى قطري الا المقطر ، فحمل قس من العرب على صالح بن مخراق فطعنوه فأنفذوه وأجره الرمح فقتله .

ومعنى « أجره الرمح » طعنه وترك الرمح فيه ، قال عترة :

وآخر منهم أجروا رمحى وفي البجليّ مبعلةً وقبعُ

فشبت الحرب بينهم ، فهاجموا ، ثم انماز كل قوم الى صاحبهم ، فلما كان الفد اجتمعوا فاقبلوا قتالا شديدا ، فأجلت الحرب عن ألفي قتيل ، فلما كان الفد باكروم القتال ، فلم يتصف النهار حتى أخرجت العجم العرب من المدينة ، وأقام عبد ربه بها ، وصار قطري خارجا من مدينة جيوفت يزاوهم ، فقال له عبيدة : يا أمير المؤمنين ! إن أمت لم آمن هذه العبيد عليك إلا أن نخندق ، فنخندق على باب المدينة ، وجعل يناوشهم .

وارتحل المهلب فكان منهم على ليق ، وورسل الحجاج معه يستحثه ، فقال له : أصلح الله الأمير ، عاجلهم قبل أن يسطلموا ، فقال المهلب : إنهم لن يسطلموا . ولكن دعهم ، فإنهم سيمضون الى حال لا يفلحون معها ، ثم دس رجلا من أصحابه فقال : إيت عسكر قطري فقل : إني لم أزل أرى قطريا يصيب الرأي حتى تزل منزله هذا ، فإن خطوه ، أقيم بين المهلب وعبد ربه ، يفاديه هذا القتال ويرواحه هذا ؟ فسمى الكلام إلى قطري ، فقال : صدق ، تحروا بنا

عن هذا الموضع ، فإن اتبعنا المهلب قاتلناه ، وإن أقام على عبد ربه رأيتم فيه ما تحبون ، فقال له الصلت بن مرة : يا أمير المؤمنين ! إن كنت إنما تريد الله فأقدم على القوم ، وإن كنت إنما تريد الدنيا فأعلم أصحابك حتى يستأمنوا ، وأنشأ الصلت يقول :

قل للسلطين قد قرئت عيونكم	بفرقة القوم والبغضاء والحرب
كنا أناساً على دينٍ فقيرنا	طول الجدال وخط الجد بالعب
ما كان أغنى رجالاً ضل سعيهم	عن الجدال وأغناهم عن الحطب
إني لأهونكم في الأرض مضطرباً	مالي سوى فرسي والرمح من نشب

ثم قال : أصبح المهلب يرجو منا ما كنا نطمع فيه منه ، فارغحل قطري ، وبلغ ذلك المهلب ، فقال لهرير بن عدي بن أبي طحمة الجاشعي : إني لا آمن أن يكون قطري كذا بتوك موضعه ، فاذهب فتعرف الخبر ، فضى هريم في اثني عشر فارساً ، فلم ير في العسكر إلا عبداً وعلجاً ، فسألها عن قطري وأصحابه ؟ فقالا : مضوا يرتادون غير هذا المنزل ، فرجع هريم إلى المهلب فأخبره ، فارغحل المهلب حتى نزل خندق قطري ، فجعل يقاتلهم أحياناً بالغداة ، وأحياناً بالضي ، ففي ذلك يقول رجل من سدوس ، يقال له المعتق ، وكان فارساً :

ليت الحرائر بالعراق شهدتنا	ورأيتنا بالسفح ذي الأجيال
فنكحن أهل الجزء من فرساننا	والضاريين جهاجم الأبطال

* * *

ووجه المهلب يزيد إلى الحجاج بخبره أنه قد نزل منزل قطري ، وأنه مقيم على عبد ربه ، ويسأله أن يوجه في إنتر قطري رجلاً جليداً في جيش ، فسر ذلك الحجاج سروراً أظهره ، ثم كتب إلى المهلب يستحثه مع سعيد بن موهب ، وفي الكتاب :

أما بعد ، فإنك تتراخى عن الحرب حتى تأتيك رؤي ، فترجع بعنوك ، وذلك أنك تمسك حتى تبرا الجراح ، وتفسى القتلى ، ويجم الناس ، ثم تلقاهم

فَتَحْتَمِلُ مِنْهُمْ مِثْلَ مَا يَحْتَمِلُونَ مِنْكَ ، مِنْ وَحْشَةِ الْقَتْلِ ، وَأَلَمِ الْجِرَاحِ ، وَلَوْ كُنْتَ تَلْقَاهُمْ بِذَلِكَ الْجِدَّةِ لَكَانَ الدَّاءُ قَدْ حَسَمَ ، وَالْقَرْنُ قَدْ قَصَمَ ، وَلِعَمْرِي مَا أَنْتَ وَالْقَوْمُ سِوَاءٌ ؛ لِأَنَّ مِنْ وَرَثَاتِكَ رِجَالًا وَأَمَالِكَ أَمْوَالًا ، وَلَيْسَ لِلْقَوْمِ إِلَّا مَا مَعَهُمْ وَلَا يَدْرُكُ الْوَجِيفَ بِالذَّيْبِ ، وَلَا الظَّفَرَ بِالْتَعْذِيرِ .

فَقَالَ الْمُهَلَّبُ لِأَصْحَابِهِ : إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَرَاكُمْ مِنْ أَقْرَانِ أَرْبَعَةٍ : قُطْرِيَّ بْنَ الْقُبَابِ ، وَصَالِحَ بْنَ مَخْرَاقٍ ، وَعَبِيدَةَ بْنَ هَلَالٍ ، وَسَعْدِ الْبُلَاطِئِ ، وَإِنَّمَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ عَبْدٌ رَبِّي ، فِي خَشَرٍ مِنْ خَشَرِ الشَّيْطَانِ ، تَقْلُوبُهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

فَكَانُوا يَتَفَادُونَ الْقِتَالَ وَيَتَرَاوَحُونَ ، فَتَصَيَّهَمُ الْجِرَاحُ ، ثُمَّ يَتَحَاجِزُونَ كَمَا هُمْ انْصَرَفُوا مِنْ مَجْلَسٍ كَانُوا يَتَحَدَّثُونَ فِيهِ ، فَيَضُكُّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ، فَقَالَ عُبَيْدُ بْنُ مَوْهَبٍ لِلْمُهَلَّبِ : قَدْ بَانَ عَذْرُوكَ ، وَأَنَا مُخَيَّبُ الْأَمِيرِ ، فَكُتِبَ الْمُهَلَّبُ إِلَيْهِ :

أَمَا بَعْدَ ، فَإِنِّي لَمْ أُعْطِ رِسْلَكَ عَلَى قَوْلِ الْحَقِّ أَجْرًا ، وَلَمْ أُحْتَجْ مِنْهُمْ مَعَ الْمَشَاهِدَةِ إِلَى تَلْقَائِي ، ذَكَرْتَ أَنِّي أَجْمُ الْقَوْمَ ، وَلَا بَدَّ مِنْ رَاحَةٍ يَسْتَوِيحُ فِيهَا الْغَالِبُ ، وَيَحْتَالُ فِيهَا الْمَغْلُوبُ ، وَذَكَرْتَ أَنَّ فِي ذَلِكَ الْجَمَامِ مَا يَنْسِي الْقَتْلَ ، وَتَبَرَّأَ مِنْهُ الْجِرَاحُ ، وَهَيَّاتُ أَنْ يَنْسِيَ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ ، تَأْبَى ذَلِكَ قَتْلِي لَمْ تَجْنِ ، وَقُرُوحٌ لَمْ تَبْقَرْ ، وَغَنَمٌ وَالْقَوْمُ عَلَى حَالَةٍ ، وَهُمْ يَرْقُبُونَ مَنَّا حَالَاتٍ ، إِنْ طَمَعُوا حَارِبُوا ، وَإِنْ مَلُوا وَقَعُوا ، وَإِنْ يَشَوْا انْصَرَفُوا ، وَعَلَيْنَا أَنْ نَقَاتِلَهُمْ إِذَا قَاتَلُوا ، وَتَحَرَّزُوا إِذَا وَقَعُوا ، وَنَطْلُبُ إِذَا هَرَبُوا ، فَإِنْ تَرَكْنِي وَالرَّأْيَ كَانِ الْقَرْنُ مَقْصُومًا ، وَالِدَاءُ يَأْذَنُ اللَّهُ مَحْسُومًا ، وَإِنْ أَعْجَلْتَنِي لَمْ أُطِيعَكَ وَلَمْ أَعْصِ ، وَجَعَلْتُ وَجْهِي إِلَى بَابِكَ ، وَأَنَا أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ ، وَمَقْتِ النَّاسِ .

★ ★ ★

ولا اشد الحصار على عبد ربه قال لأصحابه : لا تفتقروا إلى من ذهب عنكم من الرجال ، فإن المسلم لا يفتقر مع الإسلام إلى غيره ، والمسلم إذا صبح توجيده عزّ بربه ، وقد أراحكم الله من غلظة قطريّ ، وعجة صالح بن خرقاء ونحوه ، واختلاط عبيدة بن حلال ، ووكلكم إلى بصائرهم ، فالقوا عدوكم بصبر ونية ، وانتقلوا عن منزلكم هذا ، من قتل منكم قتل شهيداً ، ومن سلم من القتل فهو المحروم .

وقدم في هذا الوقت على المهلب عبيد بن أبي ربيعة بن أبي الصلت التقي يستعنه بالقتال ، ومعه أمينان ، فقال له : خالفت الأمير ، وآثرت المدافعة والمطاولة ، فقال له المهلب : ما تركت جهداً ، فلما كان العشي خرج الأزارقة وقد حملوا حرمهم وأموالهم وخيف متاعهم لينتقلوا ، فقال المهلب لأصحابه : الزموا مصافكم ، وأشرعوا رماحكم ، ودعوم والنهاب ، فقال له عبيد : هذا لعمري أيسر عليك ، فقال للناس : ردوم عن وجههم ، وقال لبنيه : تفرقوا في الناس ، وقال لعبيد بن أبي ربيعة : كن مع يزيد فخذ بالهاربة أشد الأخذ ، وقال لأحد الأميين : كن مع المغيرة ولا ترخص له في الفتور ، فاقتلوا قتلاً شديداً ، حتى عقرت الدواب ، وصرع الفرسان ، وقتل الرجال . فبعثت الحوارج تقاتل على القدح يؤخذ منها والسوط والعلق الحبيس أشد قتال ، وسقط رمح رجل من مراد من الحوارج ، فقاتلوا عليه حتى كثر الجراح والقتل ، وذلك مع المغرب ، والمرادي يقول :

اليل ليل فيه ويل ويل وسال بالقوم الشراة السيل

• إن جاز للأعداء فينا قول •

فلما عظم الخطب فيه بعث المهلب إلى المغيرة : خلّ عن الرمح عليهم لعنهم الله ، فخلّوا لهم عنه .

ثم مضت الحوارج حتى نزلوا على أربعة فراسخ من جيؤفت ، ودخلها المهلب وأمر يجمع ما كان لهم فيها من المتاع ، وما خلفوه من رقيق ، وختم عليه هو

والتقي والأمينان ، ثم اتبعهم ، فإذا هم قد نزلوا على عين لا يشرب منها إلا قوي ، يأتي الرجل بالدلو قد شدها في طرف رعه فيسقي بها ، وهناك قرية فيها أهلها ، فغاداهم القتال ، وضم التقي إلى يزيد ، وأحد الأمنين إلى المغيرة ، واقتل القوم إلى نصف النهار ، فقال المهلب لأبي علقمة العبدي ، وكان شجاعاً عاتياً : أمدد بخيل اليمجد ، وقل لهم : فليعيرونا جاجهم ساعة ، فقال له : إن جاجهم ليست بفخار فتعار وليست أعناقهم كرادي قتبت - قال أبو الحسن الاخفش : تقول العرب لأعناق النخل : كرادي ، وهو فارسي أعرب - وقال حبيب بن أوس : كرت على القوم ، فلم يفعل ، وقال :

يقول لي الأسير بغير علم تقدم حين جد به المراس
فإني إن أطلعتك من حياة ومالي غير هذا الرأس رأس

نصب « غير » لأنه استثناء مقدم ، وقد مضى تقريره .

وقال لمعن بن المغيرة بن أبي صفرة : احمل ، فقال : لا ، إلا أن تزوجني أم مالك بنت المهلب ، ففعل ، فعمل على القوم فكشفهم ، وطعن فعم ، وقال :

ليت من يشتري الغداة بال هللكه اليوم عندنا قيرانا
نصل الكرك عند ذاك بطعن إن للموت عندنا ألوانا

ثم جال الناس جولة عند حمرة حلها عليهم الحوارج ، فالتفت عند ذلك المهلب إلى المغيرة فقال : ما فعل الأمين الذي كان معك ؟ قال : قُتِلَ ، وكان التقي قد هرب ، وقال ليزيد : ما فعل عبيد بن أبي ربيعة ؟ قال : لم أَرَهُ منذ كانت الجولة ، فقال الأمين الآخر للمغيرة : أنت قتلت صاحبي ، فلما كان العشي رجع التقي ، فقال رجل من بني عامر بن صعصعة :

مازلت بالتقي نخطبُ بيتنا وتغننا بوصية الججاج
حتى إذا ما الموت أقبل زائراً وسما لنا صيرفاً بغير مزاج
وليت بالتقي غير مناظر تناب بين أحزة وفجاج

ليست مقارعة الكهنة لدى الوثنية

شرب المدامة في إلقاء زجاج

قوله « بين أحزة » هو جمع حزير ، وهو مَتْنٌ يتقاد من الأرض ويغلظ ،
و « الفجأج » : الطرق ، واحدها فج .

وقال المهلب للأمين الآخر : ينبغي أن تتوجه مع ابني حبيب في ألف رجل
حتى تبيتوا عسكرهم ، فقال : ما تريد أيا الأمير إلا أن تقتلني كما قتلت صاحي !
قال : ذاك إليك ، وضحك المهلب ، ولم تكن للقوم خنادق ، فكان كل
حنزلاً من صاحبه ، غير أن الطعام والعدة مع المهلب ، وهم في زهاء ثلاثين
ألفاً ، فلما أصبح أشرف على وادي فإذا هو برجل معه رمح مكسور وقد خضبه
بالدماء ، وهو ينشد :

جزائي دوائي ذو الحمار وصنعي	إذا بات أطواء بني الاصغر
أخادعهم عنه ليخفق ذؤنهم	وأعلم غير الظن أتي مغاور
كافي وأبدان السلاح عشة	يرئ بنا في بطن فيحان طائر

فدعاه المهلب فقال : أئيمي أنت ؟ قال : نعم ، قال أحظلي ؟ قال : نعم ،
قال : أيروعي ؟ قال : نعم ، قال : أئعلي ؟ قال : نعم ، قال : أمن
آل نورة ؟ قال : نعم ، أنا من ولد مالك بن نورة ، وسبحان الله أيا الأمير !
أ يكون مثلي في عسكرك لاتعرفه ؟ ! قال : عرفتك بالشعر !!

قوله : « ذو الحمار » يعني فرساً ، وكان ذو الحمار فرس مالك بن نورة ، قال
جرير يجو الفرزدق :

يبوع فخرت وآل سعد	فلا مجدي بلفت ولا افتخاري
يبوع فوارس كل يوم	يؤري شمه وهج الغبار
عتية ، والأحيمر ، وابن عمرو	وعتاب ، وفارس ذي الحمار

قوله : « أطواء » يقال : رجل طوي البطن ، أي منظره ، يخبر أنه كان
يؤثر فرسه على ولده ، فيشبعه وهم جياح ، وذلك قوله :

أخادعهم عنه ليغيب دونهم

و « الغبوق » : شرب آخر النهار ، وهذا شيء تقتخر به العرب ، قال
الأسعري الجعفي :

لكن قعيدة ميتة بحفوة*
تقي بعيشة أهلها وثابة*
باد جناح صدرها ولما غنى
أوجر شعاً نهد المراكل والشوى

* * *

قال : فكثروا إماماً على غير خنادق ، يتحازسون ودوابهم منسرجة ، فلم
يزالوا على ذلك حتى ضعف الفريقان ، فلما كانت الليلة التي قتل في صبيحتها عبد
ربه جمع أصحابه وقال : يا معشر المهاجرين ! إن قطرياً وعبيدة هربا طلب البقاء ،
ولا سبيل إليه ، فالتقوا عدوكم ، فإن غلبوكم على الحياة فلا يغلبكم على الموت ،
فتلقوا الرماح بنحوركم ، والسيوف بوجوهكم ، وهبوا أنفُسكم لله في الدنيا وبها
لكم في الآخرة .

فلما أصبحوا غادوا المهلب فقاتلوه قتالاً شديداً ، نسي به ما كان قبله ،
فقال رجل من الأزد من أصحاب المهلب : من ييايعني على الموت ؟ فبايعه
أربعون رجلاً من الأزد وغيرهم ، فصرع بعضهم ، وقتل بعض ، وجرح بعض ،
وقال عبد الله بن رزام الحارثي لأصحاب المهلب : احموا ، فقال المهلب : أعراني
بجنون ! وكان من أهل نجران ، فضمل وحده ، فاخترق القوم حتى نجم من
ناحية أخرى ، ثم رجع ، ثم كرّ ثانية ، ففعل فعلته الأولى ، ونهاج الناس
فتوجلت الحوارج وعقروا دوابهم ، فناداهم عمرو التقي ، ولم يترجل هو وأصحابه
من العرب ، وكانوا زهاء أربع مائة : موتوا على ظهور دوابكم ، ولا تعقروها ،
فقالوا : إننا إذا كنا على الدواب ذكرنا الفرار .

فاقتتلوا ، ونادى المهلب بأصحابه : الأرض الأرض ، وقال لبنيه : تفرقوا
في الناس ليروا وجوهكم ، ونادى الحوارج : ألا إن العيال لمن غلب ، فمبر

بنو المهلب ، وصبر يزيد بين يدي أبيه ، وقاتل قتالاً شديداً أبلى فيه ، فقال له أبوه : يا بني إني أرى موطناً لا ينجو فيه إلا من صبر ، وما مرّ بي يومٌ مثل هذا منذ مارست الحروب .

وكسرت الحوارج أجفان سيوفها ، وتحاولوا ، فأجلت جولتهم عن عبد ربه مقتولاً ، فهرب عمرو القنا وأصحابه ، واستأمن قومٌ ، وأجلت الحرب عن أربعة آلاف قتيلٍ ، وجرحى كثيرٍ من الحوارج ، فأمر المهلبُ بأن يدفع كلَّ جريحٍ إلى عشيرته ، وظفر بعسكرهم فعوى مافيه ، ثم انصرف إلى جيفت ، فقال : الحمد لله الذي ردنا إلى الخفض والدعة ، فما كان عيشنا بعيشٍ ، ثم نظر إلى قومٍ في عسكره لم يعرفهم ، فقال : ما أشدَّ عادة السلاخ ! فقالوا في درعي ، طلبها ، ثم قال : خذوا هؤلاء ، فلما صير بهم إليه قال : ما أنتم ؟ قالوا : نحن قومٌ جئنا لطلب غرتك لفتك بك ، فأمر بهم فقتلوا .

* * *

قال أبو العباس : ووجه المهلب كعب بن معدان الأشقري ، ومرة بن تليد الأزدي من أزد شومة ، فوفدا على الحجاج ، فلما طلعا عليه تقدم كعبُ فأنشده :
يا حصنَ إني عدائي عنكم السفر وقد سهرت فأردى نومي السهر
فقال له الحجاج : أشاعرٌ أم خطيبٌ ؟ قال : كلاهما ، ثم أنشده القصيدة ، ثم أقبل عليه فقال له : أخبرني عن بني المهلب ؟ قال : المغيرةُ فارسهم وسيدهم ، وكفى يزيد فارساً شجاعاً ، وجوادهم وسخيم قبيصة ، ولا يستحيي الشجاع أن يفرَّ من مدركٍ ، وعبد الملكُ سمٌّ نافعٌ ، وحبيبٌ موتٌ زعافٌ ، وعبد الله غابٍ ، وكهافٌ بالفضل نجدةٌ ، قال : فكيف خلفت جماعة الناس ؟ قال : خلفتهم بخير ، قد أدركوا ما أملوا ، وأمنوا ما خافوا ، قال : فكيف كان بنو المهلب فيكم ؟ قال : كانوا حماة السرح نهراً ، فإذا ألبوا ففرسان الليات ، قال : فأهم كان أنجد ؟ قال : كانوا كالخلقة المفرغة ، لا يدري أين طرفها ، قال : فكيف كنتم أنتم وعدوكم ؟ قال : كنا إذا أخذنا غنونا ، وإذا أخذوا بشنا

منهم ، وإذا اجتهدوا واجتهدنا طمعنا فيهم ، فقال الحجاج : إن العاقبة للبتين ، كيف أفلكم قطري ؟ قال : كدناه ببعض ما كدنا به ، فصرنا منه إلى الذي نحب ، قال : فهلا اتبتموه ؟ قال : كان الحد عندنا أثر من الفل ، قال : فكيف كان لكم الملب ؟ وكنتم له ؟ قال : كان لنا منه شفقة الوالد ، وله منا بر الولد ، قال : فكيف اغتباط الناس ؟ قال : فشا فيهم الأمن ، وشملهم النقل . قال : أكنت أعددت لي هذا الجواب ؟ قال : لا يعلم الغيب إلا الله . قال : فقال : هكذا تكون والله الرجال . الملب كان أعلم بك حيث وجهك . وكان كتاب الملب إلى الحجاج :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الكافي بالإسلام فقد ماسواه ، الذي حكم بأن لا ينقطع المزيد منه حتى ينقطع الشكر من عباده . أما بعد ؛ فقد كان من أمرنا ما قد بلغك ، وكنا نحن وعدونا على حالين مختلفين ، يسراً منهم أكثر مما يسوئنا ، ويسوعم منا أكثر مما يسرهم على اشتداد شوكتهم ، فقد كان علن أمرهم حتى ارتفعت له الفتاة ، ونوم به الرضيع ، فانتزعت منهم الفرصة في وقت إمكانها ، وأدريت السواد من السواد ، حتى تعارفت الوجوه ، فلم نزل كذلك حتى بلغ الكتاب أجله فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين .

فكتب إليه الحجاج :

أما بعد ؛ فإن الله عز وجل قد فعل بالمسلمين خيراً ، وأراحهم من حد الجهاد ، وكنتم أعلم بما قبلك ، والحمد لله رب العالمين ، فإذا ورد عليك كتابي هذا فاقسم في المجالعين فيهم ، وتقل الناس على قدر بلائهم ، وفضل من رأيت تفضله ، وإن كانت بقيت من القوم بقية فظلف خيلاً تقوم بإزائهم واستعمل على كرمان من رأيت ، وول الحيل شهماً من ولدك ، ولا ترخص لأحد في إلحاق بمنزله دون أن تقدم بهم علي ، وعجل القدوم ، إن شاء الله . فولى الملب ابنه يزيد كرمان . وقال له : يا بني ! إنك اليوم لست كما

كُتِّ ، إنما لك من مال كرمان ما فضل عن الحاجب ، ولني تحتل إلا على ما احتمل عليه أبوك ، فأحسن إلى من معك ، وإن أنكرت من إنسان شيئاً فوجهه إلي وتفضل على قومك إن شاء الله .

وقدم الملبُّ على الحاجب فأجلسه إلى جانبه ، وأظهر إكرامه وبه ، وقال : يا أهل العراق ! أنتم عيِّدُ الملب ، ثم قال : أنت واقع كما قال لقيطُ الأيادي :

وَقَلِّدُوا أَمْرَكُمْ فَهَ دَرَكُكُمْ	رَحِبَ النَّوَاعِ بِأَمْرِ الْحَرْبِ مَضْطَلَعاً
لَا يَطْعُمُ النَّوْمُ إِلَّا رَيْثَ يَعْشَ	هُمْ يَكَادُ حِشَاءُ يَقْصُمُ الضَّلْعَ
لَا مَتْرَفَانُ رِخَاءُ الْعَيْشِ سَاعِدُهُ	وَلَا إِذَا غَضِيَ مَكْرُوهُ بِهِ خُشَعَا
مَازَالَ يَجْلِبُ هَذَا الدَّهْرُ أَشْطَرَهُ	يَكُونُ مُتْبِعاً طَوْرًا وَتَبَعَا
حَتَّى اسْتَمَرَّتْ عَلَى سُورٍ مَرِيْرَةٍ	مُسْتَحْكِمُ الرَّأْيِ لَا قِحْمًا وَلَا ضَرْعَا

فقام إليه رجل ، فقال : أخلص الله الأمير ، والله لكأنني أسمع الساعة فطرياً وهو يقولُ : الملبُّ كما قال لقيطُ الأيادي ، ثم أنشد هذا الشعر ، فسر الحاجبُ حتى امتلأ سروراً . قوله « نفل » أي أقسم بينهم ، والنفلُ : العطيَّةُ التي تقبل ، كذا كان الأصل ، وإنما تقبل الله عز وجل بالغانم على عباده ، قال ليذ :

إِنْ تَقْوَى رَبَّنَا خَيْرُ نَفْلِ وَيَاذَنْتُ اللَّهَ رَيْثٌ وَعَجَلُ

وقال جل جلاله : (يسألونك عن الأنفال) ويقال : نفلتك كذا وكذا أي : أعطيتك ، ثم صار النفل لازماً واجباً . وقول الأيادي « رحب النواع » فالرحبُ : الواسع ، وإنما هذا مثلٌ ، يريد : واسع الصدر ، متباعد ما بين المتكئين والنواعين ، وليس المعنى على تباعد الخلق ، ولكن على سهولة الأمر عليه ، قال الشاعر :

رَحِبَ النَّوَاعِ بِأَلِيٍّ لَا تَشِينُهُ وَإِنْ قَلَّتِ الْعَوْرَاءُ ضَاقَ بِهَا ذَرْعَا

وكذلك قوله جل وعز : (يجعل صدره ضيقاً حرجاً) وقوله « مضطلعاً ،

انما هو «مقتل» من الضليع ، وهو الشديد ، يريد أنه قوي على أمر الحرب ، مستقل بها . وقوله : « يكون متبعاً طوراً ومتبعاً » أي قد اتبع الناس فعل ما يصلح به أمر الناس ، واتبع فعل ما يصلح الرئيس كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : قد ألتنا وابل علينا ، أي قد أصلحنا أمور الناس ، وأصلحت أمورنا . وقوله : « على شَرٍّ مريئة » فهذا مثل ، يقال شَرُّت الجبل : إذا كبرت قتلته بعد استحكامه راجعاً عليه ، والمريئة : الجبل . و «الضرع» : الصغير الضعيف . و «القحم» : آخر سن الشيخ ، قال العجاج :

رَأَيْنَ قَحْمًا شَابَ وَأَقْلَحًا طَالَ عَلَيْهِ الدَّهْرُ فَاسْلَهَا

والمقْلَحُ مثل القحم ، وهو الجاف ، ويقال للصبي ملتحمٌ : إذا كثر مميء الغداء ، أو ابن هَرَمِين ، ويقال رجلٌ لِنَقْلٍ وامرأةٌ لِنَقْدَةٍ : إذا أَسْنَحَ حتى يبيس ، والمسلَّمُ الضامر ، قال الشاعر :

لَا رَأَيْتُ خَلْقًا لِنَقْدَةٍ .

ويقال في معنى : قحمٍ قحْرٌ ، ويقال بعيرٌ قحاريةٌ ، في هذا المعنى . وقوله « لا يطعم النومَ إلا ريثَ يبعثُهم » فريثٌ وعرضٌ مما يضاف إلى الأفعال ، وتأويله أنه لا يطعم النوم إلا بغيراً حتى يبعثهم همٌ ، فعناء مقدار ذلك ، وبما يضاف إلى الأفعال أسماءُ الزمان ، كقوله عز ذكره : (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) فإسماءُ الزمان كلها تضاف إلى الفعل ، نحو قولك : آتاك يوم يخرجُ زيدٌ ، وجئتكَ يوم قام عبد الله ، وما كان منها في معنى الماضي جاز أن يضاف إلى الابتداء والخبر ، فتقول : جئتكَ يوم زيدٌ أميرٌ ، ولا يجوز ذلك في المستقبل ، وذلك لأن الماضي في معنى إذ ، وأنت تقول : جئتكَ إذ زيدٌ أميرٌ ، والمستقبل في معنى إذا ، فلا يجوز أن تقول : أجيتكَ إذا زيدٌ أميرٌ ، فذلك لا يجوز أجيتكَ يوم زيدٌ أميرٌ . فالما الأفعال في إذا وإذ فهي بمنزلة واحدة ، تقول : جئتكَ إذ قام زيد ، وأجيتكَ إذا قام زيد ، فهذا واضحٌ بين . وبما يضاف إلى الفعل « ذو » في قولك أفضل ذاك بني

تسلم ، وافعلناه بذئ طمان ، معناه : بالذي يسلمكمنا ، ومن ذلك آية في قوله :

بِآيَةٍ تَقْدِمُونَ الْحِلَّ شَعْنًا كَانَتْ عَلَى سَنَابِكِهَا مُدَامًا

والنحر يتصل ويكثر ، ولما تركنا الاستقصاء لأنه موضع اختصار . فقال المهلب : إنا والله ما كنا أشد على عدونا ولا أحد ، ولكن دمع الحق الباطل ، وقهرت الجماعة الفتنة ، والعاقبة للتقوى ، وكان ما كرهناه من المطاوعة خيراً مما أحببناه من العجة . فقال له الحجاج : صدقت ، اذكر لي القوم الذين أبلوا وصف لي بلاءهم . فأمر الناس فكتبوا ذلك للحجاج ، فقال لهم المهلب : ما ذخر الله لكم خير لكم من عاجل الدنيا إن شاء الله . ثم ذكروا للحجاج على مراتبهم في البلاء وتقاضهم في الغناء ، وقدم بنو المغيرة ويزيد ومدركا وحياً وقيصة والمفضل وعبد الملك ومحمداً ، وقال : إنه والله لو تقدمهم أحد في البلاء لقدمته عليهم ، ولولا أن أظلمهم لأخرتهم . قال الحجاج : صدقت ، وما أنت بأعلم بهم مني وإن حضرت ونبت ، إنهم ليوف من سيوف الله . ثم ذكر معن بن المغيرة بن أبي صفرة والرقاد وأشباهها ، فقال الحجاج : أين الرقاد ؟ فدخل رجلاً طويلاً أجناً ، فقال المهلب : هذا فارس العرب ، فقال الرقاد : أيها الأمير ! إني كنت أقاتل مع غير المهلب فكنت كبعض الناس ، فلما صرت مع من يلزمني الصبر ويمعلنني إساءة نفسه وولده ويمجازيني على البلاء ، صرت أنا وأصحابي فرساناً ؟ فأمر الحجاج بتفضيل قوم على قوم على قدر بلائهم ، وزاد ولداً للمهلب ألفين ، وفعل بالرقاد وجماعة شياً بذلك .

قال يزيد بن حبناء من الأزارقة :

دعي اللوم إن العيش ليس بدائم ولا تعجلي بالقوم يأثم عاصم !
فإذ عجلت منك الملامة فاسمعي مقالة معني بحبك عالم
ولا تعذلي في الهدية إنما تكون الهدايا من فضول المغانم
فليس بمهدي من يصكون نهاره جلاداً ويمسي إليه غير قائم

يريد ثواب الله يوماً بطعنة غموس كشدق العنبري بن سالم
 آيت وسربالي دلاص حصنة ومغفرها واليف فوق الحيازم
 حلفت برب الواقفين عشية لدى عرفات حلقة غير آثم
 لقد كان في القوم الذين لقيتهم بلبور شغل عن يزوز الطائم
 توقد في أيديهم زاعية ومرهفة تقري شؤون الجماع

قوله « من يكون نهاره جلاًداً ويُمسي إليه غير قائم » يريد : يُمسي هو
 في إليه ويكون هو في نهاره ، ولكنه جعل الفعل ليل والنهار على السعة ،
 وفي القرآن (بل مكر الليل والنهار) والمعنى : بل مكركم في الليل والنهار ،
 وقال رجل من أهل البحرين من العصوص :

أما النهار ففي قيدي وسلسة والليل في جوف منحوت من الساج
 وقال آخر :

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى ومعت وما ليل الطي بنائم
 رلو قال : « من يكون نهاره جلاًداً ويُمسي إليه غير قائم » لكان جيداً ،
 وذاك أنه أراد : من يكون نهاره مجالداً جلاًداً ، كما تقول : إنما أنت سيأ ،
 وإلما أنت ضرباً ، تريد : تسير سيأ ، وقضرب ضرباً ، فأضمر لعلم المخاطب أنه
 لا يكون هو سيأ ، ولو رفعه على أن يجعل الجلال في موضع الجالداً ، على
 قوله : أنت سير ، أي أنت سائر ، كما قالت الحنساء :
 . فإنما هي إقبال وإدبار .

وفي القرآن (قل أرايتم إن أصبح مائوكم غوراً) أي غائراً ، وقد مضى
 تفسير هذا بأكثر من هذا الشرح . ولو قال « ويُمسي إليه غير قائم » لجاز ،
 بصير اسمه في « يُمسي » ويجعل إليه « ابتداء » ، و « غير قائم » خبره على
 السعة التي ذكرنا . وقوله « غموس » يريد واسعةً محيطة . و « العنبري » بن سالم
 رجل منهم ، كان يقال له الأشدق . و « الطائم » واحدتها « لطيمة » وهي
 الإبل التي تحمل البز والعطر . وقوله : « توقد في أيديهم زاعية » يعني

الرماح ، والتوقدُ للأسنّة ، والزاعيةُ منسوبةٌ إلى زاعبٍ ، وهو رجل من
الخروج كان يعمل الرماح ، و « تفرى » : تقدُّ ، يقال : فرى : إذا قطع ،
وأفرى : إذا أصلح .

وقال حبيب بن عوفٍ من قواد المهلب :

أبا سعيدٍ جزاك الله حادثةً فقد كتفت ولم تعنف على أحد !
داويت بالحلم أهل الجبل فانقمصوا وكنت كالوالد الحاني على الولد

وقال عبيدة بن هلالٍ في هربهم مع قطريّ :

ما زالت الأقدار حتى قذفتني بقومس بين الفريخان وصول

ويروى أن قاضي قطريّ وهو رجلٌ من بني عبد القيس سمع قول عبيدة
ابن هلالٍ :

علا فوق عرشٍ فوق سبع ودونه سماترى الأرواح من دونها تجري
فقال له العبدى : كفرت إلا أن تأتي بمنخرج ، قال : نعم ، روح المؤمن
تخرج إلى السماء ، قال : صدقت . وقال يذكر رجلاً منهم :

يوي وترفعه الرماح كأنه شلوّ تشبّ في غلاب ضارٍ
فتوى صريعاً والرماح تنوشه إن الشراة قصيرة الأعمار

« تنوشه » : تأخذه وتتاوله ، قال الله عز وجل : (وأنى لهم التناوش من
مكان بعيدٍ) أي التناول . ومثل بيته هذا قول حبيب الطائي :

فيم الشهامةُ إعلناً بأسد وغىً أفتام الصبر إذا أبقاكم الجزعُ
وقال أيضاً في شيء بهذا المعنى :

إن يتحل حدثان الموت أنفكم ويسلم الناس بين الحوض والعطن
فالله ليس عجباً أن أعذبه يفنى ويمتدُّ عمر الآجن الأسين

وقال أيضاً :

عليك سلام الله وقفاً فإني رأيت الكريم الحر ليس له مغمز

وقال القاسم بن عيسى :

أحبك يا جنان فانت مني مكان الروح من بدن الجبان
ولو أني أقول : مكان روحي لحقت عليك بأداة الزمان
لإقدامي إذا ما الحرب جاشت وهاب حماها حرّ الطعان

وقال معاوية بن أبي سفيان في خلاف هذا المعنى :

أكلن الجبان يرى أنه يدافع عنه للفرار الأجل ؟
فقد تدرك الحادثات الجبان وسلم منها للشجاع البطل

رجع الحديث : وقال رجل من عبد القيس من أصحاب المهلب :

سائل بنا عمرو القنا وجنوده وأبا نعامه سيد الكفار

أبو نعامه : قطري . وقال المغيرة بن جندب الحنظلي من أصحاب المهلب :

إني امرؤ كفتي ربي وأكرمني عن الأمور التي في رعيها وخم
إنما أنا إنسان أعيش كما علثت رجالاً وعلثت قبلها أمم
معاقتي عن قول الجند إذ قفلوا عني بما صنعوا عجزاً ولا بكم
ولو أردت قفولاً ما تجهني إذن الأمير ولا الكتاب إذ قفوا
إن المهلب إن أستق لرويته أو أمتدحه فإن الناس قد علوا
أن الأريب الذي ترجى نوافه والمستعان الذي تمجى به الظلم
القاتل الفاعل الميمون طائره أبو سعيد إذا ما عدت للنعم
أزمان أزمان إذ عض الحديد بهم واذ تمى رجالاً أنهم مزموا

قال أبو العباس : وهذا الكتاب لم ينته لتصل فيه أخبار الخوارج ،

ولكن ربما اتصل شيء بشيء ، والحديث ذو شجون ، ويقترح المقترح ما يفسح
به عزم صاحب الكتاب ، ويصده عن سته ، ويؤيده عن طريقه ، ونحن راجعون
إن شاء الله إلى ما ابتدأنا له هذا الكتاب ، فإن مر من أخبار الخوارج شيء
مر كما يمر غيره ، ولو نسقناه على ما جرى من ذكرهم لكان الذي يلي هذا
خبر نجدة وأبي فديك وعمارة الرجل الطويل وشيب ، ولكان يكون الكتاب
للخوارج خلاصاً .

الفهرس

- ٥ بيعة الحوارج لعبد الله الراسبي وتكرمه
- ٦ وقوع واصل بن عطاء في قبضة الحوارج وحياته
- ٦ توجيه سيدنا علي بن عبد الله بن عباس للحوارج لمناقشتهم في الخروج على أمير المؤمنين علي
- ٧ استفتاء اعرايي عمر بن الخطاب فيمن أصاب ظلياً وهو محرم
- ٧ قول قطري بن الفجاءة لأبي خالد القتاني ورده عليه
- ٨ حديث عمران بن حطان رأس القعد من الصقرية
- ١٦ أول من حكم من الحوارج
- ١٦ أول سيف سل من سيوف الحوارج
- ١٧ سبب تسمية الحوارج الحروية
- ١٨ كلمة الصلتان العبدى
- ١٩ خطاب الراعي لعبد الملك
- ٢٠ محاربة المهلب للأزارقة وقول شاعر الأزارقة في ذلك
- ٢٢ حديث الرجل الأسود مع النبي ﷺ حين قسمة غنائم خيبر
- ٢٤ هجاء بشار بن برد لوائل بن عطاء
- ٢٥ لثغة واصل بن عطاء وقدرته على تجنبها
- ٢٦ محاربة علي للحوارج وهرب قسم منهم إلى مكة
- ٢٧ اتفاق ثلاثة من الحوارج على قتل علي ومعاوية وعمرو

- ٣١ رثاء أبي زيد الطائي علي بن أبي طالب
- ٣١ رثاء الكميت علي بن أبي طالب
- ٣٢ قول كثير في حبس عبد الله بن الزبير محمد بن الحنفية
- ٣٤ وقف علي بن أبي طالب أمواليه
- ٣٥ كتاب معاوية إلى عامله مروان بن الحكم بشأن خطبة أم كلثوم
- ٣٥ حديث أمير المؤمنين علي مع الحوارج في أول خروجهم عليه
- ٣٧ حوار عبد الله بن خباب مع الحوارج
- ٣٨ سمر غيلان بن خرشة الضبي عند زياد وحديثه عن الحوارج
- ٣٨ معارضة مرداس لزياد وهو بخطب
- ٣٩ من يرى رأي الحوارج من الفقهاء ومن لا يراه
- ٣٩ كلمة (لا أبالك) وفيه تستعملها العرب
- ٤٢ وصف النبي ﷺ الحوارج
- ٤٣ اتباع نافع بن الأزرق عبد الله بن عباس
- ٤٤ هجاء جرير لآل المهلب بن أبي صفرة
- ٤٧ تضجر ابن عباس من ابن الأزرق
- ٤٩ حوار عبد الملك مع أحد الحوارج
- ٥٠ وفادة الكتاني على معاوية
- ٥١ حديث عبد الملك مع الكتاني الذي أسلم
- ٥١ حديث ابن جعدبة للنصور
- ٥٢ أهل النخبة وعلي بن أبي طالب
- ٥٤ أول من خرج على معاوية بعد قتل علي
- ٥٥ حديث عمار بن ياسر عن النبي ﷺ
- ٥٦ وصية سيدنا علي لأبنائه بعد طعنه
- ٥٧ خروج قريب الأزدي وزحاف الطائي على زياد

معامة زباد لمن خرج من النساء	٨٨
قصة البلغاء الخارجية	٥٩
أخبار مرداس الخوارجي	٦٠
مدح عيسى بن فائق الخوارج	٦٣
رثاء عمران بن حطان مرداساً	٦٥
مقتل عباد بن أخضر المازني	٦٦
الفردق يذكر أخذ ثور عباد	٦٦
تشديد عبد الله بن زباد على الخوارج	٦٨
سياسة زباد مع الخوارج	٦٨
الرَّهْن	٦٩
المختار بن عبد الله التقي	٧٠
باب اللام التي للاستغاثة والتي للإضافة	٧٥
عود إلى أخبار الخوارج	٧٧
عبد الله بن زباد وخالد بن عباد السدوسي	٧٧
افتراق الخوارج	٧٨
حوار الأزارقة مع ابن الزبير	٨٠
خروج نافع بن الأزرق إلى الأهواز	٨٣
انفصال نجدة بن عامر عن نافع بن الأزرق وخروجه إلى البصرة	٨٥
كتاب نجدة بن عامر إلى نافع	٨٥
جواب نافع إلى نجدة	٨٦
كتاب نافع إلى عبد الله بن الزبير	٨٧
كتاب نافع إلى من بالبصرة من الحكماء	٨٨
مقتل نافع بن الأزرق في وقعة دولاب	٩٠
قول قطري في يوم دولاب	٩٢
باب فُحْلٍ	٩٤

- ٩٥ باب النسب إلى المضاف
- ٩٧ عود إلى أخبار الحوارج
- ٩٧ الأزارقة وولادة ابن الزبير في البصرة
- ٩٩ تشاور أهل البصرة وتولية المهلب بن أبي صفرة لقتال الحوارج وأخبره معهم
- ١٠٢ كتاب المهلب إلى الوالي يشره بالنصر وجواب الوالي عليه
- ١٠٣ خطبة المهلب في أصحابه يحثهم على قتال الحوارج
- ١٠٤ هجاء رجل من بني عجم للمهلب
- ١٠٦ معنى الضار وأصل كلمة كائن
- ١٠٧ يوم سلى وسليرى
- ١١١ كتاب المهلب إلى الوالي الحارث بن عبد الله وجواب الوالي عليه
- ١١١ مباحة الحوارج الزبير بن علي
- ١١٤ تولية مصعب بن الزبير على البصرة واستقدامه المهلب
- ١١٥ تولية عمر بن عبيد الله مكان المهلب بقتال الحوارج
- ١٢٠ حصار الحوارج لعناب بن ورقاء وانتصاره عليهم
- ١٢٣ مباحة الحوارج قطري بن الفجاءة بعد مقتل الزبير بن علي
- ١٢٤ كتاب عبد الملك إلى المهلب يوليه
- ١٢٥ عزل خالد بن عبيد الله المهلب ومحاربته الحوارج في الأهواز
- ١٢٦ مأثر فيروز حصين
- ١٢٧ تولية خالد أخاه عبد العزيز. قتال الأزارقة
- ١٣٢ كتاب خالد إلى عبد الملك يعذر أخيه عبد العزيز وجواب عبد الملك عليه
- ١٣٣ تولية بشر بن مروان مكان خالد بن عبيد الله
- ١٣٣ كتاب الخليفة إلى أخيه بشر يأمره بتولية المهلب. قتال الأزارقة وكره بشر لذلك
- ١٣٤ تأكيد الخليفة تولية المهلب قتال الحوارج
- ١٣٥ موت بشر واختلاف الكلمة على ابن مخنف

- ١٣٦ تولى الحجاج أمر العراق
- ١٣٧ رسائل الحجاج الى المهلب ووروده عليها
- ١٤١ توجيه الحجاج البراء بن قبيصة إلى المهلب
- ١٤٤ لإرسال الحجاج الجراح بن عبد الله إلى المهلب يستبطنه
- ١٤٥ كتاب الحجاج إلى عتاب بن ورقاء الرياحي
- ١٤٦ وقوع الخلاف بين عتاب والمهلب بسبب أرزاق الجند وسعي المغيرة بينها بالصلح
- ١٤٧ دعاء المهلب وقوة حيلته في ابتلاع الخلاف بين الحوارج
- ١٥٠ كتاب الحجاج يتحث المهلب
- ١٥٢ كتاب المهلب إلى الحجاج
- ١٥٨ ما قاله عبد ربه لأصحابه عند اشتداد الحصار
- ١٦٢ رسولا المهلب إلى الحجاج
- ١٦٣ كتاب المهلب إلى الحجاج بالنصر ورد الحجاج عليه
- ١٦٣ تولى المهلب ابنه يزيد على كerman وقدمه على الحجاج
- ١٦٤ الحجاج يكرم المهلب ويثني عليه
- ١٦٦ الحجاج يطلب من المهلب أن يصف له بلاء أصحابه
- ١٦٦ قول يزيد بن حنانه من الأزارقة وتفسير ماورد في ذلك من الغريب
- ١٦٩ قول المغيرة بن حنانه الحنظلي من أصحاب المهلب يمدحه
- ١٧١ القهرس

9

 Bibliotheca Alexandrina



0497920

10